نجوى بن شتوان

كونشيرتو قورينا إدواردو

مكتبة 1252

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

مكتبة | 1252

كونشيرتو

قورينا إدواردو

مكتبة
t.me/soramnqraa
11 7 23

الكاتب: **نجوى بن شتوان**

عنوان الكتاب: **كونشيرتو قورينا إدواردو**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-56-3

الطبعة الأولى - مايو/ أيار - 2022

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

نجوى بن شتوان

مكتبة | 1252

كونشيرتو

قورينا إدواردو

رواية

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

كنا شبيهين تمامًا، كان يمكن أن نكون توأمين.

بوكوڤسكي

إلى روح أختي ريم

مكتبة
t.me/soramnqraa

خلطت أمي بيننا في البانيو فقررت منذ تلك المرة طلاء أظافري باللون البنفسجي و طلاء أظافر أختي باللون الأحمر ليسهل تمييزنا.

ثم ميزتنا من حركة أيدينا بعد أن لاحظت أنني أمد يدي اليمنى لأخذ الأشياء، بينما تمد توأمي يدها اليسرى.

كان ذلك قبل أن نبلغ عمر الكلام، ويُطل فارق آخر، إذ بدأت أنا الكلام في سن العامين تقريبًا، بينما لم تنطق أختي بكلمة!

لم يكن هناك من سببٍ سوى أنها تأخرت في الكلام وبعض الأطفال يتأخرون فلا مسوِّغ للقلق، قال الأطباء، إلا أن القلق كان طبيعة في العائلة، أخذت جدتي أختي للأطباء مرة بعد أخرى وذات مرة حصلت على وصفة من امرأة في غرفة الانتظار فأخبرت جدي عنها، فذهب جدي إلى الجزار وجلب سبعة ألسنة لسبعة خراف كما تقول الوصفة علَّ عقدة لسانها تفك.

طهت جدتي الألسن السبعة وأطعمتها إياها وقد تقصَّدت أن

تكون جائعة لكي تأكل أكبر قدر منها. أكلت أختي على مرتين وقيل إنني في المرة الثانية شاركتها الأكل، وتساءل جدي عمَّا إذا كان الأكل من الوصفة سيطيل لساني زيادة عن طوله، فضحكت جدتي مبررة أكلي.

- هذه بلاد يحتاج فيها المرء إلى لسانين كي يستطيع أن يأخذ حقه. فدعها تأكل.

لا أعلم بعد ذلك ما الذي فك عقدة لسان أختي، فنطقت. هل ألسنة الخراف السبعة أم الوقت الذي نصح به الأطباء!؟

لقد تكلمت أختي لكن كان لديها تأتأة!

حاولت العائلة تحريرها من ذلك العيب الذي شاب طريقتها في الكلام بكل السبل، خاصة في عمر ما قبل المدرسة.

لكن العيب لم يترك كلامها، وذهب معها إلى المدرسة، وفي المدرسة نشأ الخوف والحرج فلم أتركها تواجههما وحدها، أزرت أختي إلى حد أني تعلمت التأتأة مثلها لألغي الفارق بيننا وأمنع عنها تنمر المتنمرين، وحتى لا يعلق بها ذلك الوصف البغيض «المتأتئة».

تصدت أمي لي خشية أن تصبح التأتأة عادة في كلامي، لكنني أجدتها كما يجيد المرء لغة ثانية. وصار من الصعب تمييزنا بعضنا من بعض بالشكل أو بالكلام.

بل إننا تلاعبنا بالعائلة فتبادلنا طلاء الأظافر بيننا واستمتعنا بسرِّنا الصغير.

أحمر لي وبنفسجي لها.

لم نترك شيئًا يميز بيننا. حتى ما عاد لشيء أن يكون فرقًا سوى حياة إحدانا أو موتها.

قطار ليبيا

أول مرة عرفت فيها آمال ابنة أمزا[1] مسعود، تعود إلى زمن قديم لا أتذكر شيئًا قبله.

أذكر أنها في الفويهات، وأنها كانت في الصباح وكانت رائحة البيت طعامًا، وأختي أمينة تساعد أمي في المطبخ والعائلة ستجتمع لدينا على الغداء.

كنت ألعب في البراح الوسيع أمام الڤيلات مع شقيقتي حين لاحت فتاة ترتدي بنطالًا جينز و بلوزة بيضاء، كانت طويلة جميلة بشعر منسدل على كتفيها، ابتسمت لنا حالما رأتنا فركضنا هاربتين منها، نادتنا باسمينا عارضة علينا الحلوى والهدايا حتى لا نكمل الهرب، فربضنا خلف شجرة ليمون نتدبر خيارنا، هل نعود أم نمضي في قرار الاختباء من الفتاة الغريبة.

---

(١) أمزا في لهجة كريت تعني عمي.

هل كانت إحدى جنيات المكان اللائي يغلقن الفراغات هنا كما يقول أخي أيوب؟ وهل ترتدي الجنيات ثيابًا معاصرة كالتي ارتدتها الفتاة وتتكلم مثلها وتجلب الحلوى والهدايا من ألمانيا وتعرف اسمينا؟

قالت أختي: أظنها آمال ابنة أمزا مسعود.

وضعت يدي على فمي وغمغمت: يااااه.

لم أتصور أن لنا ابنة عم جميلة إلى ذلك الحد.

كانت تلك المرة أول مرة أرى فيها آمال وأدركها بعد أن غادرت بنغازي وأنا صغيرة، وطال غيابها وغياب العائلة. سمعنا أنها كانت بسبب حادث سير مأساوي تعرضت له عائلة عمي. توفيت فيه زوجة عمي السيدة كارلا وقضت آمال جراءه فترة علاج طويلة في برلين.

لم نكن أنا وأختي قد قابلنا السيدة كارلا، فقد جاءت إلى الدنيا وغادرت ولم نرها إلا في الصور. لكني أحببت ما خلَّفته لنا وكان يشبهها، آمال ابنتها وابنة أمزا مسعود بجمالها ولطفها واختلافها.

ملأ وجودها علينا المكان الخالي، وكانت أوقاتنا معها سعيدة ومبهجة، كانت تقضي معظم وقتها في بيتنا هي وأمزا مسعود وحين تعود إلى ڤيلتهم للراحة والنوم تصحبني وأختي معها. تُدخِلنا غرفتها وتعطينا ألعابها وهي صغيرة، والأهم أنها كانت تتركنا نعبث بخزانة ثيابها، نرتدي الألبسة والأحذية العالية ونلتف بالشالات ونستغرق في التمثيل وعروض الأزياء متناسيتين الدنيا من حولنا.

كانت تتركنا نفعل ما نريد، وقد أهدتني القطار الكهربي الذي أحببته وسافرت به إلى كل الدنيا حين رأتني أطيل اللعب به.

حفزتني آمال دائمًا على الكلام حين علمت بالصعوبات التي أعانيها، لعبت معي بعض ألعاب اللغة لتجعلني أتكلم. وكنت أفعل ربما لأنني أحبها وأريد الحفاظ على اصطحابها لي إلى الأماكن التي تذهب إليها داخل بنغازي وخارجها وأريد كذلك أن تستمر في محادثتي كما لو أنني أختها الصغرى، فهي لا تطالبني بالحديث فقط كما يفعل الآخرون بل تتحدث إليَّ كصديقة.مكتبة سُر مَن قرأ

ثم كبرت وصرنا نتكلم في التليفون سريعًا كلما اتصل بهم جدي وأمي، وكان حديثي خلال الدقائق الممنوحة لي مختصرًا في: متى تعودين إلى بنغازي؟

كانت أمينة وآمال صديقتان تتجالسان في ڤيرندا بيت عمي، كنا نسمع أحاديثهما عن الموضة والأزياء والحب والطبخ والأفلام والأغاني، وتتبادلان بعض النكات المشفرة، والأشرطة والكتب والمجلات، كنت أنا وتوأمي من نقوم بدور ساعي البريد بينهما؛ نأخذ من هذه ونحمل إلى تلك. لكننا قبل التسليم من كلتيهما نختبئ وراء الڤيلات لنستكشف الأشياء، اكتشفنا المكياج والعطور والقمصان وملابس داخلية ومجلات أجنبية فيها رجال ونساء يتبادلون القُبَل، أي أننا اكتشفنا القُبَل، وكانت أخطر اكتشاف حيَّرنا وأشعرنا بالخجل والحرج وجعلنا نطوي المجلات أسفل ثيابنا كي لا يراها أحد. كان الأشخاص الذين رأيناهم في المجلات ما بين أمينة وآمال أول

مارأيناه من ذاك العالم المحجوب عن الظهور، والذي لا نعرف عنه سوى التكهنات، وقد سألت أختي: أليس هذا عيبًا؟ فقالت لي:

- بلى، لكن في السر ليس عيبًا.

فسألتها : ألا نخبر أمي؟

فكان رأيها لا، إن أخبرناها فإننا لن نرى شيئًا جديدًا.

توافقنا على الصمت وعلى أن نظل نرى المزيد.

لكن أمينة اكتشفت أمرنا فاستجوبتنا استجوابًا شديدًا في غرفتها، حاولنا الإنكار ثم وجدت أختي الجرأة لتهددها بفضح الأمر لأمي ولأيوب إذا عاقبتنا، فهدأت أمينة وفتحت درجها وأعطتنا علكة وقالت إنها سامحتنا، لكننا لم نخرج من الغرفة إلا بعد أن عقدت معها أختي اتفاقًا يقضي باستمرارنا في خدمة ساعي البريد مقابل الصمت.

خضعت أمينة لابتزازنا أيامًا ثم غدت لا تفارق آمال.

كان العالم الموجود بين ضفاف المجلات وأشرطة الكاسيت عالمًا جميلًا ليس له مثيل في الواقع، عالم لا نراه إلا مختبئًا في الأكياس التي نحملها ذهابًا إيابًا ونحشر أنفينا فيها وكلما سألنا سائل ماذا تحملان، قلنا: كتبًا أو طعامًا.

أدركنا أن نصيبنا منه قادم لا محالة حين نكبر ونصبح هدفًا لفتيان المدارس والشوارع كما يحدث لأختي أمينة حين نمشي معها راجلين من جليانة إلى مركز المدينة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذات يوم كنا نحمل لآمال طعامًا، فرأينا شابًّا أمام ڤيلا أمزا مسعود، يقف إلى جانب سيارة جاكوار حمراء ويتحدث إلى آمال، لم نكن قد رأيناه من قبل. اعتقدنا لوسامته وأناقته أنه خرج من إحدى المجلات الإيطالية، تبادلت مع أختي نظرات متفاجئة وكأن المشهد كذلك خرج من إحدى المجلات وليس الشاب فقط، فآمال هي الأخرى كانت فاتنة الجمال وأي رجل يراها سيقع في شراكها.

تجمدنا في موضعنا حتى كأننا جذع شجرة لا يشعران بنا، راقبنا تطور المشهد كما يتطور في المجلات ببطء من الصفحة الأولى إلى السابعة، وكان كذلك لولا ظهور أمزا مسعود المفاجئ الذي دعسه فأعاده إلى الواقع وتحركت على إثره السيارة الحمراء المكشوفة، ولوَّح الشاب منها بيده لعمي وابنته قبل أن تتوارى ما بين الأشجار.

إنه خطيب آمال، هكذا أجابتنا أمينة، وكان أيوب غاضبًا من مجيء الخطيب إلى بيت عمي، حتى إنه هدد بضربه وتهشيم سيارته إن رآه مرة ثانية أمام الڤيلات. تدخلت أمي ومنعته من أن يصدر عنه ما يزعج عمي وابنته، لكنه لم يُرع ولم يكف وزاد من مراقبة آمال والتربص بصاحب السيارة.

كان حانقاً ويبرطم بالشتائم.

ظل الشاب الوسيم ذو الشعر الكثيف المسدول إلى كتفيه، والقمصان الملتصقة بقوامه النحيل، وبنطلون شارون ستون يتردد على بيت أمزا مسعود في حضور عمي وغيابه وكنتُ ذات مرة

موجودة في بيت عمي ألعب بالقطار في الصالة، حين رأيت «فيصل» وكان هذا اسمه، يدخِل يده داخل قميص آمال ويضمها ويقبلها، أكمل القطار دورته من دوني، كان شيئًا افتكني من طفولتي وجعلني أتساءل: لماذا يفعل الكبار هذه الأشياء الجميلة ويقولون لنا إنها «عيب»؟

لماذا يفعلون العيب طالما هو عيب؟ ولماذا يأتي الأطفال من العيب ويفرح الأهل بقدومهم منه؟

عندما بُحت بمشاهدتي لشقيقتي أقنعتني بأنه ليس عيبًا إلا لأننا أطفال والأمر سوف يختلف ما إن كبرنا، قالت أيضًا إننا يجب أن نأكل لننمو بسرعة. فصدقت كل ما قالت عن الحب والطعام.

صحبت آمال وخطيبها كثيرًا، وكأن العائلة اشترطت أن يكون هناك أحد منها معهما. حتى لو كان ذلك الشاهد صغيرًا ويعاني اللعثمة ولا يبوح للمستجوبين بما يريدون الحصول عليه.

أخذنا فيصل في سيارته الجاكوار المكشوفة مرارًا وجال بنا في المدينة جهة البحر، كانت يده في يد آمال وكان كثير الضحك ويغني مع المسجلة جميع الأغنيات الأجنبية. كانا يحبان قلب المدينة وكورنيشها ويفضلان الجلوس عند الرصيف البحري عند أطراف جليانة الفارغة من الناس، يتبادلان الهمس في وَلهٍ، بينما ألعب بألعابي غير بعيد منهما، وقبل ختام الجولة كان يشتري لنا آيس كريم لذيذًا من مثلجات «الرقريقي» ويدس شيئًا في كف آمال.

رأيت الكثير مما كان ممنوعًا على خطيبين. فالشاب لم يكن يغادر إلا وهو محمل بقبلات تكفيه أسبوعًا من آمال وهي كذلك.

أوصتني ابنة عمي بالسرية فحافظت عليها كي تستمر جولاتي معها أينما ذهبت.

فرحت بالأماكن التي زرتها والتي سأزورها من دون الحاجة إلى القطار الكهربي وحلمت بالآيس كريم الذي سأحصل عليه ما لم أفتح فمي بكلمة، لم لا؟ لن يكلفني ذلك شيئًا فأنا أعاني صعوبات النطق والكلام على أي حال.

ذات يوم دخلت ڤيلا أمزا مسعود حاملة مشطي ومنشفتي، حيث من عادة أمي أن ترسلنا أنا وأختي إلى آمال كي تمشطنا، وجدتها جالسة في الصالون بعيون مبتلة وأنف محمر، كانت تبكي وحدها.

لم أستطع الكلام، اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها، استمرت في البكاء حتى أبكتني معها، ثم انتبهت إليَّ فضمتني إليها، وقالت: لا تخافي، لم يحدث شيء وغسلت وجهها ووجهي.

تأتأت طويلًا لأسألها عمَّا بها، ولا أظنني قلت جملة واحدة مفيدة.

أخبرتني من تلقاء نفسها أن خطيبها اختفى من دون مقدمات، قيل إن أهله هرَّبوه إلى مصر بعد مداهمة الأمن بيتهم.

لم أفهم لماذا فعل الأمن ذلك، وماذا فعل الشاب حتى يأخذه الأمن؟

لم أفهم لماذا اختفى فيصل فجأة من حياة آمال وحياتي، ولم تعد آمال تجده حولها أو تجد السعادة، لم يُجب على التلفون، لم يأتِ ليودعها، لم تعثر عليه في نادي الملاحة أو مصيفها، لم يره أحد في مقاهي لَبْلاْد، بحثت عنه هنا وهناك، وبكت أحيانًا لأنه اختفى دون إخبارها، أو ربما لأنها تشتاق إليه وتفتقده.

بعد بضعة أيام من اختفاء صاحب الجاكوار أُغلق باب ڤيلا أمزا مسعود على دموع آمال وحيرتها وسافر عمي وابنته من جديد إلى ألمانيا البعيدة. لم يعد هناك آيس كريم، ولا حب منفلت من مجلة إيطالية وصلت ليبيا بالتهريب. توقفت المجلات وبقي سر اختفاء فيصل غامضًا وسكنت ڤيلا أمزا مسعود الأشباح التي يسرد أيوب قصصها، وسكنت محبة ابنة عمي قلبي وعقلي منذ ذلك الحين ولم يغير الزمن شعوري بها منذ أن بدأ.

الفويهات

في الأيام العاصفة تقفل الأبواب والنوافذ جيداً، تُسَدُّ الفراغات الصغيرة بقطع الإسفنج والخرق المبللة صدًّا للغبار ومنعًا لتسربه إلى الداخل، تتحول الفويهات إلى عجلة من غبار أحمر، تنسف على رأسها ما تقحفه من طين الأرض في دورة لا يعلم إلا الله متى تبدأ ومتى تنتهي. عواصف القبلي المتربة حين تهبُّ هي أكثر ما يبقينا في الداخل، حماية للوجه والعينين والرئتين.

احتجاز الطقس لنا جعلنا نعتاد بعضنا بعضًا ونعتاد وجود مروان الأحرش صديق أخي أيوب. كان وجوده بمناسبة في البداية، ثم صار لا يحتاجها ليكون بيننا. تعرف مروان على أيوب في المدرسة الإعدادية بعد انتقالهم من طبرق إلى بنغازي، ومنذ ذلك الحين تلازما، ورأت فيه أمي شخصًا جيدًا لرفقة أيوب. كانت تنتقي لنا كل شيء حتى الأصدقاء، دون أن نشعر بأنهم اختيارها وليسوا اختيارنا.

أحسن مروان وأيوب اختراع قصص مخيفة تنضح بالدماء واللصوص والضحايا لتخويفنا، ونحن نخاف بطبعنا الهش كبنات

إلى حد الخشية من ذهاب إحدانا بمفردها إلى الحمام إثر سماع قصة من قصص الجن أو العفاريت أو المجرمين، كانت القصص المخيفة لعبتهما المفضلة كلما حلك الليل وزاد هزيع الريح و خفتت أنوار الڤيلا.

كنا نسمع لارتجاف الأشجار، ودحرجة براميل الصفيح الخاصة بالقمامة في الخارج، ولقلوبنا وهي تدق إذا ما سمعنا اصطدامًا أو ارتطامًا، ويزداد خوفنا كلما كان بيت أمزا مسعود خاليًا وهم هناك في البعيد البعيد جدًّا، ألمانيا.

نشعر أننا وحيدون فعلًا ومقطوعون عن العالم.

تأتي ڤيلا أمزا مسعود على بعد خطوات منا إلى الغرب، بينما ڤيلا أمزا خالد إلى الشرق، لكن أمزا خالد في حكم غير الموجود، كان منعزلًا بطبيعته، ولأسباب غير جلية كنا نميل إلى أمزا مسعود أكثر منه، كما لو أن توءمة العلاقات هي من توءمة الميلاد كذلك.

تألفت ڤيلات العائلة من طابقين لكل واحدة، اختلفت في الألوان وتشابهت في التقسيم الداخلي. كانت وسيعة، متعددة الغرف والحمامات، ومحاطة بأشجار العنب، والتين، والليمون، والبرتقال وبعض من شجر الزيتون. لم يحدها سياج، إذ لا أحد في الجوار القريب.

شرع جدي في تشييد الڤيلات لأولاده منتصف الستينيات. كانت آماله مزدهرة في ذلك الوقت وقد شيد عمارة جليانة بنمطها

اليوناني الفاخر، وسكن أحد طوابقها وأجَّر البقية، بينما كانت الفويهات فضاءً بكرًا تنتهي به معمورة بنغازي من الغرب، وكان البناء فيها أقل كلفة لبعده عن المركز. رأى جدي المستقبل بعين مختلفة عن عين جدتي التي لامته على اختيار المكان لما فيه من مسافة بينها وبين أولادها.

- افرحي يا أمينة يعقوب واصنعي بورماساري[1]، سنضع الأساسات ونذبح ذبيحة للصدقة، خيرات رب العالمين يا منيتي، الحمد لله.

- لكن الناحية مقطوعة ولا يصلها ماء؟

- حفرت بئرًا، لا تحملي همًّا، سيصل الماء إلى صنابير الڤيلات الثلاث من جابية البئر الصغيرة، سيجد الأطفال مكانًا للسباحة وستسقى الأشجار أيضًا. ونطعم من ثمرها حتى قبل سكنى الڤيلات.

ليس ثمة اختلاف فيما ترويه جدتي عما يرويه جدي عن بداياتنا في هذا العالم.

كانت الأشجار المثمرة في الفويهات أكثر الكائنات الحية هناك، زرع منها جدي الكثير، فاستجلبت الطيور لتصنع أعشاشها في دعة ووداعة في الفضاء المهيب.

---

(١) الكنافة القريتلية.

في الليل تمسي الفويهات خلاءً مخيفًا، إلا من هزيع الرياح ونباح الكلاب التي لا نعلم من أين تأتي وأين تختفي مع الصباح.

أقام أمزا مسعود بشكل دائم في برلين مذ سافر شابًّا للدراسة وحتى زواجه بمدام كارلا، كان لا يأتي إلا في الإجازة الصيفية قبل أن تنقطع أخباره فترة ليعود بعدها ويتردد على بنغازي، كان أمزا مسعود توءمًا لوالدي وكانت ظاهرة التوءم راسخة في عائلتنا، عرف بكثرة الأصدقاء والمعارف نقيض والدي الذي اكتفى بالقلة منهم، منكفئًا على رعاية أعمال العائلة ومساعدة جدي في تجارته.

عاد أبي بعد دراسة الاقتصاد في بريطانيا ليعمل مع جدي، وليتزوج زيجة عائلية من جوارهم ومعارفهم في سوسة، بينما تعرَّف أمزا مسعود على فتاة ألمانية ونشأت بينهما علاقة أثمرت عن آمال وهاني وزكريا.

كان أمزا مسعود يحبذ الجلوس في ڤيراندا مطبخ بيتنا حين يكون في بنغازي، له كرسيه ومكانه الخاص هناك، كان يأتي في الصباح باكرًا ليشرب قهوته لدينا، ويتبادل الأحاديث مع أمي، وفي المساء، نذهب نحن وأمي إلى بيته.

يحب أمزا مسعود تدخين البايب خلف طاولة الخشب المستطيلة في المطبخ مقابل الڤيرندا المفتوحة على حديقة الڤيلا الجانبية، ويحب اجترار ذكرياتهم في بيت العائلة في سوسة ولعل أحاديثه عن البحر والطبيعة الساحرة كان له دور في تعلقنا بسوسة وبذلك العصر الذي لم نحيا فيه بعد.

تفهَّمت أمي طباع أمزا مسعود وذائقته، حين نسمع صوته قادمًا في الصباح، نقدِّر أن غداءنا سيكون من اختياره وبناء على ما يشتهي.

عانت الفويهات من عدم وصول المياه إليها، وفي وقت قديم حلت مشكلة القليل من ساكنيها بصنبور عمومي، كنا نذهب مع والدتي بالسيارة لنتزود بمياه الشرب. ونقضي وقتًا مرحًا، لا سيما في الصيف حيث نلهو برش بعضنا بعضًا بالماء، كان مشوار الصنبور رحلة قصيرة ماتعة وبسببه تعلم أيوب قيادة السيارة وهو بعد صبي، فالدروب هناك خالية وما من خطر.

لم نكن وحدنا الأطفال الذين يقود بهم صبي إلى الصنبور مخترقين الأشجار، مثيرين التراب والضجيج على الدروب الطينية المتعرجة، كان هناك أولاد بضع عائلات سكنت الفويهات يأتون بسيارات أهاليهم للماء ويفعلون الشيء نفسه، المشهد الذي استغربته آمال ابنة أمزا مسعود عندما رأته ذات مرة وهي ترافقنا بفستانها الزهري وحذائها ذي الكعب العالي للصنبور. قاد أيوب السيارة متباهيًا أمامها، وغيَّر مساره ولفَّ بنا الفويهات عدة مرات قبل أن يتوقف بشجرة اللوز في سانية السنوسي، ويجمع منها ملء قميصه لوزًا احتفاءً بها. كان أمرًا اعتياديًّا لمن يعيشون هناك عدا آمال التي نهرت أيوب ليكفَّ فأزعجه كلامها فداس على البنزين وقاد السيارة بجنون خبط رؤوسنا بالكراسي، ونثر اللوز من أيدينا داخل السيارة المتحررة من الجاذبية قبل أن تتدخل شجرة كينا وتعيدنا إليها.

عدنا إلى البيت سيرًا على الأقدام، حملت آمال كعبها العالي في يديها لتستطيع المشي وقذفت أيوب بفردة منه.

وسط الجلبة صاحت توأمي هاذية ببعض الكلمات الغامضة التي ستلفت انتباه العائلة إليها:

- ساق أيوب... ساق أيوب!

هزتها أمينة لكي تتوقف عن الصراخ.

- ما بها؟ توقفي عن الصياح، ساقه ليس بها شيء، ها انظري.

كان أيوب يسير أمامنا ولا شيء به إلا أن أختي استمرت في الولولة مما دفع أمينة إلى توبيخها.

- توقفي عن الكذب وإلا فلن تتزوجي حين تكبرين.

صمتت أختي وظلت هكذا كل المساء وحين أوينا إلى أسِرَّتنا لننام همست لي قائلة:

- أنا لا أكذب صدقيني، أقسم بالله العظيم أنا لا أكذب. أنا متأكدة أنني رأيت أيوب بلا ساق بينما كان أمامنا!

لست أدري ماذا يحدث لعينَيّ فجاءةً حتى تتبدلان وتريان أشياءَ لا يريد أحد تصديقي بشأنها؟

همست لها بدوري:

- عيناكِ مثل صوتي لا أحد يصدق بأنني أسمعه صوتاً عادياً بلا تأتأة حين أتكلم مع نفسي !

١٩٧٣ - ١٩٧٨
الزحف الأخضر

كان مساءً هادئًا حتى تدَّخل فيه التلفزيون.

جلس جدي ليتابع خطابًا من دون مناسبة للقائد. في مباريات كرة القدم والخطابات السياسية يرفع الرجال أصوات التلفزيونات دون مبرر، وكأن الغرض هو الاستماع للهتاف أو ألا يُسمع ما يقال في خضم الجلبة.

امتقع وجه جدي وشعر بتقلص في أمعائه، نادى جدتي كي تأتيه بكوب ماء وقرص أسبرين، كانت جدتي تكوي في الردهة غير بعيدة وتسمع التلفزيون.

- ماذا بك، ماذا هناك؟ سألته.

أجابها بانقباض:

- هذا الرجل أرعن وسيقود ليبيا إلى الخراب بشطحاته الغريبة!

شدت جدتي قلبها.

- نسأل الله الخير، ماذا قال؟

نادى جدي أبي وكان يسكن الشقة المقابلة في عمارة جدي، قال له حين أتاه:

- هل سمعت الخطاب؟

أغلق أبي الباب وهمس لجدي:

- لا تتحدث بصوت عالٍ للحيطان آذان.

هز جدي كتفيه ساخرًا:

- تلفزيونات العمارة كلها مفتوحة تتابع بطل الصوت العالي. أخرج رأسك من باب الشقة وستسمع صراخه يملأ السلالم.

رددت جدتي تحذير أبي: أخفض صوتك، جارنا في الأعلى سائق تاكسي، أنسيت؟

لكن جدي استمر في التعبير عن نفسه.

- البلاد ذاهبة إلى المجهول المخيف. ما يهرف به هذا المخلوق التافه شيء خطر.

- إنه يهرف يا أبي.

- يهرف أجل، لكن نحن من سيدفع ثمن هرائه. إن كلامه ليس مجرد شطحة ثورية تحيطها هالة من تصفيق أهالي زوارة[(١)]

---

(١) يتكلم الزواريون لهجة الأمازيغ وليس اللغة العربية. كانت زوارة مكان خطاب الثورة الثقافية التي غيرت ليبيا بالكامل، الخطاب الشهير بالنقاط الخمس.

الذين أقسم بأنهم لا يفقهون قوله، إنه يعلن التأميم وانفراده بالسلطة، سترون صدق كلامي في قادم الأيام.

- مجرد مهرج ثرثار، محب للظهور والتصفيق، فلا تبالغ في تقديراتك يا أحمد عمران. قالت جدتي.

اعترى جدي الغضب، ورد متهكمًا:

- آها، أنا أبالغ.. أنا أفتري عليه.. إنه ملاك وأنا أبالغ.

تدخل أبي:

- أمي لا تقصد يا أبي. اهدأ الآن من فضلك ودعنا نفكر فيما إذا كان كلامه صحيحًا.

جلس جدي منصاعًا رغم توتره، وقال وكأنه يسأل أبي وجدتي وأمي:

- إن كلامه دعوة إلى تأميم الأملاك! أليس كذلك؟ أمر واضح بالسطو وشرعنته؟ هل فهمته صح؟ إنه يؤلب من لا يملك على من يملك، ومن يملك أقل على من يملك أكثر، تعلة ذلك إحداث ثورة اشتراكية. إنه يفتعل ثورة ليرضي غروره! عجيب! وهل نحن بحاجة إلى الاشتراكية وعددنا لا يصل إلى الثلاثة ملايين نسمة وبلادنا عائمة على بحر من البترول؟ ما لنا وما للعالم الآخر إن أرادوا أن يتحولوا إلى الاشتراكية أو الرأسمالية أو حتى يمسخوا أنفسهم؟ إن هذا القرصان ينهي الدولة وينهبنا. سيجعلنا هدفًا للسرقة المشرعنة، سيخلط

الناس بعضها في بعض ولن يكون بمقدورنا الدفاع عن أنفسنا من الرعاع والتنابلة والفاشلين الحاسدين الحاقدين الذين سيطلقهم علينا.

- اهدأ ..اهدأ وسينجلي الأمر.

- المنام السيئ يتحقق دائمًا بسرعة.

كان جدي يخبط قبضتيه بعضهما ببعض قابضًا وجهه، كازًّا على أسنانه.

- إنه يشرعن الفوضى، يجيِّش الرعاع على كل شيء. سيلغي الملكيات الخاصة كما يقول خطابه، سيزحف العمال على مصانع الملاك ويأخذونها، سيزحفون على طاحونة أبيك القديمة في قورينا يا أمينة يعقوب وينهبونها، فالأرض حسب قوله ليست ملكًا لأحد.

- الله لن يرضى بالباطل، قالت جدتي مستكينة.

وأعاد جدي كلامه وكأنه يريد إقناع جدتي الهادئة بأن تشاركه الغضب.

- إنه نزع ملكية يا أمينة، سينزع ملكيتي التي جهدت عمري كله لأصنعها، وكأني سرقتها أو وجدتها على قارعة الطريق أو وهبها لي هو، من أجل ماذا؟ ليعطيها لآخرين لم يكدوا كدي، بل اختاروا أن يكونوا فقراء ولم يجتهدوا في تحسين معاشهم بكفاف، كل هذا أمام عيني دون أن يسعني فتح

فمي بكلمة. إياك أن تتحدث إلى أخيك عن شيء في التلفون، الهواتف مراقبة.

- نعم لا تتكلم في شيء، الهواتف مراقبة.

- لن أتكلم في شيء، سيعلم بنفسه، بطريقة ما.

توقع أبي أن يصدر البنك قرارًا بتغيير الأوراق النقدية لإجبار التجار والناس الذين يخبئون أموالهم بعيدًا عن البنوك إلى إظهارها. لماذا يفعلون كل ذلك؟

- ابن حرام .. ابن حرام ليس في ذلك شك.

أخذ أبي أمي إلى المطبخ مدعيًا الهدوء، ومدعيًا أن جدي يبالغ في ردة فعله نتيجة كراهيته للقائد.

طلب منها إعداد القهوة لهم ووقف يدخن في البلكونه. لم يتحدث مع أمي كثيرًا، سألته عن رأيه الحقيقي، تحاشى أن يخبرها بمخاوفه.

مضت الأيام حذرة في ترقب. أخذ جدي في نقاشات مهموسة مع أصدقائه من رجال الأعمال، بعضهم كانت خطته أن يبيع استباقًا لتقليص الخسائر إذا ما وضعت الدولة يدها على الملكيات الخاصة، وبعضهم بدأ بنقل أمواله سرًّا إلى مصر أو إلى تونس استعدادًا لمغادرة البلاد.

تم استدعاء الأثرياء ورؤوس الأموال للتحقيق في كيفية جمع ثرواتهم، برز قانون «من أين لك هذا» وبدأ المحققون الأمنيون من

أبناء الطبقات الوسطى والفقيرة تحقيقات واسعة مع البرجوازيين كما نعتوهم وبدأت حملات اعتقال واسعة.

زادت مخاوف جدي، لكن المصنع استمر في العمل بوتيرة عادية. ثم استُدعي جدي لأول مرة إلى التحقيقات، أدرك جدي من مجيء الزائر الغريب من هو ولماذا جاء. قال له الرجل الغريب:

- الأفندي يحتاجك في دردشة غدًا صباحًا في جهاز الأمن الداخلي.

تساءل جدي عمَّن يكون الأفندي الذي طلبه. فلم يجبه الرجل وطفق يطرح أسئلة كثيرة على جدي من قبيل جمع المعلومات.

- ماذا تخيطون؟ كم تربحون؟ كم يتقاضى عمالكم؟ منذ متى بدأ نشاطكم، حساباتكم البنكية داخل ليبيا أم خارجها؟ مع من تتعاملون من الشركات الأجنبية؟ من أين تستوردون المواد الخام؟ ولمن تبيعون، دفاتر حساباتكم أين... إلخ.

ثم طلب من جدي أن يهديه شيئًا من الألبسة التي يخيطها المصنع. فأعطاه جدي قطعة overalls مما يزود به المصنع الشركات النفطية علَّه يغادر غير أن الرجل لم يغادر وأخذ يتجول في المصنع بكل صفاقة وكأنه بيته.

لم ينم جدي ليلته تلك، وفي الصباح استجمع صلابته وذهب إلى مقر الأمن الداخلي، تركوه ينتظر بالباب طويلًا حتى تآكل صبره، ثم أدخلوه مكتب أحد الضباط المتخفين في ملابس مدنية،

كان من ذوي السحنة الثورية نفسها التي تتقمص شخصية القائد صوتًا وصورة ونمطًا كاملًا.

بدأ الضابط كلامه عن مساوئ الرأسمالية والإمبريالية العالمية والعملاء والخونة وأعداء التحرر، قبل أن ينهال بالأسئلة على جدي: كيف جمعت مالك وما هي أعمالك؟ وهل تأسست على نهب ممتلكات اليهود في نكسة ١٩٦٧ بعد طردهم من ليبيا؟ وماذا يعمل ابنك في الخارج؟ ومن هم معارفه؟ ومن تعرف من المحسوبين على النظام الملكي الرجعي البائد في الداخل والخارج؟ هل تربطك علاقات بفلان وفلان وفلان... إلخ.

كانوا يسجلون كل شيء مغطيين أعينهم بنظارات سوداء تحجب عيونهم، وكانوا يرتدون البدل الكاكية قصيرة الأكمام، ولديهم نفس هيئة الشنب حرف T، ويتصنعون نفس الخنة والغنة في أصواتهم لتشبه صوت القائد، يدخنون سجائر روثمان بشراهة وكأنهم في سباق تدخين.

غادر جدي الأمن الداخلي بعد استجواب طويل محملًا برائحة التبغ والخشية، دون أن يفهم لاستدعائهم سببًا عدا البحث عن المشاكل والتمهيد للنهب.

إنهم ينبشون في حادثة طرد يهود ليبيا لاستخدامها، ما العلاقة التي يحاولون خلقها بين ممتلكاتنا وممتلكات اليهود التي سرقت منهم؟ إن من سرقوا أموال اليهود معروفون في كل مكان. بل إن بعضهم رفع في عهد القذافي وتمت ترقيته رغم شبهة السرقة عليه.

أجبر اليهود على الفرار بجلدهم إلى أوروبا خلال العهد الملكي، وقد تعرضوا للابتزاز والسرقة والمساومة على الخروج بعد تداعيات صدام العرب مع اسرائيل في فلسطين سنة ١٩٦٧.

صار اليهود هدفًا مشروعًا في البلاد العربية ورفع الملك في ليبيا يده عن حمايتهم.

يعرف جدي أخوين من درنة كانا يعملان عند تاجر يهودي في بنغازي، استغل الأخوان الفوضى وأعمال العنف وحرق ممتلكات اليهود فابتزَّا التاجر ليتنازل لهما عن أملاكه بالبيع الصوري نظير تأمين مغادرته برًّا إلى مصر هو وأسرته.

كان جدي يعرف ذينك الأخوين اللذين صارا من أعيان بنغازي لاحقًا، لكنه لم يفه بكلمة عنهما، من غير المعقول ألا يعرف الأمن قصص أولئك ومصائر ممتلكات اليهود، أين صارت ولمن صارت.

بعد أيام سمع جدي بخبر استدعاء صديقه عزت واحتجازه على ذمة التحقيق ثم أفرج عنه بكفالة مالية كبيرة وأوقفت أعماله.

زرعت قبالة بيته سيارة مرسيدس ١٠٠ فيها شخصان يقرآن نفس الجريدة ليل نهار ويتشابهان في السحنة الثورية ونوعية السجائر وعدم الحديث مع أحد، والشعر المنكوش عنوة.

وبالرغم من وجودهما ليل نهار أمام ڤيلا عزت فإن زوجته وأولاده نجحوا في الفرار إلى مصر.

كيف جرى تهريبهم؟ من أبلغ الأمن عنهم؟ لا أحد يعلم، ربما من دبر هربهم هو الأمن الداخلي نفسه، دون أن يشعروا بأن قرار الفرار ليس قرارهم!

ربما ليظهروا عزت من فعل ذلك ويلقى القبض عليه هذه المرة بتهمة أخرى.

ألقي القبض على عزت مرة ثانية وبثت جلسات محاكمته وآخرين على التلفزيون الرسمي كل مساء، وهتف العامة بقطع رأسه بعد متابعة محاكمته.

كان يبدو لصًّا كبيرًا وقد أقر بجرائمه. ليموت لاحقًا في السجن بطريقة غامضة.

صديق آخر من أصدقاء جدي باع عقاراته وغادر ليبيا سرًّا إلى تونس، ثم واصل الاختفاء من هناك ولم يتصل بأحد حتى لا يكشف مكانه. ربما ضابط الأمن الذي سكن بيته الفاخر من بعده هو من سهَّل له الخروج مقابل عملية بيع صورية عبر وسيط، كانت فرصة الأمنيين للاغتناء من حملة تطهير ليبيا من الخونة والعملاء والرجعيين والبرجوازيين المتعفنين كما ردد التلفزيون ليل نهار وردد العامة وراء التلفزيون. لقد نهبوا بطرق عدة، حتى ظهرت طبقة من الناس طفت على السطح، ليس لها من خصائص إلا ما يصيب الحديد إذا صدئ والطعام إذا تعفن، والماء إذا أسن، والثمر إذا تلف.

لم يكن ثمة خطأ أو ذنب ارتكبه جدي يدفعه إلى الفرار من ليبيا إذا ما كان القصد تخويفه وترويعه لدفعه إلى التخلي والنفاذ بجلده، قال: أنا باقٍ هنا، لست بسارقٍ، وأموالي جنيتها من كدي وتعبي، أما أملاك اليهود، فيعرف الناس من سطا عليها ونهبها، أنا ابن رجل مكافح ولست قرصانًا، ابن رجل اجتهد حتى نجح، وزرع حتى حصد، وتقلب في تجارته ما بين طرابلس وإسطنبول ودرنة وبنغازي وسوسة، لن يجدوا ضدي شيئًا إلا إذا فبركوه.

استمر استدعاء جدي إلى التحقيق من فترة إلى أخرى، تارة في بنغازي، وتارة في طرابلس، عاش تحت الضغوط، مرتابًا في كل شيء، متخوفًا من زوار الفجر الذين يختفي البعض من الوجود بعد زيارتهم.

وفي يوم من الأيام دق الباب فجرًا فأخذ يطمئن جدتي ويذكرها بوصاياه، لكن الطارق كان أمزا مسعود، جاء في زيارة مباغتة لبنغازي. سمع عن الاغتيالات التي نفذت في رجال أعمال مقيمين في اليونان وروما، وتناهى إليه شيء مما يجري في ليبيا من تبدل الأحوال، فعاد لاستبيان الأمور بنفسه عن قرب. صنعت جدتي قهوة بشيء من الآهات والحسرات وجلسوا يتحدثون. عند التاسعة طرق الباب مرة أخرى وكانوا هم بالفعل، جاءوا في طلب أمزا مسعود من أجل الدردشة.

«للضرورة الأمنية يتم التحقيق مع من كانوا خارج البلاد. تعرفون مواقف القيادة من الإمبريالية الغربية، والصهيونية العالمية، كلها جعلت بلادنا مستهدفة، الجميع يتربص بنا شرًّا».

تلك بعض حججهم، من يستطيع تصديق ذلك الهراء؟ عاد أمزا مسعود من التحقيق شاعرًا بالاستغراب والاختناق، ليس ثمة ما يثير الضيق، وفي نفس الوقت يوجد شيء ما يثير الريبة فيما يجري، لكن ما هو؟ ماذا يرومون؟ لا أحد يعرف، لا أحد يستطيع أن يفهم شيئًا مما يحدث أو سيحدث، فتح الغموض بابًا للتكهن وللشائعات التي بدأت تسري بين الناس، ربما لا تكون شائعات عفوية المصدر، بل شائعات مصنوعة بعناية وموجهة، وهناك إيعاز بترويجها!

بتاتًا لا شيء يبدو طبيعيًّا، ربما وراء كل شيء يد خفية. اقترح أمزا مسعود على جدي البيع والانتقال إلى بلاد مستقرة، بينما تركزت أسئلة الأمن الداخلي لأمزا مسعود على لماذا لا يعود للحياة في ليبيا ولماذا لا يجلب أسرته من ألمانيا ويستقر في بنغازي، ليس لديه ما يهرب منه، وهذه البلاد بلاده، وأطفاله يجب أن ينشؤوا ليبيين لا ألمان.

لكن أمزا مسعود حاول إقناعهم بأن بقاءه في ألمانيا بسبب زوجته التي لا تثق بأنه لن يسلبها أطفالها ويهرب بهم إلى ليبيا.

انتهز جدي سفر أمزا مسعود وثلة من صحبه إلى القاهرة لحضور إحدى حفلات أم كلثوم، وذهب من تلقاء نفسه إلى الأمن الداخلي وقدم إخطارًا هو أقرب إلى الوشاية على ابنه، قال فيه إن ابنه مسعود كثير الأسفار لأن زوجته الألمانية لا ترغب في الانتقال للعيش في ليبيا وتريد العيش وفقًا للنمط الأوروبي وأننا كعائلة محافظة لن نسمح لها

بذلك، وأن ابنه مسعود صاحب مزاج فني وربما تكون وراء سفرياته إلى الخارج تفاهات أخرى مثل الخمر والنساء والموسيقى، وتلك الأشياء الفارغة التي يعرفون عنها في كازينوهات القاهرة وتونس وبيروت.

قال جدي ما قاله دون أن يرف له جفن أو يرتعش له قلب، لكنه حين عاد إلى البيت بكى بلوعة بين يدي جدتي، واعتذر منها.

- لقد دفعتني محبتي له وخوفي عليه إلى تشويه صورته أمامهم، لعلي أحبط تقريرًا سريًّا عنه يقول عنه ما أود تجنيبه إياه، ومع ذلك لا أضمن أن وصمه بالعبث يحميه منهم، ربما سيحسدونه لأنه سكير و«نسونجي» ويمنعونه من السفر بتلفيق تهمة سياسية له، إنني ممتلئ بالغيظ والقهر إلى حد لا يعلم به إلا الله يا أمينة.

إنهم قوم عجاب، لست أدري أين كانوا ومن أين جاؤوا؟!

التهم جاهزة ومحبوكة يجدها المرء من فوقه ومن تحته في رمشة عين، إنها في جيوبهم مع السجائر وعلى ألسنتهم مثل اللعاب وأقرب إليهم من حبل الوريد.

تأوهت جدتي ورفعت عينيها إلى السماء وسألت الله الفرج.

يوليو ١٩٧٧

سبقتني أختي إلى الدنيا بفارق دقائق وسبقتها أنا بالصراخ. فرحت العائلة بميلادنا ونسيت شيئًا من همومها، كان أبي سعيدًا بمجيئنا، وأجدادي كذلك، وعاد أمزا مسعود لقضاء الصيف على البحر بما أنه أحد مؤسسي مصيف الملاحة وأحد هواة الصيد والكرة الشاطئية.

عند ولادتي كان عمر آمال ابنته، خمسة عشر عامًا، فتاة يافعة شقراء تقضي إجازتها في السباحة والترجمة ما بين أمها وعائلتنا، كانوا يذهبون إلى المصيف الواقع على بعد خطوات من عمارة جدي مشيًا، فتفرغ الشقق ونبقى نحن وأمي فقط.

تقضي آمال شوطًا من وقتها في السباحة، ثم ما تلبث أن تعود وتسأل عن الفتاتين الجديدتين، فتخبرها أمي أن إحداهما نائمة والأخرى تبكي ولا تترك أختها تنام، تداعبنا الحسناء الشقراء ثم تختار واحدة منا تلعب بها وتنيمها إلى جوارها.

- أحببت هذه، دميتي الجميلة.

كانت تختارني على الرغم من عدم وجود فارق ظاهري يميزني عن أختي، تأخذني معها وتعود بي إلى أمي وقت الرضاعة ثم ترجعني إلى سريرها، من هنا نشأت علاقتها بي قبل أن تنشأ علاقتي بها. كنت في مهدي أشبه دمى اللعب القطنية، وكنت أقرب إلى لعبة بالنسبة إليها، لطالما أخبرتني بذلك.

مضى الصيف في بنغازي كسولًا، ما بين أعمال روتينية، وما بين بحر وطعام ونزهات وتبريكات بالتوءم الجديد الذي كرر للعائلة امتيازها بهذا الاختصاص. كانت جليانة التي فتحت عيني وأختي فيها هادئة قليلة النسمة، لها مزاج البحر أكثر من مزاج اليابسة، شبه جزيرة صغيرة أهدتها الطبيعة لبنغازي على مقربة من الميناء ووسط المدينة التاريخي، فيها بنكينة بيع أسماك سنذرعها كثيرًا رفقة جدي بحثًا عن الأسماك الجيدة وعن سمك «البلم»[١] من أجلي خصِّيصًا. لم أحب رائحتها، كما لم أحب ذلك العجوز عكر المزاج الذي يظهر لنا في الطريق متأبطًا بندقية طويلة في رأسها حربة. كان حارسًا للرمال لا يتوقف عن الشكوى لجدي من لصوص الرمل، الذين قد لا يزيدون في الحقيقة عن أن يكونوا أشخاصًا تسللوا من وراء ظهره من أجل حفنة من الرمل، بغية تحميس الفول السوداني أو سواه، كانوا ليطلبونها منه لولا سوء مزاجه، بيد أن العجوز يبالغ من أجل إظهار الحاجة إلى تلك البندقية الغريبة أو الحصول على ترضية. كان

(١) يستخدم سمك البلم في الطب الشعبي لعلاج مشاكل النطق عند الأطفال.

جدي ينصح الأولاد بعدم إزعاجه، وكانوا يزعجونه كما لو أنهم يقصدون حثه على الجري وراءهم ومطاردتهم بين الدروب الفارغة بتلك البندقية التي لم يُسمع لها صوتٌ، ولم يفعل بها شيئًا سوى إضفاء الحس البوليسي على المطاردة. ولمّا كان الأولاد يفلتون منه -وهم دائمًا يفلتون- كان يأتي جدي متشكيًا من أيوب، فقط لعلمه ابن من هو وأين يقيم، وليس ليقينه أنه أحد الأولاد الأشقياء.

ذات مرة شكا أيوب فأخبره جدي بأن أيوب مع الكشافة في رحلة إلى الجبل الأخضر، فقدم العجوز قبعته وأخرها على رأسه، وقال:

- إذن تشابه البقر علينا يا سي أحمد عمران، سامحنا.

فضحك جدي وأعطاه الإكرامية وذهب.

في جليانة أحببت المرور بجوار البانسيون الصغير الرابض وحيدًا في متسع لا يحيط به سوى البحر، المحتشد بالعمال المصريين والوافدين من الدواخل وكأنه بيتهم وقد خصوا به. كنت أحب رائحة النرجيلة الممتزجة بهواء البحر، لم تتراجع في ذاكرتي حتى بعد تراجع وجود العمالة المصرية.

كنا نقصده مع جدي أحيانًا للقاء بعض الأشخاص، كان مكاناً لم يجلس فيه إلا مع آخرين.

مع بداية فصل الخريف انتقلنا إلى ڤيلا الفويهات في نفس الوقت مع أمزا مسعود، أما أمزا خالد فقد سبق إلى هناك وقال عن الضاحية

الجديدة: ينقصها سكان وطريق مسفلت، لم تصلها شبكة المياه الحكومية بعد ولا يمكن ترك الأطفال فيها وحيدين لأنها أقرب ما تكون إلى بوسكو «غابة».

ديسمبر ١٩٧٨

صبيحة أحد أيام شهر ديسمبر، وصل أبي إلى المصنع في توقيته المعتاد، لكنه وجد شيئًا لافتًا أثار ريبته، كان المصنع مغلقًا وكأنه في عطلة الجمعة. استغرب أبي عدم وجود أحد، أوقف سيارته في الموقف الجانبي واستدار ليرى أعمال تنظيف محيط المصنع من مخلفات التوسعة، وجدها هي الأخرى واقفة، ولا أحد هناك، لا سائق الشاحنة ولا سائق الآلة الثقيلة الذي ترك مفاتيحها داخلها، أخذ أبي المفاتيح في جيبه واستدار عائدًا، حاول فتح الباب بمفاتيحه فلم يستدر المفتاح في أكرة الباب، حاول مرة أخرى، استغرب وأخذ ينادي بصوت عالٍ، بعد لحظات فتح الباب مواربًا وظهر منه عاملا نظافة من عمال المصنع، قال له أحدهما: هناك اجتماع شغيلة في الداخل.

سأل أبي مستغربًا: اجتماع شغيلة! شغيلة من ومع من؟ ولماذا تقفلون باب المصنع؟

أجاب عامل النظافة: الشركاء مع بعضهم؟

وردد زميله الآخر قوله من بعده. اجتماع الشركاء، الشركاء مع بعضهم.

حاول أبي الدخول فمنعاه، فدفع الباب بقوة، فتراجعا. صاح مناديًا مساعده الفزَّاني الذي لاح من جهة ما سريعًا وطلب منه الهدوء واضعًا يده على صدره ليمنعه من التقدم إلى المكتب حيث يعقد الاجتماع.

- ما الذي يجري هنا؟ أخبرني ماذا يجري؟

- تريث، خذ الأمر بهدوء. تعال معي.

- إلى أين تأخذني؟

حاول الفزَّاني إبعاده عن المكتب، لكن أبي شد الرجل من عنقه وسأله:

- ما هذه الألغاز، أخبرني، ماذا يجري في مصنعي؟ وماذا يصنع العمال في مكتبي؟

فقال الفزاني حينئذ: يؤسفني أن أكون أول من ينقل إليك خبر الزحف على مصنعكم، أرجوك اهدأ واضبط أعصابك.

- من في مكتبي؟

- كلهم، اجتمعوا ليقرروا انتخاب إدارة جديدة منهم وستكونون أنتم وهم شركاء على السواء.

كمن أضرمت فيه النار، ابتسم أبي تلك الابتسامة المخذولة،

المليئة بشعور حاد بالخسران، انتزع قطعة خشب من أحد الصناديق بجواره وقصد بها إلى المكتب.

دفع الباب بقدمه وقال للمجتمعين بالداخل وقوفًا وجلوسًا:

- ماذا تفعلون هنا؟ ها... اخرجوا من هنا حالًا. هل وصلت بكم النذالة إلى سرقتنا؟ اخرجوا وإلا حطمت رؤوسكم بهذه.

أتت ردودهم ما بين: «لم يعد الأمر في يدك»، «نحن شركاء هنا والمصنع مصنعنا»، «إذا لم يعجبك الحال اخرج وعارض القائد»، «نحن شركاء لا أجراء»، «انتهى زمن البرجوازية العفنة، الناس سواسية في عصر الجماهير»، «لا حرية لشعب يأكل من وراء البحر، السلطة والثروة والسلاح بيد الشعب، إلغاء الأجرة هو الحل النهائي لتحرير الإنسان من عبوديته، كل العمليات الإنتاجية تخضع لنظام اشتراكي، الانعتاق هو تحرير حاجاتك من سيطرة الغير، المكاسب الزائدة على حاجتك هي حاجة أساسية لغيرك، لا يجوز أن يكون معاش أي إنسان أجرة من أي جهة، أو صدقة من أحد فلا أجراء في المجتمع الاشتراكي بل شركاء، معاشك هو ملكية خاصة لك تديرها بنفسك في حدود إشباع حاجاتك أو حصة في إنتاج أنت أحد عناصره الأساسية، وليس أجرة مقابل إنتاج لأي مكان، لا يحق لأي فرد القيام بنشاط اقتصادي بغرض الاستحواذ على كمية من ثروة المجتمع تزيد على إشباع حاجاته، المقدار الزائد على حاجته هو حق للأفراد الآخرين. ولكن يحق له الادخار من حاجاته من

إنتاجه الذاتي وليس من جهد الغير ولا على حساب حاجات الغير، إذا قام الإنسان بنشاط اقتصادي يتجاوز إشباع الحاجات حاز أكثر من حاجاته وحرم غيره من الحصول على حاجاته، الثورة الحقيقية الاشتراكية تبدأ باستيلاء المنتجين على معظم الإنتاج الذي ينتجونه، أما الخطوة النهائية فهي وصول المجتمع الاشتراكي الجديد إلى مرحلة اختفاء الربح والنقود».

كانوا أفظاظًا جاحدين، زأر أبي بهم:

- كفوا عن ترديد الهراء أنتم ومن علمكم إياه، هيا اخرجوا من هنا.

وأخذ يهوي في سكرة الهياج على من يطاله منهم بكلمة بقطعة الخشب، فروا من أمامه رجالًا ونساء، واشتد الهرج والصياح وطلب النجدة من النساء العاملات، تسابقوا إلى الباب يريدون الخروج فأوقع من به قوة منهم من ليست به سوى سرعة الفرار، سقطت بعض العاملات على الأرض، تجنب أبي دوسهن وهو يطارد المتنمرين والمستحوذين إلى البوابة.

قال خبثاؤهم: لا تدعوه يسيطر عليكم بالترهيب، اضربوه، فالتحم معهم بالأيدي، وبينت ممارسته السباحة وكرة المضرب الفرق بينه وبينهم. تدخل الفزاني وبعض العمال ممن لزموا الحياد خشية حدوث مقتلة، فسيطروا على أبي وأدخلوه المكتب وأغلقوا الباب عليه.

اتصل الفزاني بجدي طالبًا منه المجيء بسرعة. كانت الآلات متوقفة عن العمل، وقد حل محل ضجيجها جلبة العراك وتبادل اللكمات والسباب. وجه الفزاني ابنه وزوج ابنته لإغلاق المستودعات بسرعة وتحطيم عداد الكهرباء لإجبار العمال الثائرين على المغادرة. أصرَّ أبي على خروجهم: غادروا المصنع حالًا وإلا غادرتموه مضطرين، تهجموا عليه فضرب بعضهم وضربوه من جديد، تمزق قميصه وانتزعت ربطة عنقه، وكدم خده، تدخل بعض ممن في الجوار وفضوا الاشتباك، سكبت إحدى العجائز على وجهه ماءً ودعت له باللطف «يهديك الله يا وليدي هذي دولة ما تقدرها».

خرجوا بعد انقطاع الكهرباء وعادوا بالشرطة التي كانت متجهزة للتدخل وحماية عمليات الزحف.

وصل جدي مفزوعًا، وتصاعدت المشكلة بمجيء عناصر الأمن، لم يعد مجديًا حلها بالكلام، ولا بالأيدي، ولا بالقوة، ففي غرب بنغازي سقط صديق جدي وكيل سيارات «الفيات» أرضًا بعد الزحف على وكالته، الجلطة تجولت وضربت أرباب الأعمال والأملاك الذين صحوا من نومهم فلم يجدوا شيئًا، من لم يسقط بها أغلق فمه وهرب أو قاوم وأخذ إلى السجن.

تطاول الناس بعضهم على بعض، زحفوا على مصادر الدخل والمال تطبيقًا لجميع الشعارات التي غذوا بها منذ خطاب زواره المشؤوم، والذي تلته خطب تجيز ما لا يجوز بالمنطق أو بالعرف أو بالقانون.

لقد خلصت العامة من أي جدل أخلاقي عن مشروعية الأفعال الهمجية التي يقومون بها، هل يجوز ذلك أم لا يجوز، فالحق هو ما تقرره لهم الدولة، هي ولي أمرهم في الدنيا والآخرة وستحاسب نيابة عنهم. هي المسؤولة عن النهب وإظهار خبيئة النفس الدنيئة، هي وهم وجهان لعملة واحدة مفلسة.

لم تمنعهم تربيتهم، قيمهم، البيوت التي جاؤوا منها، مفهومهم للحق، خشيتهم من الله أو كرههم للباطل، لم يمنعهم شيء من أن يتحولوا إلى لصوص تحت حماية الدولة. نهبوا ما نهبوه محتمين بشعاراتها، شركاء لا أجراء، والسيارة لمن يقودها، والبيت لساكنه، والأرض ليست ملكًا لأحد، ومن اعترضهم فإنما يعترض الدولة.

هناك في كل حادث شخص ما لا يعرفه أحد هو الأسرع في نقل الأخبار دون وسائل تقنية. تحرك ذلك الشخص وأبلغ الأمن عن رجل يضرب عماله ويعاملهم كالعبيد.

أهان عناصر الأمن أبي، أحدهم أدخل يديه في جيوبه وسرق دخانه وولاعته، وآخرون سرقوا ساعته وربطة عنقه، نظر أبي إلى الشاحنة الكبيرة التي أتى بها لجمع المخلفات، رأى السائق الذي ضربه في الداخل يحاول تشغيلها والمغادرة بها، فقد أضحت من حقه بشرعية الزحف الثوري.

رأى عاملًا يحاول تشغيل الآلة الثقيلة، وسيدة من العاملات كانت حتى الأمس طيبة ويشهد لها بالأخلاق الرفيعة، رآها تهرب

بكيس من المسروقات، ورجل كان يمد إليه يده بالزكاة مدها اليوم لصفعه!

ما الذي جرى وقلب الناس هكذا؟ أم هم هكذا دائمًا وهو لم يتبينهم؟ أعمى لم يرهم على حقيقتهم وحوشًا كامنة متأهبة للانقضاض، خسيسون مهما قُدِّم إليهم من خير!

كان يومه يوم شجرة اجتمعت عليها الفؤوس، جف حلقه وتوقف إدراكه عن استيعاب ما يجري.

سارع جدي بإجراء اتصالات بمن يعرف من النافذين من أجل إطلاق سراح أبي، وقد أفلح بعض الخيرين من أصلاء بنغازي في ذلك، فعاد أبي إلى البيت مع وعد بلفلفة القضية، وحفظها في السجلات كخصومة عمل لا كمعارضة سياسية.

كانت العائلة قد تلقت صدمة تعادل الصعق بالتيار الكهربائي طوال اليوم. استقبلت أمي أبي المنهك، حاولت تضميد جراحه، تخفيف وجعه، تهدئته، لكن لم يستجب فيه شيء، لا شيء يثمر في تسكين أوجاع الليلة الأولى للفقد والخسارة.

بكى مرتميًا على الكرسي، كما يبكي اليتيم في الدار الغريبة، ضمته أمي وواسته بالدموع وبكل كلمات العزاء، فداك، فداك، رزق الدنيا كله فداك.

- لقد سرقوا تعب أبي وتعبي، لم يبقَ شيء، لم يبقَ شيء.

في الليلة نفسها كان أمزا مسعود وأمزا خالد والفزاني وزوج

عمتي تهاني ينقلون ما يستطيعون نقله من المصنع إلى قبو ڤيلتنا في الفويهات.. نقلوا قسمًا من الأقمشة وبعض معدات الحياكة الثمينة، محاولين أخذ ما غلا ثمنه واستطاعوا حمله، حتى إذا طلع الصباح جاء العمال إلى المصنع وهم متأهبون للقتال، فاحتلوا المصنع كاملًا، أسقطوا اللافتة الأولى، ووضعوا لافتة جديدة كتبوا عليها «تشاركية البيان للألبسة الجاهزة»، وشكلوا إدارة جديدة منهم واحتفلوا بملكيتهم الجديدة بتوزيع العصير والحلوى من مصنع «كانون» الذي زحف عليه العمال هو الآخر في الجوار!

تراجعت عائلتنا إلى الوراء، لكن أبي المكلوم لم يتراجع، حلق ذقنه في المساء واغتسل وتعطر وارتدى بذلة أنيقة وقال لأمي إنه ذاهب إلى بيت جدي، حل به هدوء غريب، أوصته أمي كثيرًا كما توصي طفلًا، فسمعها وقبَّل جبينها وخرج، «سيعزيه الحديث مع والده، سيجعله أفضل» قالت أمي لأمزا مسعود حين اتصل يطمئن عنه.

ثم تأخر أبي في العودة وقلقت أمي قليلًا، ثم قلقت كثيرًا فاتصلت بأمزا مسعود وأخبرته بأن أبي لم يعد، وأنها لا تريد الاتصال بجدي في ساعة متأخرة. فقال لها: لا تتحركي أنا قادم.

أين ذهب إن لم يكن في بيت جدي، أخذها أمزا مسعود معه وانطلقا يبحثان عنه في الليل، سنرى إن كانت سيارته أمام منزل والدي، لم تكن السيارة هناك، هل يمكن أن يكون عند الشاطئ؟

قاد أمزا مسعود السيارة ساكتًا، أين سنذهب.. سنذهب إلى حيث أظنه ذهب، هل تقصد أنه ذهب إلى المصنع؟ كانت سيارته

هناك في الموقف وكانت أضواء الآلة الثقيلة تتحرك صعودًا ونزولًا وصوتها مسموع لهما كذلك كلما اقتربا.

كان أبي يقود الآلة الثقيلة ويقوم بهدم ما بناه والده وزاد هو عليه، معفرًا بالدموع والحزن والتراب.

«لن أتركه لهم.. لن أترك رزقي للبلطجية».

لقد هدم المصنع بنفسه! عادت به أمي في حضنها منهارًا، شبه ميت.

«لن أتركه لهم».

ولم يتركه مجتمع البلاطجة الجدد، أخذوه إلى سجن لم يعرف إليه جدي ولا أعمامي سبيلًا، قيل لهم إنهم أنزلوه في سجن الحصان الأزرق في طرابلس، وقيل لهم إنه في سجن بوسليم السياسي، وقيل لهم اسم سجن آخر، تعددت السجون أمامهم في الوطن الواحد، لكن في أي مكان كان السجن وكيفما كانت شدة أقفاله وظلامه، غادره أبي من دون استشارة أحد، ومن دون محاكمة، ومن دون كفالة، ومن دون تقديم وساطة، ذهب بمظلمته إلى ربه بذبحة صدرية داهمته في محبسه وأنهت خلافه مع الظلمة. احتفظوا بجثته في ثلاجة السجن حتى لملموا ملفه واستدعي جدي إلى المستشفى العسكري، هناك أخبروه عن وفاة ابنه بعد أن وقَّع لهم مستندًا يرفع عنهم مسؤولية موته في السجن وأن الوفاة طبيعية، لكن شيئًا لم يكن طبيعيًّا على الإطلاق، سقط جدي على ركبتيه ما إن كُشف له عن

وجهه ورآه، وجه وارم مسود بالكاد تعرف عليه، وجسد تغير لونه من الضرب.

هذه هي قصة الرجل الوسيم الأنيق الذي عاش معنا بصوره في بيتنا ولم يجمعنا به القدر طويلًا.

الرجل الذي ذهبت منه نسخ كثيرة إلى عالم الله وإلى النسيان، وتسرب من الحياة شيئًا فشيئًا من عرفوهم وكانوا شهداء على ما جرى لهم.

لم يبقَ من الضحايا سوى جلاديهم، لم يبقَ من الضحايا سوى جلاديهم.

قد يكونون بيننا هم ونسلهم يعيشون في رخاء وطمأنينة، أطفالهم، عائلاتهم، وأصدقاؤهم، نراهم كما نرى الناس العاديين، نبتسم لهم ويبتسمون لنا، وقد يصادفوننا في الطريق فنحييهم ويردون التحية بأحسن منها. قد يجالسوننا في طائرة أو مناسبة ونتعرف عليهم ويتعرفوا علينا، نعاملهم بلطف ونروي عن نبلهم بعض القصص البطولية الصغيرة فيما بيننا: هل تعرف فلانًا بن فلان... نعم أعرفه، إنه كذا وكذا، قد يكونون ممن يعجبنا حديثهم عن الحق والخير والصلاح والجمال دون أن نكتشف أن لهم يدًا في جريمة قتل أو نهب أو اغتصاب، أو إزهاق روح، وأن اللطف والنبل الذي اكتسحهم جاء مع الوقت نتيجة تلميعهم أو اكتفائهم من الدم، أو الندم، أو من قبيل دفن الماضي وإقناع أنفسهم أن ما فات قد مات، وأن الله يغفر الذنوب كافة ما عدا الشرك به.

سألتُ أمي التي روت لنا الواقعة: كيف طاوعته نفسه لهدم المصنع، هل كان ثملًا؟

قالت: كان كسيرًا محطم الروح، لقد اغتالوه حيًّا قبل أن يقتلوه فعلًا.

لست أدري عند قيامة المرء بأي روح سيقوم، هل سيقوم بروحه القديمة كما كانت، أم بروح تم انتشالها وغسلها من آثار عيشها السابق؟

من أجل أبي يا رب هبه روحًا نسيت كل ما حدث لها هنا، فما حدث هنا لا يمكن الشفاء منه إلا بمعجزة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٩٨٠- ١٩٨٩

مِن صاحب مصنع للألبسة الجاهزة إلى صاحب دكان أقمشة في السوق القديمة، عاد جدي مضمخًا بالجراح إلى الحيز الصغير الذي بدأ منه تجارته في سوق الجريد[١]. عاد مغلوبًا مسحوقًا وفي ذمته أربعة أيتام وأمهم بلا معيل.

تقول أمي إن بابا أحمد ظل ولفترة طويلة غير متوازن جراء الفواجع، يقفز أثناء نومه ناظرًا إلى باب غرفته، وحين تسأله جدتي إلامَ ينظر مفزوعًا؟ يقول: إلى الطفلتين الصغيرتين تقفان بباب حجرتي أو عند حاشية سريري تنظران إليَّ صامتتين.

تضمه جدتي إليها ويبكيان بهيهما محمود.

يا محمود يا محمود.. يا وليدي، يا سنيدي، يا فقيدي.

كان على جدي تحمل المسؤولية التي ألقتها إليه المقادير، وتجرع المرارة بصبر ومغالبة. في يومه الأول الذي عاد فيه إلى السوق وفتح

---

(١) أكبر أسواق بنغازي التقليدية. تأسس في العهد العثماني.

باب دكانه بنفسه، احتفى به رفاق السوق القدامى، وقفوا أمام دكاكينهم وصفقوا له جميعًا.

- الصبر جبر، الصبر جبر يا بو محمود.

مسح جدي دموعه وأفصح لسانه عن كلمات معدودة.

- ضاعوا رجال يا بال مال،.ضاعوا رجال يا بال مال.

كان مقتل أبي جمرةً أكلت قلبه كل آن، فإما انطفاء وإما مجالدة من أجلنا، فنحن فئة ضعيفة في طرفه والحياة مثل ليبيا ليست رحيمة.

ركبت ليبيا باصًا اشتراكيًّا مهترئًا وسلكت طريقًا مجهولة على يدي سائق أرعن لا يمكن الوثوق بسلامته العقلية لكي تعيش بمسمى «الثورة الثقافية» تحولًا من أسوأ تحولاتها، أباح للناس تجريد ممتلكات بعضهم بعضًا.

أصيب جدي في مقتل، فالخسارة الكبيرة لا يهونها حتى صدق العزاء.

مقتل أبي والزحف على المصنع واستيلاء المستأجرين على الشقق في عمارة جليانة!

لم يعد جدي يملك شيئًا عدا الدكان الصغير في سوق الجريد وسط كساد اقتصادي يتخبط البلاد. وكانت أمي سيدة غير عاملة.

في السوق جاءت إلى جدي مغنية شعبية كانت تكتري إحدى شقق عمارته في جليانة، قالت له إنها لن تنحدر إلى ما انحدر إليه

الناس وتستحوذ على ما ليس لها به حق، فاستغرب جدي وظن أنها مجنونة أو مدسوسة عليه من الأمن الداخلي، غير أن المرأة كانت صادقة كما بيَّن الوقت فيما بعد.

- لن آخذ رزقك منك يا أستاذ أحمد، أنت أويتني وقبلت أن تُؤجرني عندما رفضت بنغازي كلها أن تعطي مغنية مسكنًا يؤويها وأولادها.. أنا يا أستاذ أحمد أعيل أيتامًا مثلك تمامًا وما لا أرضاه لنفسي لن أرضاه لك. سأسدد لك الإيجار سرًّا عهدًا بيني وبين الله، ولن يعلم بالأمر أحد لضمان سلامتك.

كانت امرأة غريبة، غرابة حال مجتمعنا الذي أحلَّ السطو وحرَّم الغناء وانتقص النساء!

لم يتفوه جدي بكلمة، مضت المرأة في حال سبيلها. وجاء بعض أهل السوق في أعقابها يريدون معرفة لماذا جاءت «عيشة الدرباكة» وماذا أرادت ولماذا ظل جدي واجمًا بعد ذهابها لا يكلم أحدًا؟

مع الوقت ابتعد أبي جدًّا واقترب جدي جدًّا حتى صار «بابا أحمد»، وتشكلت أطوارنا على يديه، صاحبناه صغارًا إلى دكانته في دهاليز سوق الجريد، مفضلًا المشي البطيء بين جنبات المدينة، وكنت أنا وتوأمي وأيوب بمعيته معظم الوقت.

فهمنا عادته في المشي، كان يتوقف عند بعض الدكاكين قبل أن يبلغ دكانه، يتجرع ماء وأحاديث وإذا وافق مروره شاي أو قهوة أو خبز تنور اقتطعوا له فتمهل في الماء وشرب الشاي أو القهوة في

رشفتين، أما الخبز، فكان يقبله ويقسمه بيننا، لنا القطع الكبيرة وله الصغيرة، وعنده لا خبز يؤكل من دون تقبيل، حتى أخذنا عنه تلك العادة، وصرنا نقبل الخبز سواء أكلناه أو وجدناه ملقًى على الأرض وجنبناه دوس الأقدام.

كانت عجوز تبيع في السوق، تقول له حين ترانا بمعيته:

- أعانك الله على أحمالك يا أستاذ أحمد.

فيرد عليها بصوت هارب من شفتين مطبقتين:

- خلقهن وما كانن - عليه مو مكادات رزقهن[١].

كان جدي يسلينا بالأحاديث سواء حين يوصلنا إلى مفوضية الكشاف أنا وأختي، أو عندما نرافقه إلى السوق، يحكي لنا القصص بمناسبة ومن دون مناسبة، حتى اعتقدنا أنه يرويها من أجلنا. لكن بدا لي لاحقًا أنه كان يرويها من أجله هو أيضًا، كأنما أراد أن ينسى شيئًا بأشياء وينشغل عن أحاديث نفسه بأحاديث يتقاسمها مع آخرين.

أيًّا كانت الغاية من القص، فقد أحببنا القصص كما أحببنا ساردها.

كنت وأختي نعشق اللعب بالأقمشة، وضعها على وجوهنا ولفها حولنا، لحظ جدي ذلك فخصص لنا قطعًا وضعها في الزاوية

---

(١) أغنية شعبية من أغاني العلم تعني: الله خلق الأنفس من عدم ولن يؤده رزقها.

وقال لنا: هذه الزاوية لكما، لا أحد يقربها غيركما.. افعلا بها ما شئتما.

وشاءت أختي أن نفتح بها دكانًا ظللنا نديره معًا، ويشتري منا جدي أو أصدقاؤه في السوق. ثم أجرينا أكبر عملية بيع حين بعنا مترًا من التافتا لخواجة من أصحاب جدي نقدنا مقابله ثلاث مئة مائة دينار (بعد سنوات تبين لنا أنها كفارة أخرجها الخواجة تكفيرًا عن مضاجعة زوجته في نهار رمضان).

ثم بعنا قماشًا أبيض جاء عدد من الرجال وتحدثوا مع جدي عنه، فقام جدي برفعه من الأرفف ووضعه في دكاننا أنا وأختي، وقال للرجال اشتروه من صاحبتيه، فاشتروه منا وسررنا أيما سرور بعملية البيع، ثم تبين لنا عندما كبرنا أننا بعنا قماش أكفان لعائلة قضى ستة من أفرادها في حادث طريق.

كان جدي يجلس على الدكة تحت أرفف القماش يسبح بمسبحة العود، ونحن نشتري ونبيع مع أنفسنا، أو يحكي لنا حكاية، أو يقرأ كتابًا بالإيطالية التي يجيدها، أو يدندن مع الراديو أغنيات الشعالية وصدقي وبومدين، حتى إذا ما قاطعته شارة الأخبار هز الراديو بعصا كيل الأقمشه وطلب من عامل المحل إخراسه.

- الإذاعة جميلة وهي تغني فقط، أخرس صوت الراديو يا بيومي حتى تنتهي نشرة السوء هذه.

وكان شغيل المحل يناكفه أحيانًا:

- وما لها الأخبار يا حاج؟ تسر النفس.

- أخ يا بيومي، لا تنكشني بربك، وهل ما ينقصنا هو حرب مع تشاد؟ نحن حياتنا كلها حرب في حرب منذ ابتلانا الله بهذا الرجل.

كانت الحرب قد أعربت أخيرًا عن نفسها على الخط الحدودي ما بين ليبيا وتشاد، وأخذ التأجيج لها مأخذه، ففي المدارس تجدها وفي الجامعات تجدها وفي المساجد والتلفزيون والراديو والأسواق وبين المرء وزوجه.

كست مظاهرها المدن والقرى ووقع الحياة اليومي، مشت الدبابات على الأسفلت تاركة آثارها فيه، وتوافدت المركبات العسكرية من أقصى الشرق إلى بنغازي، ثم منها إلى الجنوب، بدا أن الناس يذهبون إلى شيء لا يعرفونه ولا يعرفون السبب فيه.

عامًا بعد عام طلبت الحرب مزيدًا من السلاح والرجال، فغادر الرجال أعمالهم المدنية إلى معسكرات التدريب، وجاء الدور على طلاب الثانوي فجمعوا بنفس الكذبة في عموم ليبيا «سوف نأخذكم في رحلة تعليمية إلى طرابلس» ليجدوا أنفسهم في معسكرات التدريب في عمق الصحراء الليبية!

لم يخطر لعائلتنا أن تلك الحرب المشتعلة في أقاصي الصحراء لأسباب غامضة ستلتف علينا نحن أيضًا التفاف الحيات على الفرائس.

قبل ذلك، كانت أمي وجدتي تذهبان إلى المآتم لتقديم واجب العزاء وتعودان مكمودتين.

كانت حربًا لم يعد منها جريح أو قتيل. تُبلِغ الدولة أهالي الجنود بموتهم دون تسليم جثامينهم أو السماح للأهالي بإقامة سرادقات للعزاء.

كان موتًا مخنوقًا بكاتم صوت، وكانت جدتي تبكي ككل الأمهات ثم حين تعود من تعزية إحداهن تبكي في بيتها وحدها حتى يرتبك جدي من نحيبها، فيغضب ويتشنج ويهرب إلى الخارج.

- كفى كفى! أريد أن أنسى حرقتي قليلًا، كفى ارحميني بربك، مأتم في الداخل ومأتم في الخارج!

ثم ما يلبث أن يعود ويعتذر لدموعها ويحتضنها ويبكي:

- أنا يا أمينة مقهور على ولدي مثلك، لكني أكابر من أجل أطفاله. ساعديني حتى نعبر بهم هذه الدنيا القاسية. إنهم بلا زغب وبلا ريش.

- بل سامحني أنت، لم أنجح في مغالبة دموعي. أعرف أن حياتك معي باتت جحيمًا لكن الأمر فوق إرادتي. محمود لا يغيب عن عيني.

- نحن في الجحيم سواء بدموع أو من دون دموع.

صارت جدتي تراعي جدي بتحاشي العودة إلى بيتها كلما ذهبت

إلى مأتم، تعود إلى بيتنا وتبقى عندنا، ثم تلملم شتات نفسها وترجع إلى بيتها في الغداة أو بعدها.

حررت جدي من بكائها وحررت دموعها في بيتنا كيفما تشاء. كانت تقف قبالة صورة أبي في الصالون وتتحدث إليه باكية، تأخذنا أمي كي لا نراها تبكي وتغلق عليها باب الصالون.

بفضول الأطفال كنت وأختي نسألها: لماذا لا تتركينا نجلس معك في الصالون يا جدتي؟

فتجيب: لأني أريد الصلاة في هدوء.

حتى رسخ لدينا أن الصالون مكان طاهر هادئ للصلاة. أكثر مكان في بيتنا يتواجد فيه الله.

كانت جدتي تزور أبي كل يوم جمعة، ترتدي الأبيض وتحمل الماء العذب لترش قبره، في إحدى الجمع حملت الماء وشهادة الآيزو التي وصلت فلم تجد المصنع ولم تجد أبي، فدفنتها قُربَه مع كثير من الدموع والانطفاء.

كنا نكبر في حقول من الحزن مسقية بالدموع والآنات ما بين أمي وجدي وجدتي والعائلة. يهربون من إخبارنا بكل شيء دفعة واحدة. يدحرجنا أحدهم إلى الآخر حتى كبرنا وأكملنا الناقص من الصورة بأنفسنا. ذكرت أن جدي حكى لنا قصصًا أكثر من جدتي، ذلك صحيح بحكم اختلاف طباعهما فجدي حكاء، أما جدتي فتميل إلى الصمت معظم الوقت.

ذات مرة رأى رجل في السوق جدي يحكي لنا عن سقف السوق فقال له:

- ما بالك يا أستاذ أحمد تكلم السقف؟

فأجابه جدي: وهل رأيت السقف يكلمني يا هذا؟

فقال الرجل: كلا.

فقال جدي: إذن لماذا الاستحمار؟ أنا أكلم حفيدتي عن السقف ولا أكلم السقف.

فاستغرب الرجل وقال:

- لكنهما صغيرتان على الحديث عن السقف والعمدان والارتفاعات والسقالات وجميع هذه المصطلحات.

- أها، هما صغيرتان على فهم كلامي، أما السقف فكبير إلى حد أن يفهم! اغرب عن وجهي يا صغير العقل.

أطلق علينا أصحاب السوق تسمية «بنات الحاج» لطول رفقتنا لجدي، ولم تخفِ توأمي عن جدتي شيئًا مما يدور في السوق، ومن أن جدي يكلم نساء كثيرات، أما أنا فلم يسألني أحد لأني ولسبب غير معلوم تأخرت في الكلام.

بينما كنا نسير في دروب المدينة القديمة، يحكى لنا جدي عن الشوارع والبيوت، كيف اكتسبت أشكالها وأسماءها، مسجد عصمان، ميدان البلدية، سوق الحوت، سوق الذهب، سيدي خريبيش، جامع

بن كاطو، زاوية العيساوية، شارع قزير، شارع مصراته، الصابري، المنارة، فندق قصر الجزيرة، الكنيسة الإيطالية، شارع عبد المنعم رياض، البنكينة، كوبري جليانة، مصيف الملاحة، مفوضية الكشافة، مبنى الإذاعة، تنهمر على لسانه أسماء مبانٍ وشوارع وأشخاص ما إن يفتح ذاكرته التي تشبه دكانًا ويعرض لنا محتواها.

حكى عن مقام الولي الصالح سيدي مومن، الإفريقي الأسود الذي أنهى نزالًا عائليًّا بين عائلتي دغيم ومخزوم دام سنينَ وعن البحارة الذين يعرضون صيدهم للبيع في الميدان حتى اكتسب «ميدان سوق الحوت» اسمه منهم ثم انزاحوا عنه إلى البنكينة تاركين له الاسم.

حكى عن البحر وعن الصيادين وعن أهالي بنغازي في عاشوراء والمولد، وعن ليلة قصف البوارج الإيطالية للمدينة واستسلام الكيخيا. وعن مذبحة الجوازي[1] التي جرت في قلعة البركه، حين دعا الحاكم التركي ٤٥ شيخًا من قبيلة الجوازي إلى وليمة ثم أغلق عليهم المنافذ وأعمل فيهم السيف، حكى عن مقام سيدي الشريف حيث احتمى به الفارون من المذبحة ثم ذبحوا في الداخل، وعن شحاذات المقام الشهيرات أكثر من صاحب المقام نفسه الذي لم يثأر للمتعلقين بكسوته على مر العصور!

كبرنا على أحاديث جدي حول كل شيء ما عدا مقتل أبي. تجنبه وتجنبته العائلة كذلك.

---

(١) قبيلة ليبية.

كنت أحب شيئًا يجعل القصص عاجزة، ربما ليظهر ضعفها الإنساني. الضعف الذي يشبهني ويؤازرني بشكل ما. وكانت أختي تحب قصة مجاذيب المدينة وأسباب جنونهم، من منهم جن بسبب الحب ومن منهم بسبب الحرب، ومن منهم مسه الجن ومن منهم فقد عقله بسبب الضرب في معسكرات التجنيد. وكانت تسأل جدي وجدتي: إلى أين يذهب عقل المجنون بعد أن يتركه؟

وكانوا يجيبونها: يذهب إلى طبرق أو طرابلس أو خارج ليبيا.

فتعود وتسألهم عن حصة ليبيا من عقول الذين جُنُّوا في العالم واختارات عقولهم ليبيا وجهة لها، فيبتسم جدي ويجيبها:

- تمر بليبيا فتجد فيها مجنونًا كبيرًا فتتركها وتواصل هجرتها.

في حين تقول جدتي:

- العقول مثل الطيور المهاجرة يا صغيرتي.

حكى جدي عن الكنيسة اليونانية المطلة على فيا تورينو وكتدرائية بنغازي على البحر والكنيسة الصغيرة في الصابري والفويهات والبركة والمقبرة المسيحية في جليانة، وعن صديقه البيباص (الراهب) الذي عاش في بنغازي أكثر من ثلاثين عامًا جعلته بنغازيًّا. حكى عن طرد اليهود ونهب أملاكهم سنة ١٩٦٧ بسبب فلسطين ولجوئهم إلى بيوت المسلمين لحمايتهم من الغوغاء، حكى عن الغدر بهم والغدر بنا.

حكى عن بدوسة، التاجر اليهودي الطيب، وفراره إلى روما بعد النكسة، وعن فرار آخرين واحتلال أملاكهم من المتنفذين. حكى

عن عائلات المدينة ذات الأصول الأرمنية والكريتية واليونانية والتركية والمصرية والشامية والتونسية والجزائرية والسودانية والتشادية والمالطية والطرابلسية والمغربية والموريتانية واليمنية، والعربية، وعائلات أخرى حملت أسماء من عموم مناطق ليبيا كلها انصهرت في بوتقة بنغازي لتصنع «عرب لَبْلادْ» حكى عنهم وعنا، كيف أصبحنا ليبيين. ثم كلما كان الكلام عن انقلاب حال ليبيا من الحسن إلى الرديء، أصيب بغصة وحل الانقباض في صوته، فليبيا افترسها التشدد الديني مع موجات الحج إلى منبع التشدد، أصبح الجميع سكرتير الله على الأرض، وراج توزيع صكوك الغفران والتكفير بين الناس. تراجع الذوق واختفى الجمال وحل محله قبح تدريجي، فالنساء لفهن السواد، والرجال كأنهم عائدون من حقول ألغام. تدنى إقبال الناس على التعطر وصالت فيهم روائح العرق والنتانة، اعتلى التحريم مزيلات العرق في الأسواق لأنها حرام، وهزم معجون الأسنان أمام منافسة عيدان السواك.

فقد جدي رغبته في الحديث عن تحول أشكال الناس وتبدل هيئاتهم وأخلاقهم، ثم توسعت بقعة الزيت على الرداء كلما جاء زبائن لشراء أقمشة الجلاليب وطلبوا بكل فجاجة ووقاحة إغلاق الراديو لعدم رغبتهم في ارتكاب الإثم بسماع الأغاني.

كان يخلي لهم الدكان ولا يعود إلا بعد خروجهم ومرة إثر مرة صار يضع كرسيًّا أمام الدكان ويجلس عليه إلى أن انتهى به الحال جالسًا هناك من الافتتاح إلى الإغلاق.

المتسولون

عند شوط من أشجار السرو الكثيفة في الفويهات القصية، جلس رجل بدا أنه فقير، واضعًا علبة معدنية فارغة أمامه وإلى جانبه حقيبة قديمة وبعض أكياس بها شيء من لوازمه. ظهر الرجل هناك فجأة، لم يعرف أحد من أين جاء، ولماذا جلس نائيًا عن الناس بينما يحتاج المساعدة!

لاحظت أمي وجوده أول مرة ونحن في طريقنا إلى الصنبور العمومي، اعتقدت أنه ربما توقَّف لقضاء حاجته، ثم تبينت أنه جلس للتسول، فتوقفت به في طريق العودة وسألته دون أن تنزل من السيارة: السلام عليكم، هل تحتاج شيئًا؟

قال: واقف على باب الله.

دون أن يحيد بصره عن العلبة المعدنية أمامه، وكأنه ينتظر خروج شيء منها.

عاملته أمي بإحسان عند كل مرور من دون أن تتخلَّى عن

حذرها من الغرباء ولا عن الساطور الصغير المخبأ أسفل كرسي القيادة، ولا عن التأكد من قفل أبواب السيارة من الداخل كلما ركبنا. كانت تتصرف بطبيعتها المتوجسة في تفقد أي أمر مرتين على الأقل وتشكل حسَّنا الأمني في الوقت ذاته (سيصبح الحذر جزءًا من طباعنا وعدم الوثوق بالآخرين من دون أن يبدو لهم ذلك).

طلبت مساعدتنا مرات عديدة في جمع ما تيسر من أشياء للرجل المتسول وذهبت وأعطتها له. وجدت كل يوم شيئًا تعطيه إياه، شيئًا قدرت أنه يحتاجه، كما لو أنها كانت مكانه وأدركت أنه سيحتاج إليه حتمًا، حتى أَلِف الرجل أنها ستعطيه كل مرة شيئًا وانتظره وانتظرها، أيًّا كان ما ستحمله إليه.

منحته نقودًا وطعامًا وثيابًا وأغطية، وفاكهة من ثمار الحديقة، تينًا، ورمانًا، وعنبًا، وبرتقالًا وليمونًا، حتى اعتاد الرجل ألا يمر يوم من دون أن يحصل فيه على شيء منا.

ثم إنها ذهبت في عطفها عليه بعيدًا، وحدثت عنه رواد الصنبور وصاحباتها من العائلات الميسورة، فأصبحت -دون أن تشعر- تتسول له بالنيابة عنه، بينما هو متكئ في مكانه يتفيأ الأشجار ويستمع لأم كلثوم ومحمد صدقي طوال الوقت دون أن يصنع شيئًا.

لم يرُق لآمال وجود الغريب في الدرب الخالية من الناس، ولا الحسنة التي تقدمها إليه أمي من طعام وشراب وسواه، ومضت في توقعاتها حد التوجس منه والاشتباه فيه، كما رأت في الأمر انتهازًا من جانبه وسذاجة من جانب أمي ينبغي وقفها، لم تمكث

آمال طويلًا على تململها فتدخلت ذات يوم ومنعت أمي من إعطائه صحنًا من بليلة المولد وبيضًا وعسلًا.

- إنه خامل لا يريد العمل، لا يريد أن يتعب، يفضل التسول على الشغل. ألا يخجل من نفسه، امرأة تعيل أيتامًا تعطيه ما يأكله ويشربه ويرتديه! إنه يحتمي بنظام الزكاة من العمل وينتهز عطف الناس ليعتاش على جهدهم ويقتسم معهم رزقهم، إنه يستعملك يا نجاة انتبهي أنت أم عيال.

وقفت أمي حائرة متسائلة في وجه آمال: الله أمر بالصدقات، وليس علينا الدخول في ضمائر الناس.

- ولماذا لم يقضِ الله على الفقر بدلًا من الأمر بالصدقات؟ من غير المنطقي أن يظل الفقر قانون حياة من أجل أن تبقى الزكاة والصدقات، لستِ مجبرة على إعطاء حصيلة جهدك لشخص لا يبذل جهدًا كجهدك أو أنه أقل جهدًا منك، أنت تتعبين في البرد والحر والظلام وانعدام السنيد، بينما هو نائم ينتظر أن يشاركك جهدك بأمر الله! إن هؤلاء الأوباش مصاصو دماء ولن يتوقفوا طالما هناك زكاة وصدقات.

سكتت أمي، أو ربما فكرت في حجة آمال، بينما أعادتنا آمال من منتصف الطريق بالأشياء قائلة:

- هذه الأشياء كلوها أنتم، أنتم أولى بها، إن الله الذي استطاع تخصيص جزءًا من كتابه لمعاملة الآباء والأمهات كمواريث

على الأبناء والأقارب قادر على وضع مخطط اقتصادي لإنقاذ أمة الفقراء، غير أنه لم يفعل! إذن فقر الآخرين مسؤوليته وليس مسؤوليتكم.

نطقت أمي كما لو أنها تلقت صعقة كهرباء:

- بت لا أفهمك يا آمال؟ إن الله لن يعجبه كلامك!

- سواء تكلمت أم اضمرت كلامي هو يعلم بوجود هذا الانتقاد عندي أو عند آخرين. إذا تخليتِ عن سلوك الدروشة، فإن الآخر سيتخلى عن سلوك الاتكالية ويجتهد في تحسين حياته.

- سيتخلى الناس عن مساعدة بعضهم بحجة أن الطيبة سذاجة!

- أنت لستِ مسؤولة عنهم! كل يتحمل مسؤولية اختياراته.

- في الناس من يجد ويجتهد ويبذل ما بوسعه لكن الحظ يعانده ويعاكسه هل نتركه لسوء الحظ؟

- لديه إله طالبه بالاستماتة في الدعاء والصلاة ليستجيب له، عليه أن يذهب إليه.

- أنا أخشى أن يجبر الفقر الناس على ارتكاب الجريمة، ساعتها لن أكون أنا وأولادي وأمثالنا من الضعفاء بمأمن.

- هناك قانون يحميك ويحمي أولادك، ثم إن مسؤوليتك هي الدفاع عن وجودك ووجودهم. لماذا تكونون لقمة سائغة للمتوحشين؟

- ها القانون؟! القانون الذي أمَّم مصنع عمي وزوجي وتسبب في مقتل زوجي؟! هل تمزحين؟

- إذا غُيِّب القانون أو عُطِّل لأي سبب، دافعي على الأقل كما دافع أمزا محمود عن رزقه ومات دونه، حتى وإن اضطررتِ إلى استعمال هذه.

أشارت إلى سكين في يد أمي كانت تقطع بها الخضراوات. نظرت أمي في استغراب إلى السكين وكأنها تدرك للمرة الأولى أن لها استخدامًا آخر، في هذا الوقت دق جرس الهاتف محدثًا دويًا في الردهة، فاصلًا في المحادثة الشائكة بين الاثنتين.

رمقت أمي أمينة التي ردت على الاتصال وهي تغلق السماعة بيدها هامسة:

- عمتي مفيدة تريد أن تكلمك.

كانت أمي تتهرب من اتصالات أني مفيدة، ومن طلب بعينه كانت قد ردت عليه من قبل بدبلوماسية، إلا أن أني مفيدة ما فتئت تؤكد عبر تكرار الطلب إنها ليست دبلوماسية.

«نريد أمينة لعثمان».

سنوات الحصار
(عشرية الثمانينيات)

وقفت أمي عند باب بيت أمزا مسعود تتحدث معه قبل مغادرتها، لحظت مسمارًا ناتئًا في الباب فقامت إلى رأس التمثال النصفي، التقطته ودقت به المسمار، قطع عمي كلامه عن آلات المصنع الموجودة في البدروم وقال:

- لا يا نجاة، ليس بهذا.

لكن رأس التمثال أدى وظيفة المطرقة بنجاح وانتهى الأمر. واصلت أمي حديثها وكأن فاصل المسمار والتمثال لم يحدث أساسًا.

- المال لم يعد يكفينا، ارتفعت الأسعار بشكل جنوني إثر الحصار.

وزادت طلبات الأولاد، لا بد من أن أقوم بعمل ما أساعد به عمي. سأخيط في البيت وأبيع الناس.

واقترح أمزا مسعود بيع الآلات خردة في مصر.

ذهبنا وأمي نعاين الآلات التي كساها الغبار، ولاحت سيارة جدي من بعيد، كانت معه جدتي وقد أتيا من سوق الخضار، أسرع

جدي بالنزول من السيارة ثم استدار إلى جانبها وفتح بنطاله وبال على عجلة السيارة الخلفية. كان يضطر إلى ذلك إذا ألح عليه البول ولم يعد قادرًا على حبسه. أمي لا تنظر إليه ولا تكترث، فقد اعتادت الأمر منه، هو يعاني السكري منذ تلك الحوادث السيئة التي ألَّمت به، ولا يستطيع التحكم في البول، كما لم تستطع البلدية إنشاء حمامات عمومية بين المسافة والأخرى، ولم يبدُ أن في مخططها شيئًا عنها، هل ستفكر في الحمامات وهي لم ترصف الشوارع أو تنظفها من القمامة؟ بدا أن زمن الحمامات العمومية مفقود من مستقبل هذه المدينة كما فُقد زرع الڤيلات مع بداية عصر الحصار الاقتصادي فأزال الناس كافة المساحات الخضراء من بيوتهم ومن الحدائق العامة وحولوها إلى دكاكين للإيجار، المشروع الوحيد الممكن إقامته في البلاد أن تفتح دكانًا في سياج بيتكم، لا يتطلب الأمر الكثير، فقط إزالة عرائش العنب وتجريد الأسوار والأسيجة من هيئتها القديمة، لتحل محلها أبواب الكراجات وتفرض الدولة طلاءها بالأخضر، وهكذا زحف خضار على خضار، واختفى العنب من واجهات المنازل وحل محله الأسمنت واللافتات الخضراء القبيحة، وورش السيارات، والبقالات والمطاعم الرخيصة. لم تشوه سنوات الحصار وجه المدينة وطابعها فحسب، بل أقنعت سكانها أنها مشوهة بالأساس.

في الفناء الخلفي لڤيلا أمزا مسعود افتتحنا دكانًا خاصًّا بنا أنا وأختي، أخذنا نلعب فيه معظم الوقت وكانت جميع مبيعاتنا

المعروضة على الطاولة بتوليف باقة من زهر الأقحوان التي جمعناها من الجوار وبعض الأعشاب المحاذية لجدران الڤيلات وقصاصات من أقمشة تخلت عنها أمي. قالت أختي في ذروة اندماجنا في اللعب:

- هل تعلمين بأنّ ڤيلا أمزا خالد ستصبح ڤيلا أيوب؟

سألتها: من أخبرك؟

كمشت فمها منشغلة بتوليف طاقة من زهر الأقحوان.

- هكذا من رأسي.. لا أحد.

كانت أختي تقول أشياءَ غريبة من وحي خيالها، تنهاها العائلة عنها خشية أن تكبر معها ويتحول الكذب لديها إلى عادة.

صدقتها من باب الحفاظ على المصالح التجارية المشتركة وكي يستمر الدكان مفتوحًا.

كادي نيني تعيش هنا

- هل تريدين تعلم الدانتيل؟

أومأت برأسي نعم.

- الدانتيل ليس صعبًا، يحتاج صبرًا وأن تكوني فنانة، هل أنت فنانة؟

أومأت برأسي وبإصبعي: «نعم مثلك».

ابتسمت كادي نيني[1] وحضنتني مادحة سلوكي بمحبة.

- راقبيني وافعلي مثلي، أمسكي الإبرة باليد اليمنى، هكذا، لفّي الخيط على أصابع يدك اليسرى ثم لفي الإبرة حول الخيط، ولا تحركي يدك اليسرى.

راقبتها مرارًا، لكنني فعلت العكس، كنت أثبت الإبرة وألف السلك حولها، ولم أنجح إلا في جعل السلك خيوطًا متشابكة يصعب فكها.

---

(١) جدتي لأبي في لهجة كريت.

كانت تلاحظ امتعاضي من نفسي بينما أحاول فصل الخيوط بعضها عن بعض في كل مرة، تقول بهدوء وكأن شيئًا لم يحدث: لا عليك، دعيها سأفصلها بنفسي. انتقي سلكًا بلون مختلف من علبة السلك وجربي مرة ثانية.

كنت أرى نفسي أمامها صغيرة جدًّا. لكن هدوءها يطمئنني بأن الأمور ستعود إلى نصابها، وأن المشكلة بسيطة وليست بالتعقيد الذي أظنه.

أحيانًا يتدخل جدي ويقوم بفصل الخيوط ويلفت انتباه كادي نيني: لا تقولي لها يمينًا ويسارًا، ما زالت لا تعي الاتجاهات، هذا يصعِّب عليها الأمر.

فترد عليه كادي نيني ساخرة: ماذا أقول لها إذن؟

- قولي لها: أمسكي بيدك التي تأكلين بها، وسوف تدرك سريعًا.

توصَّل جدي إلى حل المعضلة، فأنا حقًّا لم أميز بين اليسار واليمين إلا حين أصبحت في المرحلة الثانوية.

أجادت كادي نيني أشغال الحياكة والتطريز كأي امرأة قريتلية إجادة عظيمة. كان شيئًا تراثيًّا في دماء كريت حب التطريز وزراعة النباتات وصناعة الحلويات، جميع معارفنا من القريتلية كانوا كذلك.

علمتني كادي نيني في كل مرة اقتربت فيها منها شيئًا ودربتني أن أرى التطريزات الجميلة وأحفظها في رأسي لأرسمها فيما بعد. كانت تعرض عليَّ بعض صور الكروشيه ثم تطلب مني حفظها.

- هل حفظتِها؟

- ليس بعد.

- هل حفظتِها؟

- نعم.

- الآن آخذها وأخبئها، وأنتِ ارسميها بنفس الألوان.

لم تتعب من تعليمي. هيا، جربي، جربي، لا تعدي المرات الخاطئة، التعليم لا يعتمد على العد، جربي... كنت مثلكِ حين كنت طفلة، ثم تعلمت.

عندما نجحت في تشكيل دائرة عقد صحيحة صفقت لي وقبلتني، وقالت لي: هيا نتصل بجدك بالتلفون ونخبره.

اتصلت بجدي فعلًا وأخبرته، ثم ناولتني السماعة وقالت لي: أخبريه بنفسك.

فتأتأت: أأأ.

فقال جدي بدلًا مني:

- صنعت غرزات صحيحة؟

فتأتأت: أأأ.

فقاطعني:

- براڤو براڤو! لكِ مني هدية عندما أعود إلى البيت.

فتأتأت لاختيار الهدية، لكنه قاطعني:

- هل طبخت لك جدتك فاتشي[1] باللحم كما تحبين؟

فتمتمت: أيييه.

فقال: حسنًا سأجلب لحبيبتي معي خبزًا ساخنًا.. لا تأكلي حتى أعود.

فتأتأت: أيييه... حاضر.

أنهينا المكالمة وأنا فرحة جدًّا، لكني ما لبثت أن حزنت حين طلبت مني كادي نيني فك النسج السليم!

نظرت إليها مقطبة رافضة، خبأت القطعة وراء ظهري. فقالت: فكيه ولا تخشي، سنعيد حياكته من جديد. هيا فكيه، اسحبي الخيط من هنا لنرى كيف يخرج معك الخيط كاملًا بلا تعقيد.

تلاشت الدائرة التي أدخلت السرور إلى قلبي أمام عيني في لحظة، ذهبت الغرزات أدراج الرياح فشعرت بالحزن والإحباط.

الكروشيه يحتاج صبرًا، لا شيء يتم بين يوم وليلة، تعلمي أن تحفظي الأشكال التي ترينها وتعجبك، ارسميها في ذاكرتك فورًا حتى تحفظيها وتعيدي حياكتها بالخيط والإبرة.

غرزة إثر غرزة وبين الكلمة والكلمة صمت طويل..

---

(١) فاتشي من أطباق كريت. يخنة العدس بلا لحم، يؤكل بالخل والخبز الساخن.

أنا ألعب بغرزاتي وكادي نيني تحيك عالمًا آخر تخرجه من العدم إلى العلن، وأحيانًا تفتح موضوعًا لا أعرف من أين بدأته وكيف وجدته ولماذا تحكيه، فأنظر إليها وأتخيلها مثل راديو دكان جدي، يخفض صوته فجأة على موضوع ثم يرفع على آخر غير الذي انخفض عليه.

كادي نيني كانت كذلك، وتوأمي كان لديها شيء شبيه إلا أنه أكبر وأعقد، إذ تكون في حديث ثم تقطعه فجاءة بآخر بعيد كل البعد عن حديثها الأول.

نظرت إليَّ كادي نيني وقالت:

- حين ظهرت لكِ أول سن احتفلنا بك وأعددنا لك كعكة «بيتا»[1] وقطعناها فوق رأسك، أما تماثيامو[2] فتأخرت قليلًا.

رفعت لها إصبعين، فقالت وهي تقطع السلك بأسنانها:

- نعم صنعنا كعكتين، قولي لجدك يريك الصور، هو يخبئها في ألبوم الصور في خزانته.

لم تتطرق كادي نيني إلى سمك البلم الذي أطعموني إياه من أجل النطق.

---

(١) كعكة بيتا من عادات كريت ليبيا يصنعوتها للطفل عندما تظهر أسنانه وتقص فوق رأسه وفي حجره حلوى.

(٢) أطلق جدي علينا أنا وتوأمي هذا الاسم فتداولته العائلة كلها. يعني: عيناي، في لهجة كريت.

عشية أحد الأيام الباردة من أواخر شهر مارس، تركتني أمي مع كادي نيني لتهتم بي، كنت أعاني من رشح أقعدني في البيت. كنت وجدتي وحدنا في الشقة، وكانت كادي نيني صائمة تتفقد طعام العشاء على النار، وأنا ملتفة في لحافها على الكنبة، أقلب مجلة تطريز جلبها جدي لها، مستغرقة في تأمل الأشكال البديعة وأيها أختار للحفظ.

مرت كادي نيني بجانبي من المطبخ إلى شرفة الصالون حاملة إبريق ري النباتات، وكان الجيران يحتفلون بزفاف أحد أولادهم، وهناك صخب وضجيج في الشارع، ما إن فتحت باب الشرفة حتى اندفعت أصداؤه إلى الداخل.. الغناء، الزغاريد، أبواق السيارات.. ألعاب نارية وأعيرة نارية.

ظلت الأصوات تتدافع وتأخرت كادي نيني في إغلاق باب الشرفة والعودة إلى نسيجها، كان الهواء باردًا يدخل من باب الشرفة مع جلبة الخارج، فكيف تركته كادي نيني مفتوحًا وهي تعرف أني بالكاد أتعافى من البرد؟

ثم تأخرت أكثر مما يجب ودخل هواء كثير فلحقت بها إلى الشرفة لأستطلع الأمر فربما أعجبتها الفرجة على عرس الجيران رغم الأنسام الباردة، وقفت عند باب الصالون، تطلعت من بعيد فرأيت باب الشرفة مشرعًا وكادي نيني ملقاة على الأرض تحرك ذراعها ببطء وكأنها تريد الإمساك بالابريق المرمي على مقربة منها.

اقتربت منها مصدومة مفزوعة، وجدتها تئن وعيناها مفتوحتان، حركت يدها نحوي ما إن رأتني، فهمت أنها تريد أن أقترب، كان هناك دم يسيل من صدرها أو رقبتها، لم أميز، غصت فيه وفي دموعي وشهقاتي المخنوقة، تمتمت بصوت خافت أو بشفتين بلا صوت، اقتربت أكثر لأسمع:

البااااب.. اااالجيران.

هرعت إلى خارج الشقة وفي قدمي دماء وفي حلقي صراخ وفي قلبي ألم. هبطت الدرج مسرعة فقابلتني امرأة تحمل أكياس خضار، أشرت لها بيدي في حركة آلية وتأتأت مشيرة إلى الشقة، حدجتني المرأة باستغراب ولم تفهم شيئًا، ثم ارتاعت لمرأى الدماء في خطواتي على الدرج، فنادت رفيقتها التي تسير وراءها: الطفلة تبكي وعلى قدميها دماء، يبدو أنها لا تستطيع الكلام.

ماذا جرى؟

تقدمت المرأة الأخرى مسرعة وما إن رأتني حتى أدركتني، قالت لرفيقتها: هذه بنت الجيران، مسكينة معاقة، لا تتكلم. يبدو أن أمرًا وقع في شقتهم، استر يا رب!

وعَدَتْ المرأتان إلى الشقة وتركتاني وراءهما، ثم سمعت صراخهما العالي فتيبست عند الباب أبكي. وهرولت المرأتان تصرخان على الدرج، تجمَّع الجيران في لحظات فازدحمت الشقة بالمُنجدين، سمعت رجالًا يدفعون النساء خارجًا طالبين إفساح

الطريق لإخراج كادي نيني ورأيت شابًّا يحملها بين ذراعيه ويصيح طالبًا لانسولا وسيارة.

هاتوا لانسولا.. وسيارة بسرعة.

كان آخرون يصيحون: سيارة سيارة، يجب أن نسعفها حالًا، المرأة مصابة بعيار ناري.

بسرعة اتصلوا بزوجها.

بسرعة إسعاف.

أفسحوا الطريق.

رأيت كادي نيني في صورة غير التي كانت عليها قبل لحظات قريبة، لم أصدق أن اللحظة التي لم تكشف لنا إلا في وقتها كانت دموية مرعبة!

أيعقل أننا كنا معًا في حال غير الحال الذي صرنا إليه؟ كادي نيني مضرجة بالدماء على ذراعي شاب غريب، يتأرجح رأسها إلى الخلف دون وشاحها المطرز، مفتوحة الفم مغلقة العينين وأنا أخمش الجدار بيدي من ورائي باكية والبول ينزل مني حارًّا لا إراديًّا.

كانت صورتها الأخيرة التي رأيتها عليها رهيبة، رهيبة ومفزعة حد استقرارها في أعماقي صورة وحيدة وأخيرة لجدتي التي فارقت الحياة بينما الأطباء يستخرجون الرصاصة ويحاولون وقف النزيف.

ابتلعتني الفاجعة وصارت معاناتي ومعاناة العائلة مزدوجة، فأنا بالإضافة إلى التأتأة أصبت بالتبول اللاإرادي وصار وضعي شائكًا.

لا أنسى هيئتي تلك أبدًا، كما لا أنسى السيارة الجميلة الفارهة التي أسعفت فيها جدتي وتلطخت بدمائها. لم تكن إحدى سيارات حفل الزفاف، بل سيارة امرأة جاءت بها الأقدار إلى جدي ذات يوم لكي تستأجر منه شقة، ولتسعف زوجته بعد حين!

كانت تلك المرأة هي المغنية الشعبية دافعة الإيجار سرًّا.

***

ماذا غير موت كادي نيني؟

كان حداد العائلة طويلًا. رفضت الذهاب إلى بيت جدي لأن جدتي ماتت هناك وستظهر روحها هناك باستمرار. حاولت العائلة إقناعي وإزالة مخاوفي، لكني تصلبت على موقفي وظل الخوف يسكن قلبي من جهة الصالون، حيث رأيت جدتي مرمية على الأرض تغطيها الدماء.

ذات يوم رفع جدي رأسه قليلًا من أحزانه وجلب عمالًا قاموا بإغلاق الصالون وشرفته إلى الأبد. بتر الجزء المخيف من شقته وألقى به إلى النسيان، أغلقه على ما فيه كما تركته جدتي، الأثاث، المنسوجات، السجاد، الكؤوس، الشموع، التلفاز، النباتات وصورة أبي وجدي يعقوب على الجدار.

أغلق الواجهة الوحيدة الفسيحة على البحر، وهكذا مات ذلك المكان من حياتنا واستعمالنا نهائيًّا، وفرضت التحويرات الجديدة على الشقة أن تضيق ويتغير مدخلها. ثم بدأت العائلة معاناة طويلة مع آثار تلك الرصاصة التي أراد بها أحدهم التعبير عن سروره فصنع مأساتنا.

المعاناة من نوبات الفزع، اشتداد العي، الصراخ أثناء النوم، والتبول اللاإرادي، صرت أبكي بمرارة كل صباح رافضة الاستحمام والذهاب إلى المدرسة.

- بردانة يا جدي.

وجدي يقول لأمي: لا تفرضي عليها الاستحمام، استبدلي لها ملابسها ودعيها تذهب إلى المدرسة. وأمي تصرخ بعصبية قائلة له: كيف يا عمي رائحتها بول، سنفضح أمام الناس!

صار ذلك الجدل حوارهما الصباحي وفقدت أمي حلمها تدريجيًّا حتى إنها صفعتني لرفضي الاستحمام. وبدأ جدي يسمع ويلاحظ ويتدخل، ثم منعها من لمسي وهدد بضرب من يضربني أو يحرجني أو ينبزني أيًّا كان.

وأخذني من أمي قائلًا لها بكلمات واضحة:

- إذا كنت متضايقة من الاهتمام بها فدعيها سأهتم بها أنا بنفسي، لكن إياك وضربها وإهانتها.

بالفعل أخذني جدي وكنت في الصباح أجد نفسي مبللة، أبكي

عند الباب فيستبدل لي ملابسي ويسرح شعري ويواسيني: لا عليك، لا تقلقي.

ذات يوم ذهبنا إلى السوق واشترى لي دزينة من نفس البنطلون الذي أرتديه للمدرسة، كي لا يلحظ أحد أنني أغير بنطالي كل يوم. لكن بقائي في المدرسة العامة غدا أمرًا صعبًا، وبدأت حاجتي إلى الانتشال من الدوامة مطلبًا ملحًّا، فهبَّ جدي وأمي وأمزا مسعود وآمال كل بطريقته. رافقني جدي إلى المدرسة في البداية لحمايتي من التنمر والسخرية. كنت أتفاجأ بوجوده أحيانًا في استراحة الإفطار جالسًا في انتظاري بفطيرة إضافية وعصير، وكان التلاميذ يحجمون عن مشاكستي ما إن يروه أو يتوقعوا مجيئه. سمحت له المديرة بالتدخل لأنها صديقة للعائلة وهي قريبة أسنا هيلازاكيس صديقة جدتي. يبدو أن جدي شرح لها مشكلتي حتى سمحت له أن يكون معي حتى في الفصل أحيانًا.

أنهيت سنتي الدراسية تلك بصعوبة، ثم أخذتني آمال وأمزا مسعود إلى الإسكندرية، قضيت معهما صيفًا طويلًا بين الأطباء، ثم حين عدت إلى بنغازي قام جدي وأمي بنقلي وأختي إلى مدرسة الجالية الباكستانية في بنغازي، وهي مدرسة صغيرة داخل مبنى قنصلية باكستان في بنغازي. تكفَّل أمزا مسعود بدفع نفقات دراستنا، شريطة أخذ حالتي في الاعتبار، عدم تقديمي إلى أي تقييمات شفهية داخل الصف، والسماح لي بالذهاب إلى الحمَّام دون استئذان، والاحتفاظ بثياب بديلة في خزانتي المدرسية وعدم فصلي عن شقيقتي.

كان لذلك الإجراء أثر إيجابي جدًّا على حالتي، فمضيت قدمًا، وكان أهم ما أخذته من تلك المدرسة الصغيرة هو الانضباط واللغة الإنجليزية والسراويل الفضفاضة والصنادل، وتعود إجراء الامتحانات والناس نيام إذ تجري الامتحانات بتوقيت المدارس في باكستان وهو مختلف عن توقيت ليبيا.

كنا نخرج من البيت في الثالثة صباحًا في البرد، يدثرنا جدي، يتدثر معنا ويحملني أنا وأختي وينتظرنا في سيارته حتي ننتهي ونخرج برفقة الحارس فنجده نائمًا في سيارته. أما على مستوى البيت، فقد أصر جدي أن أتعلم الدانتيل لأستكمل القطعة التي كانت كادي نيني تحيكها قبل أن تسقط برصاص فرح الجيران.

كنت أبكي وأقول له: لا أعرف، وكان يقول لي: ستساعدك أمينة وأمك وتكمليها.

ظللت سنوات أنفر منها وظل ينتظرني، ثم دخلت عليه حجرته وكانت المراهقة قد بدأت تغير من عودي وهيئتي، فقال لي وهو في سريره:

- ماذا تريدين أيتها النخلة؟ (كنت طويلة نحيلة).

فقلت بشجاعة وإصرار:

- أريد قطعة كادي نيني.

لم يتحرك، صمت لحظات ثم قال: افتحي الخزانة، تجدينها في جيب معطفي الأسود.

أخذتها وأعدتها إليه بعد أيام كاملة، ظننت أنه سيبتهج بإنهائها وسيحتفي بي، لكنه أخذها دون تعقيب ودخل غرفته وأغلق بابه عليه.

في وقت لاحق سألته عنها ففتح درجًا صغيرًا في خزانته وأخرج منه علبة، قال لي: كادي نيني تعيش هنا.

لم أفهم ما يعنيه إلا بعد أن فتح العلبة ورأيت قطعة الدانتيل التي أتممتها ملفوفة على شيء صغير بداخلها، فتحها جدي متأثرًا وجعلني أرى ما فيها ولم يتكلم، كانت قطعة من القطن الطبي لف فيها خاتم زواج كادي نيني بجدي والرصاصة التي أنهت حياتها.

الرصاصة والخاتم كانا ملطخين بالدم والدموع.

ثلاثة عشر رجلًا ورصاصة

- لكن ياجدي ألم تكن حيازة الأسلحة ممنوعة؟

- بلى، إلا خراطيش الصيد، ثم جمعتها الدولة في وقت لاحق.

غادر الرجال الثلاثة عشر وفي أفواههم ماء.

تكلموا طويلًا عن القضاء والقدر ممررين الكلمات بينهم لكن الماء لم ينزل من أفواههم، لم يجدوا مدخلًا مناسبًا لقول ما جاءوا لأجله، اعتقد جدي بأن مجيئهم كان لتقديم واجب العزاء والمواساة نيابة عن قريبهم القاتل.

كان جدي تحت وقع الصدمة لم يستوعب تمامًا ما جرى، رجل للتو دفن زوجته وحاول أن يعي نفسه من دونها.

لكن الرجال كانوا عمليين جدًّا ما أوقعهم في الوقاحة، والحادثة لن تبطئهم عن مبتغاهم ومبتغاهم أن يجاب طلب من أرسلهم في الحال.

مطلبهم الرصاصة التي فتكت بروح بريئة.

أخذوا زوج عمتي خارجًا وفاتحوه في الأمر: نحن نقدر مصابكم الجلل، والسيدة ذاك أجلها من الله سبحانه وتعالى فهو مقدر ومكتوب لها، لكننا نريد الرصاصة.

لم يستغرب زوج عمتي مكوثهم الطويل المترقب في مجلس العزاء، فهم إنما يتحينون فرصة للحديث عن الرصاصة وليس سماع القرآن على روح الفقيدة.

العائلة التي أُطلقت الرصاصة في زفاف نجلهم هي عائلة شقيق عقيد في الجيش من قبيلة نافذة ولها يد طولى، استخدموا رصاص الدولة لإحياء أفراحهم في حين أن الدولة تحتكر السلاح ولا تسمح لمواطنيها بأكثر من بنادق الصيد بالخرطوش.

«نريد الرصاصة لأنها يجب أن تعود إلى طرابلس مع بقية الطلقات الفارغة التي تستعمل في تدريبات الرماية، وإلا فإن ابننا العقيد سيأخذ مكانها حتى تعود وإن لم تعد فإن خيري خالد[1] لن يتركه يعود. ستقطع رقبته في طرابلس بصمت، فهل يرضيكم قتله؟ وهل يعيد موته امرأتكم حية؟

المرأة توفاها الله قضاء وقدرًا فلا يجب أن يقتل بسببها أحد، لقد طاشت الطلقة ولم تكن مقصودة، ولو أنها رحمها الله لم تتواجد في البلكونة أثناء تواجد ركب الزفاف لما أصابتها الرصاصة لكن النساء غريبات حقًّا ولا يمكن التنبؤ بما يفعلن! وإننا نريد الرصاصة».

---

(١) رئيس جهاز الأمن الداخلي وصهر القذافي.

استشاط جدي غضبًا من وقاحتهم.

«لماذا أخرج ابنهم رصاص المعسكر ليحتفل بزفاف ابن شقيقه إذا كان يعي سطوة النظام؟ عليه أن يتحمل مسؤولية تهوره، أما زوجتي فلن أسامح في دمها ولن أقبل منهم دية».

بدأت قبيلة العقيد في ممارسة الضغوط على جدي، رفعت السعر تدريجيًّا لاستعادة الرصاصة ورفض جدي في مراوغة طويلة.

ذهبوا إلى الطبيب الجراح وعرضوا عليه مالًا إن سلمهم الرصاصة، لكنه أنكر وجودها عنده واعترف بأنه سلمها لعائلة الراحلة.

لم يحبذ الطبيب تدخل القبيلة في عمله ومضايقته في مهنته، اتصل بصديقه ابن عمتي وأخبره. استمرت الضغوطات العائلية والقبلية ولم يحِد جدي مقدار أنملة عن قوله لكل من كلمه بشأن الرصاصة: الرصاصة دفنت مع زوجتي. لا جدوى.

ثم همست له أمي بأنهم قد لا يتورعون عن نبش القبر من أجل الرصاصة، فتأثر جدي بقولها فما الذي يمنعهم من فعل ذلك وهم من يسيطرون على كل شيء في هذه المدينة وبيدهم مقاليد كل شيء.

أخذ أيوب ذات صباح وأبكرا إلى المقبرة وقاما بنزع الشاهد عن القبر، قال جدي لحارس المقبرة ما إن رآه يتأبط قطعة الرخام بأنه سيأخذها لتعديل اسم المرحومة والخطأ في الآية القرآنية.

جاء بالشاهد إلى بيتنا، كان يرتعد مصعوقًا، مصفرَّ الوجه،

غائم النظرة، ثقيل الخطوة. ساعدته أمي في إنزال الشاهد الرخامي وإنزال دموعه المحبوسة. اختلط كلامه بكلامها في معانقة باكية.

- ماذا فعلت ياعمي؟! رفقًا بنفسك.

فهمت ما فعله وما يشعر به. بكى بكى، ذارفًا أساه على ما فعلته الأيام به قرب الشاهد الصامت.

أشارت أمي لأيوب بأن يأخذ الشاهد ويخفيه بعيدًا في القبو فلا يراه أحد، حمله أيوب متوعدًا بإنهاء حياة من يحاول مساومة جدي من جديد.

«يعيش الإنسان رخيصًا بينهم فلما ينتهي بطيش أحدهم تتدخل القبيلة وتحل الأمر بطريقتها، تدفع دية القتيل ويتنازل أهله للعرف ولا يتدخل القانون. أي رخص هذا».

واصل جدي رفض جماعات الضغط التي ترسلها عائلة العقيد رغم مخاوف العائلة أن تتم معاقبتنا بالنفوذ القبلي، نحن لا ننتمي إلى قبيلة.

ظل جدي ثابتًا على أقواله حتى ودَّع آخر قادم منهم بدبلوماسية.

«ضباط الجيش هم أقدر المخلوقات على التعامل مع الظروف كافة، على العقيد تدبر أمره مع قيادته القذرة في طرابلس، سيجد طريقة ما يلفلف بها القضية. يصطحبون بناتهم وزوجاتهم معهم للترقيات والسفريات والحصول على تعيينات في السفارات، أيشق عليهم تقديمهن لإغلاق ملف أو فتحه.. تبًّا!

بدا أنها الطريقة التي حلت بها قضية الرصاصة فقد توقف رجال القبيلة عن زيارة جدي والتلويح بنقودهم ونفوذهم، ربما صدقوا أن الرصاصة دفنت مع جدتي فأوقفوا المباحثات بشأنها وبحثوا عن حل آخر.

- لا أدري لماذا احتفظت بالرصاصة التي قتلت زوجتي، ولماذا رفضت الدية على الرغم من أن ابنتي تهاني ما برحت تتهمني بقبض ثمن موت أمها من أجل الزواج الجديد!

من دون أي تبرير فعلت أشياء أملتها عليَّ نفسي.. فقط لأنها أملتها عليَّ.

لكن ابنتي تهاني كلبة وستظل كلبة!

أثناء تواجدي في مصر للعلاج، حدثتني أختي في التلفون قائلة: إن جدتي موجودة في قبو الڤيلا ولم تمت تمامًا.

سمعها جدي فذعر من كلامها وبعد أيام أعاد الشاهد إلى القبر وجعلها تشاهد ذلك لكي تخبر عنه.

نقلت إليَّ الخبر كالتالي:

- أعدنا جدتي إلى المقبرة كي تستطيع الذهاب إلى الجنة. أجنحة الملائكة كبيرة ولا يسعها دخول القبو. أجنحتها أكبر من بيتنا، لذلك حملنا جدتي إليها حيث تستطيع الطيران.

كان جزءًا من علاجي إقناعهم إياي بأن جدتي ماتت شهيدة والشهيد مكانه الجنة.

فكأني حين اقتنعت بموتها اقتنعت بأنها في الجنة.

استغرق بناء الجنة في داخلي وقتًا وحزنًا.

أحاديث الظلام

يسقط الاستعمار والموت لأمريكا، والدفاع عن الوطن مسؤولية كل مواطن ومواطنة، والكفاح الثوري مستمر وهرطقات ثورية أخرى.

كانت أمي عائدة بنا من المدرسة فاستوقفتها ناظرة مدرسة أختي أمينة، وطلبتها في حديث خاص. كانت أبله صالحة على صلة بعائلتنا وتربطها بنا بعض الأواصر الأسرية، اتخذت من تلك الرابطة مدخلًا للموضوع الذي أرادت أمي بشأنه.

أدخلت أمي غرفة الإدارة، وأغلقت الباب وحدثتها عن شيء غريب لاحظته في أمينة. كانت مفاجأة لأمي أن يلاحظ الناس أن أمينة لديها غرابة في سلوكها بينما همست أبله صالحة حديثها لأمي:

- الجدران لها آذان، لقد جاؤوا إلى المدرسة وحدثونا عن نيتهم تجنيد البنات للكلية العسكرية في طرابلس، تعرفين يا أختي أننا لا نستطيع منعهم من رؤية الطالبات أو الاعتراض. إنهم

مجموعة من الثوريين والثوريات أغروا التلميذات الغريرات بامتيازات ليسجلن أسماءهن في الكلية العسكرية، وقد عرفت بطريقتي الخاصة أن ابنتك كانت واحدة منهن. إنهم ينتقونهن انتقاءً يا نجاة يا أختي الله يستر على بناتنا وبناتك. وقد رأيت أن من واجبي إخبارك حتى لا تكوني في غفلة عن غسيل الدماغ الذي يجري لابنتك. أرجوك لا تخبري أحدًا مهما كانت صلتك به أنني أخبرتك شيئًا. تفهمي موقفي، وتدبري أمر ابنتك لئلا تضيع منك. الفتاة مليحة ويخشى أن...

شكرت أمي أبله صالحة رغم أنها خرجت من مكتبها كمن تلقَّى رصاصة من كاتم للصوت، ظلت صامتة طوال طريقنا إلى البيت، بعد وصولنا دخلت خلف أمينة غرفتها وبدأ الصوت يعلو تدريجيًّا، فقدت أمي صبرها فصفعت أمينة وخرجت تغلي من الغضب.

أغلقت أمينة على نفسها باب الغرفة واتصلت أمي بجدي.

- تعال بسرعة، يجب أن تعرف هذه البلهاء أن لديها رجالًا حتى وإن كانت من دون أب.

جاء جدي من دكانه فورًا، رفضت أمينة فتح الباب له، ظلت تبكي جراء الصفعة التي نالتها، وعاتبت أمي على إشاعة الخبر، شاكية من وراء الباب أن الجميع يحشر أنفه في حياتها، وأنها تعاني من فقدان الخصوصية، وأنها لا تريد أن يشاركها أحد غرفتها، وأنها

تريد الالتحاق بالكلية العسكرية لتحقيق ذاتها واستقلاليتها، وأن المدرسة لم تفدها في شيء عدا فضح مصروفها الشحيح لصديقاتها وفك وتركيب بندقية الكلاشنكوف.

استغرب جدي ما سمعه وهو الذي اعتقد أنها لا تملك لسانًا من الأساس لطول صمتها وسكينتها.

سعى إلى هدنة كما يفعل دائمًا واستخدم طعم السفر، الحج والعمرة تحديدًا، ففي نيته حتى دون مشكلة أن يصطحبها هي وأيوب إلى بيت الله، إذا تحصَّل من البنك على الحصة السنوية من الدولارات، سيكون بوسعهما دعاء الله عن قرب بكل ما أراداه وتعذر حصولهما عليه في ليبيا.

- هل تمزح يا جدي؟ ثلاث مئة دولار فقط! هل سيسمعني الله بثلاث مئة دولار فقط! حتى الشيطان لن يرضى أن أرجمه بهذا المبلغ المخزي.

- هذا واقع الحال يا بنيتي والله يعلم حالنا ولا تخفى عنه خافية. الدولة لا تسمح إلا بثلاث مئة دولار سنويًّا للشخص الواحد.

- أستر لي أن أدعوه هنا ببلاش على أن أذهب إلى السعودية لكي أدعوه بثلاث مئة دولار فقط، ما هذه الحياة يا رب؟ لماذا نعيش هكذا، إذا غطينا رؤوسنا تعرت أرجلنا وإذا غطينا أرجلنا تعرت رؤوسنا؟

- الأمر ليس بيدي يا بنتي، مع ذلك سيساعدنا عمك مسعود بما تيسر لديه، لن يبخل علينا بمساعدة، هناك أناس خسروا تجارتهم وأعمالهم، أصبحوا فقراء بين يوم وليلة، لنحمده تعالى أننا لسنا منهم.

- أنا لا أريد أن أحمد الله على أني لست مثلهم فقط، أنا أريد أن أحمده لأني أرفل في النعمة، لماذا لا ندعوه إلا إذا كان حالنا سيئًا؟

- ومن منعك من حمده في الرخاء والشدة؟

- منعني أني لا أشعر بالرخاء.

- أووفا!! يا بنتي أنت تقولين كلامًا مغلوطًا، الإنسان بعافيته وصحته في نعمة.

- إذن أريني يا جدي الكلام غير المغلوط.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. يبس حلقي وتيبست قدماي وأنا واقف أمام الباب (كان قاعدًا على كرسي جلبته له أمي)، ليست لديَّ أجوبة على جميع الأسئلة، ارأفوا بحالي فأنا إنسان مثلكم ولست مخلوقًا خارقًا، ساعدوني على حمل الزمان ولا تكسروني أنتم أيضًا.

- إذن دعوني أذهب إلى الكلية العسكرية مثل بنات العالم والناس.

- هل جننتِ؟ مستقبلك أمانة في رقبتي، يجب أن تتعلمي

وتحصلي على شهادة تضمن لك وظيفة، أنا لن أعيش لكم العمر كله، أمك أيضًا أطال الله عمرها يجب أن تؤدي واجبها تجاهكم حتى تؤمِّنوا مستقبلكم.

- إذن دعوني أخلصكم من مصاريفي ومن مستقبلي وأتزوج.

- تتزوجين من؟ أنت ما زلتِ قاصرًا.. هل تهددينا؟

- أنا لم أعد صغيرة ومن حقي تقرير مصيري.

- هل لعب شخص ما بأفكارك؟ أخبريني عنه.

- وهل أنا صغيرة حتى يغسل مخي أحد.

- سأوافق على تزويجك به إن أخبرتيني من هو.

- لا يوجد أحد. يوجد أنا فقط.

سكتت أمينة، قال لها جدي:

- لن أتناول دوائي إن لم تفتحي الباب. سأغيب نصف ساعة حتى تفكري في كلامي ثم سنأكل معًا ونتكلم.

نهض جدي من الكرسي وقصد سيارته، لحقت به أمي تسأله فقال:

- الفتاة مراهقة ولديها حق، يجب أن نلتفت إليها أكثر يا بنتي، إنها سن حرجة.

مر بنا جدي أنا وتوأمي فلما رآنا واقفتين قال لنا: من الليلة خذا أشياءكما وأفرغا الغرفة لأمينة.

- أين نذهب يا جدي؟

- اذهبا مع أمكما.

نظرت إلى أختي وتلعثمت ببعض كلمات ترجمتها هي لجدي:

- تقول لك: وإن لم تفتح الباب؟

- ستفتح، إنها جائعة، تعالا معي.

كانت فرحتنا عارمة بركوب السيارة إلى أي مكان، همُّنا أن تظل تتجول بنا أطول وقت ممكن. أخذنا جدي إلى أحد دكاكين البقالة، ثم ذهبنا إلى قرطاسية وصيدلية، سأل كل واحدة منا ماذا تريد من الدكان، قالت أختي: حلوى، وقلت أنا: أريد التكلم مع آمال، فهاتِف بيتنا لا يتصل بألمانيا.

ابتسم جدي رغم ما سكن وجهه من أسى وقال:

غدًا أصحب ابنتي حبيبتي لتشاركية اتصالات ونتصل وتتكلمي مع آمال كما تريدين.

- لماذا لدينا هاتف يتصل بالدنيا كلها إلا بيت عمي في ألمانيا؟

- لأنه يتصل داخل ليبيا فقط، وللاتصال الخارجي يجب أن نذهب إلى البريد يتصلون لنا هم من هناك. يجب أن يستمعوا لما نقوله، لذلك سترين الناس عندما نذهب إلى هناك يتكلمون بأصوات عالية، غير مهتمين بأسرارهم العائلية، هذا يعني أن علينا ألا نتكلم عمَّا نريد قوله مهما تكلمنا.

مضى جدي يقود في ظلام الفويهات الدامس مشرعًا عينيه لمعرفة الطريق الترابي الذي صنعته السيارات وهو يكمل حديثه مع نفسه بصوت عالٍ أو مع أحد ما في باله.

كانت السيارة تتخبط من قيادته وتجنح هنا وهناك، ونحن ننظر إلى عينيه ونشعر بالثقة والأمان لأن العجوز الذي عرف الدنيا كلها عرف جميع الحلول والمخارج ولن نضيع معه أبدًا.

قبل بلوغنا البيت ترجل عن السيارة وسمعناه يطرح البول. اعتدنا ذلك كما اعتادته عجلتا السيارة الخلفيتان. كنت أعتقد أن جسم جدي المكتنز مليء بالمياه، لذلك يتوجب عليه إفراغه من وقت إلى آخر، بينما كانت لأختي نظرية أخرى تقوم على أن البول على عجلات السيارة يجعلها أسرع. وهو ما لاحظته فعلًا إذ أن سرعة السيارة تزداد بمجرد أن يتخفف جدي من البول، ثم اتضح أن لا علاقة لذلك بالسيارة بل بالسائق الذي يقود وهو مرتاح.

طرق جدي باب حجرة أمينة متحدثًا بصوت هادئ:

- افتحي يا أمونتي وانظري ماذا جلب لك جدك، إنه ليعز عليَّ أن تكوني حزينة وغاضبة.

قالت أمي: اخجلي من نفسك وافتحي الباب لجدك، احترمي نفسك.

- إنه مفتوح يا جدي، قالت أمينة.

انطلقنا أنا وتوأمي من بين الأرجل إلى الغرفة نجمع أشياءنا

بسرعة، ودخلت أمي تساعدنا دون أن تتكلم مع أمينة التي حضنت جدي وتأسفت له.

- أنا آسفة يا بابا أحمد، أنا أحبك جدًّا ولم أقصد إزعاجك.

- أنت لا تزعجينني أبدًا. أنا أحبك أكثر من نفسي، انظري ماذا جلبت لك.

نظرت أمينة داخل الأكياس، رأت مواد لصناعة الحلويات من السوق السوداء، زبدًا، سكرًا، أربعة كيلو دقيق، شكولاتة خام، بيكنج بودر، زينة كيك، وأيضًا قطنًا طبيًّا وعددًا من مجلة الأمل للفتيات وشريط ڤيديو لأحد أفلام سعاد حسني.

عانقت جدي وقالت:

- لكن يا جدي أنت دائمًا تسخر مني لأني أحب صناعة الحلويات.

- أعدك أني لن أسخر بعد الآن من ابنتي. لأي إنسان الحق في ممارسة أي شيء يحبه مهما كان رأي الآخرين فيه. يومًا ما سأفتتح لك معملًا لصنع المرطبات.

- لكني لا أريد فعلًا كل هذه الأشياء الغالية التي اشتريتها من السوق السوداء.

غمزها جدي: ولكني أنا الذي يريد أن يأكل شيئًا من يديك.

- أنت لديك السكري، كف عن التلاعب بي.

- لا، أنا لا أتلاعب بك، ثم إنني لا أهتم للسكري، أحيانًا أغش وآكل وأتناول دوائي.

فتشت أمينة الأكياس بفرح وأضافت:

- لكن يا جدي ليس لدينا جهاز ڤيديو.

ادعى جدي أنه اكتشف حالًا أننا لا نملك ڤيديو، ووعدها أنه سيشتري لنا واحدًا لتشاهد عليه الأفلام بإرادتها.

وشوشت لي توأمي:

- الفيديو يعرض قبلات.

بالطبع كانت سعادة أختي أمينة من سعادتنا، فشكرًا للكلية العسكرية ولزيارة الرهبان الثوريين الذين أحدثوا ثورة في بيتنا دون أن يعلموا. لقد أدخلوا السرور إلى حياتنا، وبسببهم اشترينا جهاز ڤيديو.

نقلنا أسرتنا أنا وتوأمي إلى غرفة أمي، وكعادة المرء عندما يغير مكان نومه لا يأتيه النعاس بسهولة، ظللنا نحدق إلى ظلام الغرفة ونتخيل العالم المختلف عن التلفزيون الرسمي الذي سينهمر علينا من الڤيديو، هي تتخيله في السرير السفلي وأنا في السرير العلوي، وأثناء ذلك التجلي الطفولي البديع اكتشفنا أن أمنا تتكلم وهي نائمة وأنه قد فاتنا من أحاديثها الكثير!

فتق جدي

هناك فترة في حياتنا كنا نذهب فيها إلى بيتنا كي ننام فقط. ثم نغادره صباحًا إلى مدارسنا ومنها نعود إلى بيت جدي في جليانة. كانت تلك دورة حياتنا خلال مرض جدي.

تولت أمي العناية به، وقد رفض مغادرة شقته لأنها نقطة تجمع العائلة كل جمعة وكذلك الأصدقاء والمعارف. جدي لم يرد أن يكون ثقيل الوجود على أحد. لذلك طلب أن نأتيه نحن. كانت أمي تضعنا في مدارسنا ثم تذهب للاهتمام به، ثم تعود في نهاية اليوم الدراسي لتقلنا من المدرسة، في حين يعود أيوب راجلًا أو رفقة صديقه مروان الأحرش الذي لا يبعد مقر سكناه عن سكنى جدي.

كانت القاعدة في البيت ألا غداء إلا بعد عودة أيوب. وهكذا اكتسب وقت الطعام احترامًا عائليًّا فهو ليس وقتًا للأكل بقدر ماهو وقتنا معًا.

أطلق جدي على أيوب لقب «رجل البيت» واتكلت أمي عليه

في قضاء الكثير من حوائجنا. كان يكبر عمره، ولديه استعداد لقطع لعبه مع الأولاد ومساعدتها ما إن تناديه من البلكونة. كان فتًى طيبًا مباركًا قليل التذمر، محبوبًا من الجميع لا سيما أمي التي رأت فيه بطلها، وجدي الذي اعتبره انعكاسًا أثيريًّا لوالدي، وأمزا مسعود الذي قربه منه كابن وصديق وناداه بـ«الري»[1].

كان أيوب «ري» حياتنا كلنا.

في مرض جدي أظهر أيوب نبلًا ومسؤولية في مساعدته على القيام ببعض وظائفه وأبان عن محبة وصبر في التعامل معه.

كنت وشقيقاتي نشعر بأن لدى جدي مشكلة ما بين ساقيه، مشكلة من المخجل الحديث عنها. لم نعرف ما هي بالتحديد، وكنا نعتقد أن الرجال حين يكبرون يمرون بتلك المشكلة لا محالة، فزوج أمي خديجة كانت لديه معضلة ما بين ساقيه هو الآخر، تكتموا بشأنها طويلًا ثم ذهب لعلاجها في الخارج ولم يعد يرتدي بعدها سوى الملابس العربية[2] الفضفاضة، لذلك على الرجل أن يبلغ تلك السن وإلى جانبه زوجة، حتى لا يكون وحيدًا في مواجهة تلك الأزمة.

حاول أصحاب جدي ألا يكون جدي وحيدًا أمام مشكلته، أخذ بنصيحة أصحابه فذهب إلى مصر مع أحدهم وتزوج فتاة

---

(١) iI Ri كلمة إيطالية تعني الملك.

(٢) يطلق على الزي التقليدي في ليبيا ملابس عربية.

من هناك حرصوا أن تكون من الريف. قال له وسيطه للزواج إن الفقر سيجعلها خرساء، والجهل سيجعلها طيعة، والمدينة ستجعلها حريصة على عدم ارتكاب ما يعيدها إلى شقاء حياة المزارع والأرياف. فأخضعه بالقول حتى ظن جدي أنه يلبى كما يؤمر، فطلب ألا تكون الفتاة مختونة، فجاء وليها بأربعة شهود حلفوا أمامه أن عائلتهم لا تختن البنات، وكانت معاينة الفتاة أقرب إلى معاينة بقرة، إذ أخذها جدي حالًا في جلبابها الريفي بعد أن دفع المال إلى وليها وعقد قرانها، وغادر بها إلى الإسكندرية ثم بنغازي.

قاطعت عماتي جدي بسبب زيجته تلك، وكانت آني تهاني[1] أحدَّهنَّ في خصومة والدها، لم تغفر له زواجه أبدًا بعد أمها، أعلنت عليه الحرب والمقاطعة ولم تهادن، وأوفت بقسمها ألا تطأ بيتًا تسكنه امرأة أخرى بعد أمها. احترم جدي حزنها وقال دعوها لا ألومها فأمينة تستحق أن يُحارب من أجلها حية وميتة إلا أن لي أمراضًا لا تتفهمها ابنتي.

مرَّ الوقت لتتغير المعادلة لصالح أني تهاني، فزوبا الزوجة الصغيرة سرقت جدي بمساعدة شقيقها وفرت من البيت دون أن يعثر لها على أثر بعد ذلك. هناك من قال إن الرجل الذي استضافه جدي لم يكن شقيقها كما ادعت بل كان صديقها الذي ساعدها في عملية النصب والفرار.

---

(١) آني تهاني في لهجة كريت تعني عمتي.

كانت صفعةً قاسية لجدي، فالزوجة الصغيرة لم تشتمل على شيء من توقعاته التي بنى زيجته عليها، فلا هو استطاع الإفادة من فقرها ولا من أميتها ولا من صغر سنها ولا من معاشها في البؤر العديمة، وبالتالي لم تستره ولم تحمه من اطلاع الآخرين على عورته.

لو أن جدي ذهب وراء «زوبا» لاستعادة ما سرقته منه لكان أقل خطرًا عليه من أن يذهب إلى طبيب أمراض تناسلية ويراه أحدهم عنده. الرجال لدينا مكابرون إلى درجة أنهم يفضلون الموت رميًا بالرصاص على الموت بمرض تناسلي يقتلهم أحياء قبل أن يلاقوا وجه ربهم فعلًا.

حاول أمزا مسعود إقناع جدي بمرافقته إلى برلين، فهناك لن يراه أو يسمع بأمره أحد، هناك الأطباء لا يتحدثون عن مرضاهم لأحد ولا تجلسهم العيادات أمامها مثل الشارة الضوئية البينة للجميع، خصوصية المرضى هناك محمية من الفضول والتقول. حاول أمزا مسعود إلا أن جدي أصيب بنكسة نفسية تمنى على إثرها الموت وتصلب على موقفه من عدم مغادرة بيته إلا إلى المقبرة.

أكثرت أني تهاني من تفسير اهتمام أمي بجدي حتى قالت إن ما تفعله نجاة ليس أكثر من تكتيك غاية في الدهاء تهدف به إلى السيطرة على وجدان الرجل العجوز واستمالته ليخصها وأولادها بشيء من إرثه قبل رحيله، نجاة تدرك أن الرجل إذا مات قبل والديه انتهى ميراثه فيهم ولا يحق لأولاده شيء منهما من بعده،

لذلك تحاول الالتفاف على العجوز لتضعه أمام ذلك الخيار بطريقة غير مباشرة.

لم يكشف أحد عن سريرة أمي ليعرف ما فيها حقًّا، فأمي لا تتكلم وليست ذات جدال، تصرفت بما أملاه الواجب وصلة القربى عليها. جدي أحمد عمران لم يكن والد زوجها فقط، إنما راعي أولادها وحاميها، صديق والدها القديم الذي دعته «عمي» مذ فتحت عينيها في الدنيا.

مر وقت طويل حتى فهمتُ تفكير أني تهاني وفهمت مشكلة جدي الصحية، وفهمت أن زوجة يافعة ما كانت لتصبر على رجل كبير ولتحتمل ما لديه مهما بلغت حياتها في بيت أبيها من البؤس، وأن أبناء الرجل الذي يموت قبل والديه لا يرثون من والديه شيئًا، بل على العكس يشارك والداه أبناءه وزوجته فيما ترك. وهو ما خالفه جدي وجدتي بمنتهى النبل والتفاني.

فهمت لماذا تنازل لنا جدي وجدتي أمينة رحمهما الله عن نصيبهما الشرعي في ڤيلا الفويهات لتصبح من حقنا كاملة وأن يكتبنا جدي مع ورثته من أبنائه الأحياء حتى يكون لنا وأمي حصة أبينا الراحل وكأنه لم يرحل.

أخبرتنا أمي أن كادي نيني كانت تقول بحرقة عن رحيل أبي:

- ترك أطفالًا يتامى دون معاش، وزحفت الدولة على مصنعه، فكيف سيعيش أولادنا إن لم نساندهم؟

وكان جدي حتى أواخر أيامه يتوكأ عكازه مرتعشًا، ويقول بعبرة تخنق صوته ودمعة تجري في عينيه:

- فعلت كل ما في وسعي كي لا يجور الزمان على نجاة وأولادها، لن يحتاجوا أحدًا في حياتي ولا بعد مماتي.

منذ انتقالنا الجزئي إلى بيت جدي، كثر الهمس حول تلك المواضيع، مؤكد أن في العائلة من لم يعجبه إدخالنا في الوصية، لم نكن نعي أبعاد ما قيل أو سيقال، كانت أشياءَ تضايقني في العائلة التي أحببها لأنها تريني ما لا أحب رؤيته فيها، كان النسيج مهترئ من بعض جوانبه رغم إنكاري ذلك، فالمشاكل موجودة لدى كل العائلات، وهي لا بد أن تكون شأنًا مؤقتًا يطويه الوقت، عدا أن تفكيري كان طفوليًّا بريئًا، فالزمن لا يقضي على المشاكل ولا يبيد المشاعر الناتجة عنها. الزمن يوطدها أو يستبدلها.

والواقع أن المال متى تدخل في العلاقات أفسدها أو جعلها سريعة الفساد. بت أواجه مخاوف فقدان العائلة التي سدت فجوة غياب أبي. كنت خائفة من أن أصحو ذات يوم على عدم وجودها. أرقتني فكرة الفقدان أكثر مما أرقتني مشكلة الخجل من التأتأة، كانت مخاوفي تكبر معي وتترك أثرها على كلامي وشخصيتي، كنت هشة، ضعيفة مرتبكة حين لا يوجد أحد من عائلتي إلى جانبي في أي شأن، لا أستطيع أن أخطو خطوة من دونهم.

كان غياب آمال يزعجني ويشعرني بالضعف أما وجودها فيجعلني أفضل، ما أحتاجه هو سقف الحماية المتين في مجتمع الناس.

كنت ألتفت إلى بيتهم كلما عدنا مساءً للفويهات، علَّني أرى ضوءًا يدلني على عودتهم بشكل مفاجئ. ألتفت في الصباح كذلك عندما نخرج إلى المدرسة، ثم صرت أقترب من البيت لأرى أكثر، فالضوء ليس إشارة حقيقية على وجود ما أبحث عنه، فلربما كان عاطلًا أو مقطوعًا. كنت أبحث في هيئة الڤيلا عن إشارة أخرى أوضح تجعلني أستدير حول الڤيلا كاملة بينما أمي تنتظرني في السيارة مناديةً:

- هيا اركبي لا يوجد أحد، لم يعودوا بعد.

ويسخر إخوتي مني متندرين:

- تطوف حول الڤيلا وكأنها تطوف حول الكعبة.

بدأنا نتكلم أنا وتوأمي عن الأشياء التي نشتاقها ونريد أن تعود إلى حياتنا ويستمر وجودها فيها. حتى الحكايات التي كان يرويها أيوب ومروان وكانت تخيفنا وتزعج نومنا، صرنا نشتاق إليها في ليالي جليانة عندما يشتد المرض بجدي ونبيت هناك.

كنا نشتاق إلى الفويهات إذا ما صرنا في جليانة ونشتاق إلى جليانة إذا ما عدنا إلى الفويهات وكأن المشاعر لا تنبت إلا عند التباعد.

أما أختي أمينة فكانت مراهقة تشتاق إلى شيء آخر تستطيع أن تبذره في سماعة الهاتف التي تمسك بها لساعات طويلة، وما كانت أمي لتلتفت إلى مكالماتها الطويلة مع صديقاتها لو أن عماتي لم يبررن تغيبهن عن رعاية أبيهن بأن هاتف البيت مشغول على الدوام.

- انتبهي لابنتك، فهي مراهقة وفي يدها التلفون دون رقيب أو حسيب.

كل واحد منا اشتاق إلى شيء ناسب عمره ومزاجه وخياله، جليانة البحر والنسائم العليلة ودفء الجوار حركت فينا ذلك، فتحت أعيننا على بعض المسائل التي لا مناص منها في الحياة.

كانت البيوت المطلة على البحر تشبه شرفات لليابسة على الماء وكانت شوارع جليانة المنخورة بالتعرية وأبواب بيوتها الصدئة ورائحة سمك البنكينة وتعرج دروبها الملتحمة بشوارع بنغازي العتيقة مادة مسكرة تدفعني إلى الحب ويدفعني الحب إلى الكلام ويدفعني الكلام إلى التخلص من تأتأتي وانطوائي.

كانت أمي تصطحب جدي الذي يعينه أيوب على المشي، وتحمل أمينة سلة المرطبات والكعك وترمس الشاي الأحمر بالنعناع لنجلس عند الرصيف البحري ونقابل البحر وجهًا لوجه، يدخن جدي غليونه ويغير مزاجه ونمرح نحن قربه.

كان محبًّا للجلوس ومشاهدة الأمواج وتبادل الأحاديث مع أمي ومعنا وكانت أمينة محبة لقراءة الروايات الرومانسية تنفرد بإحدى روايات إحسان عبد القدوس وتغرق في عالمها الخاص، يبتسم جدي وينصح بعدم إزعاجها، بينما ألعب أنا وشقيقتي وبنات الجيران لعبة العرائس أو النقيزة أو الغميضة.

أحيانًا يقوم جدي بإلهائنا عن أمينة بلعب الخداع البصري أو

بتحفيزي لإرسال رسائل صوتية في قنينة لعرائس البحر، أخبرها فيها عن كل ما أرغب. ثم أسد القنينة جيدًا وأقذف بها إلى الماء. في الحقيقة دفعني جدي إلى التحرر من مشكلتي بطريقة لطيفة لم أتبينها في حينه، كان يعرض عليَّ المساعدة في صياغة الرسالة قائلًا: أخبريها بأن أيوب والصبيان يلعبون الكرة قريبًا منا، وأننا نتنسم نسيم البحر اللطيف وما جئننا لصيدها أو أذيتها، أخبريها عن الكعك وعن الديبلس، والمارثا، والخورطة، والظولماسا[1].

أخبريها بأن جدك العجوز يبلغها السلام، خبريها عن مدرستك وصديقاتك، لا تخبريها أشياء سيئة عنا كي لا تنفر منا ومن بحرنا، بحرنا جميل ونقي، ادعيها دائمًا إلى السباحة فيه، وادعيها كذلك إلى بحر سوسة الخلاب، لكن لا تذكري لها حادثة غرق مصطفينو القريتلي زوج أتريا حتى لا تحزن مثل أتريا.

احكي لها عن رحلتكم اليومية من الفويهات إلى المدرسة ثم إلى جليانة ثم الفويهات، انقلي إليها ما ترينه في الطريق وما يحدث في يومك وما تعلمته في المدرسة.

كان جدي يملؤني بالأحاديث حتى تحولت إلى جامعة قنينات من شاطئ البحر، اعتقادًا مني أن الحورية ردتها لي مملوءة بالكلام. أعدو بها إليه فيصطنع الدهشة وصعوبة فتح القنينة من المرة الأولى وإظهار الاهتمام عند الاستماع إلى ما في داخلها. كانت هيئته توحي

(١) أطعمة وحلويات يونانية الأصل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بأنه يسمع شيئًا ذا أهمية، يهز رأسه، يرمش عينيه، يضحك، يكشر، أحيانًا يبدو عليه التأثر، وأحيانًا يترنم وكأنه سمع أغنية يحبها.

كان يجيد ترجمة لغة أخرى عابرة للبحار، أخبرني بأشياء كثيرة قالتها له الحورية أو قالتها لطفلة لا تعي أنها تعاني من خلل في الكلام، طفلة ستبارح طفولتها إلى حيث تأخذ الأشياء اللطيفة في الخفوت وتتلاشى الدهشة تدريجيًّا أمام صلافة الواقع ويحط حزن متفاوت الأبعاد مكانها.

طفلة سينبذها الناس بسبب التأتأة ولن تكون مرغوبة للزواج في مجتمع لا يرى نقصه وينشد كمال الآخرين.

سألني جدي ذات ليلة بينما كنا نتحدث قبل النوم عما إذا همست للحورية بسر ولم أخبره إياه فأجبته: كلا.

في الحقيقة كان هناك سر لم يغادر قلبي!

الليل في بنغازي يبدأ من ليبيا

كان أيوب يدرب مروان على عزف إحدى أغنيات فرقة «Boney M» على قيثارته. وأنا وأختي غير بعيد منهما، نحفر أخدودًا في الأرض لإنقاذ النمل في الباحة الأمامية للبيت، توقفت أختي للحظات فركت عينيها ثم فتحتهما باتساع ثم فركتهما للحظة وهمست لي بثقل: مروان سيموت مقتولًا!

ارتعبت من خيالها الغريب المخيف، ونظرت إلى مروان المبتهج بالعزف على القيثارة وقلت منتفضة ضدها: لا تقولي أشياء سيئة عنه، إننا نحبه مثل أيوب.

فقالت: لذلك سنبكي طويلًا حين يموت.

هددتها أن أخبر أمي بأنها لم تستجب لتحذيراتها وتتوقف عن الكذب. فخافت وتمسحت بي متوسلة: خلص.. لا تخبري أحدًا، أنا أكذب.. أنا أكذب حقًّا.

وأغلقت عينيها وشددت في إغلاقهما متمتمة:

- سأحاول ألا أكذب مجددًا. ساعدني يارب، ساعدني يارب.

حرصت أمي على إبقاء أيوب تحت عينيها سواء في دروسه الخصوصية أو لهوه مع صديقه. كان كثير الشغف بالسيارات وكرة القدم، وقد شاركه صديقه اهتمامه ذاك. وكانت سيارة مروان هي موضع تجارب الاثنين أمام الڤيلا، أبدى أيوب حماسًا في غسلها ونفخ إطاراتها وتلميعها وتشغيل الأغاني في مسجلها بصوت عالٍ، كنا نسمعها نحن وبيوت أعمامي والأشجار والطيور وربما حتى القادم إلينا قبل أن يلوح لنا ونلوح له. كان أيوب سعيدًا بكونه ميكانيكيًّا أكثر من سعادته بكونه طالبًا في ثانوية صلاح الدين قسم العلمي، وكان عليه التزود بالدروس الخصوصية ليتمكن من فهم المعلقات والنحو والصرف، لا ليتمكن من نظم بيت من الشعر، بل ليدخل الجامعة وتتنفس أمي الصعداء.

وليبقى على عينها، وفرت له أمي الفضاء، استقبلت صديقه ورحبت بوجوده بل وفرت له سريرًا كذلك ليدرس مع أيوب وينام في بيتنا فترة الامتحانات.

كانت أعمال أمي في الحياكة والتطريز تسير على ما يرام، لكنها تعمل كثيرًا في تجهيز ملابس الأعراس التي يطلبها الزبائن من دكانة جدي. كانت حريصة على تعليمنا وتوفير جميع متطلباتنا، وكان أيوب الوحيد المتعثر بيننا في دراسته بسبب عدم محبته للمدرسة وكراهيته لمادة اللغة العربية والنحو والصرف.

فعلت أمي وجدي ما بوسعهما من أجل أن ينجح ويجتاز الثانوية

العامة فخصصا له مدرسًا للغة العربية استفاد المدرس منا أكثر مما استفاد منه أيوب، كان الأستاذ «سعيد بيومي سعيد» صبورًا حليمًا وعلى الرغم من أنه رجل يجب أن يتقاعد فإنه أصر على العمل بروح فتية لم يعد يملكها حتى من يصغرونه سنًّا. كان يصر على المجيء إلى بيتنا سيرًا على الأقدام من حي الماجوري إلى الفويهات، أحيانًا يمر به أحدهم في سيارة وهو يقطع طرق الفويهات المتربة فيقله إلى أقرب طريق عمومية، وأحيانًا تقف أمام بيتنا عربة غريبة فنعرف أنها تقل الأستاذ.

وقد استغرب أحدهم ذات مرة وسأل الأستاذ:

- معقول!! أنت تدرس في الخلاء.

- نعم، لأ هيَّه مش خلاء ولا حاجة.

- ربي يعطيك الصحة يا أستاذ، فعلًا لقمة العيش صعبة.

- هيَّه مش سهله بس مش وسخة كمان. ده المكان حتة من الجنة.

ضحك السائق ضحكة عالية وقال للأستاذ كلمة لم يفهمها لذلك استبدل الأستاذ الأماكن مع أيوب ليشرحها له، ولم يقصر أيوب فشرح له كلمة «مطرشق»[1] شرحًا مبالغًا فيه حتى إن الأستاذ سعيد قال له:

- طيب فهمت مش كده بقا الشرح. دا أقرب للشتيمة.

---

(١) مجنون.

كان الأستاذ يصلنا متأبطًا حقيبته بشكل دائم، إلا أنه في الشتاء يكون مرتعدًا من البرد موحل الحذاء والبنطلون. وفي بقية الفصول لاهثًا يطلب جرعة ماء.

تسرع أمي إليه بشيء بارد يلطف لهيبه أو شيء ساخن يدفئ جوفه. وقد اعتدنا أن أمينة هي من تطلق نداء الاستغاثة من أجله.

- بسرعة يا أمي الأستاذ يوشك أن يموت.

وكان يجيد شكرهما ومدحهما طوال السنوات التي عرفناه فيها ثم وصل شكره إلى أختي أمينة لما بدأت تعلم الطهي وصناعة الحلويات تحفيزًا للجانب الخامل من شخصيتها والذي قد يتسبب في تأخير زواجها، أرادت أمينة أن تتزوج وتصبح سيدة بيت وزوج وأطفال، لم نعرف لها اهتمامًا آخر وقد عاب عليها جدي مرارًا طموحها الذي يشبه طموح نعجة إلى التكاثر: إن الزواج ليس مشروعًا يكرس له المرء حياته، إنه مرحلة من عمر الإنسان لا بد أن تنقضي بهذا الشكل لكن لا ينبغي للزواج أن يكون غاية الإنسان العاقل من الحياة.

كان الأستاذ سعيد صارمًا خلال الدروس وكنا نخشاه باستثناء أيوب الذي كرهه كراهيته للغة العربية التي يدرسها، مختلقًا الفرص للتهرب منه، حتى إن الأستاذ طارده أحيانًا بمقشة الجنينة المتوفرة دائمًا قرب باب الڤيلا أو طلب منا إحضار مكنسة من الداخل لملاحقة أيوب وإجباره على الدروس.

ذات مرة تسلق أيوب سطح الڤيلا وهرب، فلحق به الأستاذ

لكنه لم يواصل المطاردة بسبب تمزق بنطاله. هاج الأستاذ متوعدًا أيوب بأشد العقاب، وتدخلت أمي برتق البنطال بعد أن أعطت الأستاذ جلابية كانت لأبي مكث فيها طوال العشية إلى أن انتهت من العثور على سلك مقارب للون البنطال البازيلائي.

ونظرًا إلى أن ترقيع القديم أصعب من البدء في خياطة الجديد، نصحت أمي الأستاذ سعيد أكثر مما نبهت أيوب إلى عدم تكرار مغامرات تسلق السطح من أجل اللغة العربية وقواعدها.

- لا تطارد هذا الولد المشاكس يا أستاذ بيومي بيومي حتى لا تخسر جميع ملابسك.

فصححت لها أنا وأختي اسمه:

- اسمه أستاذ سعيد بيومي سعيد وليس بيومي بيومي.

وكانت أول مرة أسبق فيها توأمي بالكلام!

زارتنا أبي تهاني فوجدت الأستاذ بيومي جالسًا في جلابية أبي فاستغربت وتساءلت:

- ماذا يفعل بهذه الملابس، اليوم ليس جمعة؟!

- تمزق بنطاله يا أبي.

برطمت أبي تهاني:

- إنه بحاجة إلى ثياب جديدة غير التي تخرَّج فيها من كلية دار المعلمين، لكن لماذا كلما أعطيناه ثيابًا جديدة لا يلبسها؟

قال أيوب: يبيعها في سوق الفندق.

أمي: اخرس، وما الذي ذهب بك إلى هناك؟

أيوب: شاهده زملائي في المدرسة يفعل ذلك.

مروان: الأستاذ هكذا يا خالتي، أعطِه أي شيء وسأعود لك به بعد يومين من سوق الفندق.

كان الأستاذ يسكن حي الماجوري، ويصر دائمًا على الحضور باكرًا والانصراف قبل مغيب الشمس، كان يردد لأمي ما بدا أنها تعرفه: «الليل في بنغازي يبدأ من الماجوري» فالحي يعاني من انعدام إنارة شوارعه وممارسة اللصوص والكلاب حياتهم في ظلامه المبكر. ذات يوم حضر الأستاذ وجلس تحت شجرة الجهنمية، لم يجد أثرًا لأيوب ولا لمروان، استطلع من ڤيرندا المطبخ فلم يرَ أمينة كذلك تخلط أشياء كعادتها لتعدَّ شيئًا.

ذهب يتفيأ الجهنمية حتى سمع صوت سيارة تقترب منه، فقام وشاهد، كانت سيارتنا الڤولڤو، نزلت منها أمي مفزوعة مرتبكة. هبَّ الأستاذ متسائلًا:

- فيه إيه يا مدام نجاة؟ فيه إيه يامدام؟

أخبرته أمي أن أيوب لم يعد من المدرسة في وقته المعتاد، فاستغربت غيبته وذهبت إلى المدرسة لكني وجدتها مغلقة وأمامها أولياء أمور يسألون عن أولادهم كذلك، لم يعد أحد من المدرسة اليوم.

قرر الأستاذ عدم تركنا وحدنا، قرر الذهاب معنا إلى بيت

جدي، كان جدي في قيلولته، خرج بقميصه الداخلي متفاجئًا، أبلغه الأستاذ وأبلغ الجيران بالمرة أن أيوب لم يرجع من المدرسة ونادى أحد الجيران ممن لديهم أولاد يدرسون في ثانوية صلاح الدين، فأخرج أحدهم رأسه من البلكونه ورد عليه: كلا لم يعد اليوم من صلاح الدين أحد!

ترك الجار الحديث من البلكونه وجاء من الباب وهمس في أذن جدي شيئًا ارتفع بسببه حاجبا العجوز الكثان الهابطان على نصف عينيه، وعلى وقع ما سمعه ارتدى على الفور ثيابه وقال لأمي والأستاذ سعيد أن يأتيا معه.

- أين سنذهب يا عمي؟

- هناك أخبار مسربة عن أن التلاميذ في الثانويات أُخذوا إلى طرابلس في زيارة مفاجئة.

- طرابلس!!

قالت أمي باستغراب، وتساءل الأستاذ سعيد أيضًا:

- يعملوا إيه في طرابلس؟

- لا أدري.. هذه البلاد تفاجئك على الدوام.

- أين سنمضي الآن؟ لماذا لم يعلمونا؟

- سنفهم بعد قليل، هلا أخذتني إلى بيت أهل مروان، هل تعرفين أين يقيمون؟

- نعم، إنهم يسكنون إحدى عمارات شارع جمال عبد الناصر قريبًا من هنا.

كان والد مروان طيارًا في سلاح الجو في قاعدة بنينا العسكرية، وكان جدي كابتن من نوع آخر يجيد الالتفاف والمناورة في اللحظة المناسبة.

- لا بد أن نختصر الأمر ونذهب إلى شخص من الدولة، فغياب الأولاد عن بيوتهم وراءه الدولة.

لم يكن يومًا مناسبًا لتعطل فيه الڤولڤو في منتصف شارع جمال قبل بلوغ العمارة التي يسكنها أهل مروان لكنها عطلت، واضطر الأستاذ سعيد بيومي إلى إنزال حقيبته من تحت إبطه والنزول لدفع السيارة مع جدي وبعض الكرام من عابري الطريق.

في شقة أهل مروان تبينت طوية الأمر، أطلقت أمي وابلًا من الدموع، وجف حلق جدي ولم يتحكم في ارتعاش يديه وشفتيه، مسح له الطيار «جاب الله الأحرش» جبينه وأجلسه:

- ارتح يا حاج، اهدأ... سنعيدهم بإذن الله، ابني كذلك لم يعد.

كرر ذلك ممسكًا بكتفي جدي الذي قال له: دعني أذهب إلى الحمام من فضلك.

كانت أم مروان تجفف دموعها بصمت وتجلب كاسات الماء والمناديل لنفسها وللجميع، كما لعب حضور الأستاذ سعيد دورًا

إيجابيًّا داعمًا منذ أن استبدل بمشاركتهم الحديث السياسي تلاوة آيات مختارة من القرآن الكريم تناسب الحدث:

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

بعد عدة اتصالات مغمغمة متمتمة أجراها والد مروان، كان يضع فيها السماعة من اتصال ليرفعها إلى آخر ثم آخر يحيله إلى آخر وهكذا، كانت جميع اتصالاته بأشخاص تحمي القبيلة ظهورهم وظهره.

كلما سأله جدي: هل تثق بالشخص الذي تهاتفه بينما التلفونات مراقبة؟ أجاب: ابن عمي مباشرة يا حاج، اطمئن.. ابن خال ابن عمي يا حاج اطمئن، من أبناء عمومتنا يا حاج اطمئن، ابن عم أبناء عمومتنا وهو من الشرق حتى وإن كان يقيم في طرابلس، اطمئن يا حاج.

بعد جولة من الاتصالات تبين أن التلاميذ أخذوا من مدارسهم في عموم ليبيا في نفس الوقت تحت نفس الكذبة «حضور عرض عسكري في طرابلس» إلا أنه تم نقلهم إلى معسكرات التدريب في عمق الصحراء الليبية استعدادًا لنقلهم إلى جبهات القتال في تشاد!

لا مقدرة لأمي على تحمل خسارة وحيدها في حرب لا علاقة لها بها. أخذت تنوح متجاوزة البكاء العادي إلى البكاء الهستيري، ثم سقطت أرضًا فشكل سقوطها عبئًا إضافيًّا على جدي الذي كان عليه التفكير في ثلاثة حلول لثلاث مشاكل مختلفة في الوقت نفسه: أيوب، أمي، والڤولڤو!

عندما انتبهت أمي وجدت نفسها في بيتنا والليل قد حط على بنغازي ثقيلًا حزينًا ولم يبدأ من الماجوري كعادته، بل بدأ من ليبيا. باتت تنوح، يا وحيدي، يا ابني، يا خسارتي، يا يتيمي.

لم تنسَ في زحمة أحزانها أن تسأل عن الأستاذ سعيد بيومي: هل قام أحد ما بإيصاله إلى منزله أم أنه سيكون وجبة سائغة لكلاب الماجوري الجائعة.

قال جدي والنعاس يتخبطه: بارك الله في الكابتن جاب الله الأحرش، سار على الأرض أكثر مما طار في السماء وهو يعيدنا إلى أماكننا، أوصلنا وأوصل الأستاذ كذلك.

لم تطفأ أضواء بيتنا تلك الليلة والليالي التي غاب فيها أيوب عن البيت، فليلنا غريب ونهارنا ثقيل ملبد بالهواجس، وأمي ونحن لا نكف عن البكاء، وجدي بالكاد يجد ريقه وهو يذهب ويجيء، ويتكلم في التلفون حينًا وحينًا يركب سيارته ويذهب ليدق باب أحدهم، حتى جاء بالبشارة لأمي وأخبرها:

- هناك أمل في استعادته بما أنه وحيد عائلته. وحيد العائلة لن يؤخذ للحرب إذا عرفنا كيف نوصل أوراقنا الثبوتية إلى الجهات العسكرية المسؤولة.

جنَّد جدي جميع معارفه وعلاقاته، واتصل بوالد مروان بما أنه الأقرب إلى الجهة المسؤولة بجميع من يعرفهم حتى عاد الفتيان في نهاية الأمر ووصلا بنغازي في حال يرثى لها من معسكر إلى معسكر،

تم التحفظ عليهما في معسكر السابع من إبريل وذهب جدي ووالد مروان وتسلماهما.

نذرت أمي أن توزع طعامًا على الفقراء فهم كثر بسبب سياسة البلاد الاشتراكية وعلى اليتامى والمساكين فهم أكثر بسبب قرار البلاد الدخول في حرب مع الجيران. لكن أخي أيوب لم يعد منذ أن عاد بطعام أو من دون طعام، كنا نجده جالسًا القرفصاء في غرفته يبكي في أي وقت، لم يذهب إلى المدرسة، وفقد الأستاذ سعيد الأمل في عودة الدروس الخصوصية، لم تستطع أمي إجباره على الذهاب، تغيرت الرائحة والروتين في يومنا، تعرض أيوب لانتكاسة نفسية كبيرة كسرته من الداخل، لم يرممه وجود جدي وأمزا مسعود وأمزا خالد، كنا نسمع نحيبه الخجول في غرفته المقفلة عليه، فلا نحرجه بالدخول أو الاقتراب منه، ليس إلا أمي التي تحمل له الطعام والشراب وتتبادل معه الدموع والكلام، جدي وعماتي قالوا: دعوه يبكي حتى يفرج عمّا بنفسه، فيما قلقت أمي عليه من الكآبة. إلى أن كان يوم جلست فيه إلى جانبه على الأرض وظلت تبكي جميع أحزانها دفعة واحدة، فلما صار على مقربة من حزنها أدرك تأثير غياب أبي عليها وعلينا.

- أخبرني ما الذي يوجعك وقد عدت سالمًا؟

- يوجعني أني بلا أب أنا والأولاد الذين تركوا في المعسكر لأن أهلهم فقراء لا واسطة لديهم أو لأنهم أيتام من دون آباء مثلي، يحزنني تخيل مصيرهم، سيموتون في الصحراء التي لا

يعرفونها حتى في بلادنا فكيف بتشاد. يحزنني أن صورتهم لا تغيب عن عيني عندما أريد أن أنام، يحزنني أن أحد الضباط صفعني على وجهي بلا سبب وأنا أمتثل للتدريب، بل إنه داسني بقدميه على الأرض حتى تبولت على نفسي، وأمر الأولاد أن يسخروا مني. خجلت من نفسي جدًّا لأن ذلك قد حدث لي أمام نصف ليبيا. إذا كنت بوالًا كما يقول، فلماذا يرسلونني لأحارب من أجلهم وأنتصر لهم؟ لماذا لم يذهبوا هم ليحاربوا ويتركوننا وشأننا؟

صار ديدن أمي أن تضمه وتواسيه وتبكي معه وتدعمه ليتجاوز محنته ويرجع إلى حياته وحيويته السابقة. قيادة السيارة بسرعة، الموسيقى العالية المنبعثة من مسجل السيارة، القيثارة، كرة القدم، بوب مارلي، أَبَّا، بوني أم، وألڤيس بريسلي والمزيد من أفلام الويسترن.

- كرهت حياتي والأشياء التي أحبها لم أعد أحبها بسببكم، المدرسة مجرد قواعد نحو عصية، وبروس لي خدعة سينمائية، وبوب مارلي تمرد ومات دون أن يتغير شيء. وجليانة سجن مفتوح يطاردنا فيه حارس الرمل الكذوب. كرهت حياتي والأشياء التي أحبها، بلاد كلها نكد في نكد.

لم يعد شيء كما كان، أراد أيوب أن يغدو رجلًا بسرعة ويذهب إلى حيث يصنع الرجال لا أن يستمر في محاولات اجتياز عقبة النحو والصرف العربي، كحصان منافسة اجتياز الحواجز، ما

عادت تهمه المدرسة التي قادته إلى الموت والإذلال، ما عاد يثق بأنها مكان يعطي المعرفة أو يولدها، قال لأمي إنه لن يستمر في أخذ مصروفه منها ومن جدي وإنه سيبحث عن عمل وسيكون رجل البيت حقًّا، وسيحميها ويحمينا، ثم في يوم آخر قال لها إنه يريد الهجرة إلى أمريكا مثل أولاد أمزا مسعود ليكون نفسه، ثم أخبرها أن من أنقذه من الذهاب إلى الحرب ليس تلفونات والد مروان ولا الأبواب التي طرقها جدي فوجمت أمي وعجزت عن تفسير ما سمعته منه.

- هل تعلمين يا أمي أن الشخص الذي أنقذني من صعود المركبات العسكرية التي أقلت الأولاد لقطاع أوزو، شخص رأيته هنا في بنغازي من قبل حتى وإن ادعى أنه لم يعرفني؟!

جمدت أمي أمام الموقد حتى تخثر منها السحلب على النار.

- ماذا؟

- هل تتذكرين الشحاذ الذي كان يجلس تحت الأشجار في طريق الصنبور؟

- نعم أذكره.

- إنه هو نفسه.

- أنت تتخيل فقط!

- أقسم بالله العظيم إنه هو، وإنني أستطيع التعرف عليه من بين ألف وجه ووجه.

لم نصدق رواية أيوب عن الشحاذ كلما رواها، بالرغم من أنه يقسم جازمًا إنه هو الشخص الذي رآه في المعسكر وكان يحمل رتبة على كتفيه، وقد قبض عليه بذراعه بينما كان في طابور المجندين.

قال: كان يحمل كشفًا بالأسماء، ناداني بصوت غاضب أو يدَّعي الغضب.. أنت.. يا أنت، فلما التفت إليه، طلب مني الوقوف جانبًا، لن أنسى وجهه يا أمي ولا وجه ذاك العريف الذي ضربني وأهانني ما حييت ولا صديقي محمد الفاضلي الذي ذهب ولم يعد.

أمينة وأيوب

ترك أيوب المدرسة ورافق جدي إلى الدكان، سعيدًا بعالمه الجديد، متحررًا من هيمنة النحو والصرف والمعلقات على مستقبله، عهد إليه جدي بتحصيل إيجار الشقة التي لم يسرقها مكتريها من شقق عمارته ريثما يعثر له على عمل.

كانت وتيرة الحياة رتيبة باهتة. تعددت الأزمات التي أنكرتها الصحف والتلفزيون (لا يوجد سوى صحف الدولة وتلفزيونها) تماديًا في تغييب الوعي بأن النموذج الذي باتت عليه بلادنا وحياتنا هو النعيم الأرضي المفقود، كانت الحياة ثورية في كل نواحيها من دون سبب أو داعٍ.

حورب كل ما هو جميل ونظيف، وعُثر كل ماهو يسير وسهل. ضربت الأنشطة التجارية الحرة فانتشر الإفلاس، وأغلقت محال سوق الجريد تدريجاً، منها محل جدي جراء الكساد الكبير، قاد ذلك إلى تآكل المدخرات رويدًا رويدًا، وتزايد الهموم التي ضيقت على الناس معاشهم، صارت الحياة عبئًا ثقيلًا، والعوز حربًا مضافة إلى

حرب أخذت الرجال والأطفال من أعمالهم ومدارسهم وأعادتهم جثثًا إلى القبور.

نال كل بيت حصته من الأحزان العمومية. تمزقت الأواصر والروابط بسبب انتشار الوشاية كأسلوب عيش، كان لها ثمن مغرٍ، وكانت في سبيلها أن تصبح طريقة كثيرين للحصول على المال. وحل إذلال غريب مع سياسة الجمعيات الاستهلاكية والحصص التموينية المقدرة لكل أسرة، سحقت البقية الباقية من كرامة الإنسان وفتحت أبواب السحت والجريمة. كانت سياسة تقشف لا تتوافق ومقدرات البلد الاقتصادية، أظهرت جوهر الناس الحقيقي خلال أعوام التأجيج والكساد.

كان جدي يقول إن ليبيا تشبه مريض السرطان، حتى العلاج الكيماوي الذي ينشد إبقاءه حيًّا ينزع منه الحياة!

كان في غاية الهم الذي غالب إظهاره لنا، أما أمي فقد تآكلت فعليًّا بالصبر حتى غدا الحزن تقسيمة رئيسية من تقاسيم وجهها.

لولا بعض الإعانات الخارجية من أمزا مسعود ما استطعنا الصمود. بعض الدولارات المهربة في الألبسة والأحذية، تجد طريقها حالًا إلى تجار الذهب، تنتعش بها العائلات لبعض الوقت ثم تعود إلى الضنك القديم.

كنا أمام سلع محددة، بضع علب حليب قد تحضر وقد تختفي في الحصة الشهرية، علب طماطم معجون، قنينات من الزيت النباتي،

وبضعة كيلوات من الأرز والمكرونة والدقيق. لا فاكهة لا خضار لا أشياء إضافية. من أراد الحصول على المزيد يذهب إلى السوق السوداء الذي تسيطر عليها مافيا من العسكر.

ظهرت طبقة جديدة من البحبوحة المشكوك في مصدرها. لكنها ظهرت وطفت في المجتمع كما تطفو الطحالب الخضراء على الماء الراكد. ارتبط وجودها بالركود الذي دافعت عنه بكل السبل دفاعًا عن البقاء.

كانت السلع تغادر الأسواق العامة والجمعيات الاستهلاكية ليلًا لتوضع في يد طبقة الطفيليات الخضراء ثم تضرم النار في الأسواق والجمعيات لإخفاء السرقات، كانت الحرائق إستراتيجية ناجعة لطمس الأدلة، تضرم في الليل لضمان عدم إطفائها، وفي الصباح يتم اتهام الماس الكهربائي، تلك كانت دورة حياة النار ودورة انقراض الأسواق والمنشآت العامة.

لم يبقَ من عشرية الثمنينيات السوداء، إلا طفرة الأثرياء الجدد الذين تسببت في ظهورهم والعبيد الذين شكلوا طوابير الخزي والذل وعقدة إستوكهولم المحفوفة بالعُقد.

كان زمنًا تقشفيًّا من دون أسباب، شديد الضمور والادعاء، شهد إقبالًا على الطهرانية، وزيادة في أعداد الحجيج إلى الأراضي المقدسة وارتفاعًا في بورصة التدين كان من نتائج تلك الرحلات ازدهار التجارة الدينية واستيراد التشدد الديني. حتى أن السنة التي ذهب فيها جدي للعمرة مصطحبًا أيوب وأمينة كان معه في الطائرة

معظم لصوص المال العام في بنغازي، الذين عادوا من هناك بالبضائع وبلقب حاج صك براءة معمول به.

كان مطلوبًا منا في المدارس أن نكره نصف الكرة الأرضية لأسباب تتعلق بالنظام، وحين نعود إلى البيوت يتولانا بثه التلفزيوني، كانت الحياة في ليبيا عقابًا، ومن نجوا من تلك المرحلة الكئيبة القبيحة نجوا بفضل عائلات رشيدة، سارت قربَ الجدار دون أن تبللها المزاريب.

لترميم بقائنا خيَّر جدي وأمي ما بين تأجير شقته في جليانه أو تأجير بيتنا في الفويهات، لكن لمن؟ ولا شركات أجنبية في البلاد والمواطن إذا اكترى مكانًا تملَّكه وإذا قاد سيارة سلبها وإذا أعجبه شيء صار من حقه؟ أما المُجنَّس عربيًّا كان أو إفريقيًّا فأشد وأدهى لأنه ما أتانا إلا هاربًا من جوع وفارًّا من خوف لذلك من البديهي أن يتعامل مع كل ما يحصل عليه بمنطق الغنيمة.

من سيكون قادرًا على الدفع شهريًّا من بين تلك الخردة البشرية الشرهه للنهب؟

بعد نبش طويل عثر جدي على موظف في القنصلية التركية اكترى الڤيلا وانتقلنا نحن للعيش مع جدي، فالله يخلق بعض الفجوات في السجون ليمرر أقداره.

رافق أيوب عائلة صديقه مروان في موسم «ترحيل الماشية» من طبرق إلى الحمادة الحمراء، رحلة طويلة لتتبع المراعي الوفيرة

من أقصى الشرق إلى الجنوب، ساعدنا في نقل حاجياتنا ثم غادر، تنفس جدي وأمي الصعداء فدورة المال عادت إلى حياتنا رغم الأزمة الاقتصادية الخانقة، وكانت أختي أمينة أكثر المحزونين من ترك الڤيلا، وفقدان غرفتها التي مثلت لها العالم البديل، كانت كمن أبعد قسرًا. في شقة جدي صارت لنا غرفة واحدة ننام فيها مع أمي، وقد نذهب أنا وتوأمي للنوم في سرير جدي بينما أفردت غرفة المعيشة لأيوب.

كان جدي يُمنِّي أمينة بعودة قريبة بمجرد أن تنصلح الأحوال المالية للعائلة، وكانت أمينة لا تصدق أن شيئًا جميلًا وسعيدًا سيحدث لاحقًا إذا ما أخذ الوضع في الانحدار، فأحاديث الأمل ما هي إلا أحاديث تظهرها المصاعب.

كان جدي منشغلًا بأمر أمينة وأيوب، خشي أن يأكل الحنق قلب أيوب الغاضب، وأن تتآكل أحلام أمينة. كانا شابين في عمر الأحلام.

ولأن الله وحده من يداوي الآلام فقد كان جدي بحاجة إلى ترميم نفسه التي تكالبت عليها الجراح وتضميد الحفيدين التائهين. أمينة كانت تقترب من إنكار وجود رب يساعد عبده في الأزمات، بل أضحت تسأل جدي عن رب لا يصنع سوى الأزمات ويتلذذ بتعذيب المخلوقات ويعد بالصبر على ما ابتلي العبد به ارضاءً لنزوته في التسلط والغرور، رب يرى كل ظلم ويصمت ما جدواه؟

رب لا يتدخل لإنقاذ الضحايا لا يختلف عن شيطان أخرس.

رأى جدي أن يأخذ أمينة إلى الله حتى تستعيد الثقة به. وتخرج من حزنها الروحي الشديد. أمينة كانت غاضبة من الله وحزينة بسبب ذلك الغضب.

ولدت فكرة زيارة البقاع المقدسة على طاولة المطبخ وأخذت تكبر عند كل اجتماع للطعام حتى أخذتهم إلى المطار وسافرت بهم. ودعتهم أمي وعماتي باكيات، وسكبن الماء والدموع وراءهم كغدير.

- ادعوا لأبيكم.. لا تنسوه في الدعاء.

كان ذلك أول فراق عائلي أعيشه، ترك فراغًا في الشقة، قالت أمي إنهم سيغيبون شهرًا ثم سيعودون كأنما خلقوا من جديد، أطهارًا من كل ما اعتراهم من حزن ومخاوف وشكوك. شجعتنا تلك السفرة أنا وتوأمي على توسيع خيالنا مع صديقاتنا في المدرسة والشارع، فقصت أختي الأقاصيص للبنات عن حياتنا وهن مدهوشات. البارحة أكلنا على العشاء كذا وعلى الغداء كذا، وفي عطلة الجمعة جلبت لنا عمتي موزًا وذهبنا في فسحة إلى الجبل الأخضر...

كنت مأخوذة بدهشتهن وكنت لا أكذب روايتها عندما يسألنني: هل حقًّا أكلتم موزًا؟ صفي لنا شكله؟

بينما في الواقع أحد أولاد عمتي لا يعرف ما الموز لأنه ولد في الحقبة الخالية من الفاكهة.

والواقع كذلك أن أمي كانت تذهب إلى بنكينة الأسماك كي تشتري سمكًا تصنع منه التونة منزليًا من أجل شطائر المدرسة التي تراوحت ما بين البيض والتونة حتى كرهناهما.

كانت تجلبه من البنكينة وتطبخه على البخار ليلًا أو حين لا يكون أيوب بالمنزل حتى لا يشتم رائحة الزنخ ويتقيأ. استغلت أمي غيابه في العمرة وبخرت سلطانيات كبيرة حفظتها في المجمدة. قالت له ذلك في اتصال هاتفي وحيد وصلنا من هناك وقال لها إنهم بخير وأنهم سعداء بزيارة قبر النبي دونما قلق من مسألة أين سيقضي جدي حاجته.

صرنا نعد أيام الشهر يومًا بعد يوم لنستقبلهم من جديد.. اشتقت إلى إخواني وجدي حتى بكيت في درس مادة القراءة عندما تحدث عن الأسرة. الأسرة ما تعلق قلبي به صغيرةً وشق عليه فراقها كبيرةً. ازدانت الشقة بالشموع والزينة وجهزت أمي الكعك والمقروض والغريبة[١] واجتمعت عماتي لاستقبالهم وذهب أمزا خالد لاصطحابهم من المطار.

عادت أمينة في ملابس سوداء من رأسها إلى قدميها وعاد أيوب نحيلًا مُسمرًّا حليقًا في جلابية بيضاء وسروال قصير وعاد جدي تعبًا في ملابسه العربية وقد فقد شيئًا من وزنه وتدلت رمانتا خديه، وكانت بمعيتهم حقائب من الهدايا.

---

(١) حلويات تقليدية.

رأيت وأختي وبنات جيراننا الأراضي المقدسة لأول مرة من لعبة الكاميرا الصغيرة التي حصل عليها جميع أطفال العائلة.

كنا نضع أعيننا على الثقب الصغير فنرى صورًا غريبة لمكان سمعنا عنه كثيرًا من القصص المهيبة، وخيل إليَّ أن العيون التي تلصصنا بها من الثقوب الصغيرة على الأبواب والنوافذ سيغفر الله لها لمجرد أنها رأت بيته الحرام من ثقب الكاميرا الصغيرة.

تطور معنا الأمر لاحقًا فوضعت أختي ثمنًا لمن يريد المشاهدة لكي يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!

هكذا ذهبت معنا كاميرات الحج إلى المدرسة بشكل سري. وأقمنا بها تجارة مدرسية. كانت الأحاديث قد كثرت عن الدين، فاستغلت أختي الفرصة وقالت لي:

- حقائبنا رائحتها بيض وتونة، لنستبدل بها رائحة الحج.

وكان للأشياء الآتية من الأراضي المقدسة رائحة اعتقدنا أنها رائحة مكة. والحقيقة أنها رائحة البخور الذي جلبه جدي من هناك وكان مصنوعًا في الهند وبنغلاديش وباكستان وما مكه إلا سوق من الأسواق التي راج فيها.

عادت أمينة وأيوب شخصين تم التحكم في مراهقتهما، فالالتزام الأخلاقي تجاه رحلة روحية من ذلك النوع لاحق سلوكهما، وكانت أمينة أوفر قسطًا في ذلك من أيوب في تنامي عقدة الشعور بالذنب.

هرَّبت أمينة في حاجياتها بعض أشرطة الكاسيت لخطب شيوخ وأئمة من هناك، ما فعلته حماقة كانت لتودي بحياة جدي لو قبض عليها جمارك مطار بنينة. هرَّبتها جراء هوسها بالمواد المهربة وجراء ما فعلته تلك الخطب المتشددة بعقلها تكونت لديها مسؤولية أخلاقية تجاه كراهية غير المسلمين وبدأت أعراض العداء تظهر شيئًا فشيئًا، كرهت اللغة الإنجليزية والفرنسية لأنها لغة أعداء الله، وصولًا إلى مقاطعتها السلع المصنوعة في الغرب مناصرة للقضية الفلسطينية.

حتى وإن خلت السوق الليبية فعلًا من منتجات الغرب (كانت ليبيا مكبًّا لمنتجات أوروبا الشرقية أعوام الثمانينيات) كما فوجئنا بها تقاطع أكل الدجاج والطعام الذي يدخل فيه الدجاج تأثرًا بكلام الشيوخ الذين حرموا أكل لحوم الحيوانات والطيور المذبوحة في سلخانات حديثة لأن ذبحها غير إسلامي.

أضربت أمينة عن طعامنا لأنها لا تريد الأكل من حرام، كانت تشرح الأسباب بطريقة متشددة وجدي يحاول إقناعها بعدم الغلواء، ثم ملَّ جدالها وبدا عصبيًّا بعض الأحيان تجاهها. صار على أمي مواجهة ابن يحارب وجود السمك في البيت وابنة تحارب وجود الدجاج مع كثير من الجدل العقيم على طاولة الطعام، في النهاية توترت العلاقة بين الجالسين كلما كان هناك طعام أو كلام. وفقدنا عنصرًا مهمًّا في لقائنا حول مائدة واحدة. فقدنا وئامنا العائلي.

بقيت أنا وأختي رعايا مخلصين لدولة الأسواق العامة والجمعيات الاستهلاكية والدجاج الروماني المحقون بالهرمونات.

- إياكم أن تسمعوا لكلامها أو تنقلوه خارج البيت.. سنأكل ما نجده كي لا نموت وحسب.

أوصتنا أمي دائمًا بشأن أمينة التي زادت قائمة ممنوعاتها فقاطعت معجون الأسنان لأن الشركة المصنِّعة تدعم بناء المستوطنات الإسرائيلية في فلسطين واستعملت الملح الخشن لتنظيف أسنانها، ثم قاطعت الكاكاو والشكولاته (على ندرتها في السوق الموازي على خلفية استغلال شركات صناعة الشكولاته الأوروبية أطفالًا في إفريقيا لجني محصول الكاكاو) ثم امتنعت عن وضع المكياج في عرسها لأنها سمعت أن المكياج حرام ورفضت تنظيف حاجبيها لأن الله لعن النامصة والمتنمصة، وكانا كثيفين مقرونين كستنائيين ناعمين كحجابي أبي رحمه الله.

استمرت حملة أمينة في المقاطعة فشملت منتجات الحلويات والمرطبات، لأنها مصنوعة في الغرب فلربما احتوت على كحول أو شحم خنزير، ولأنها مواد مصنعة لصالح الشرق الأوسط لن يكتب عليها خالية من الخنزير أو الكحول، فالجميع في نظرها يتآمر على العالم الإسلامي.

استمرت في خيارها حتى قاطعت مشاهدة الأفلام وسماع الأغاني والغسل بالشامبو ولبس الملون وتحولت إلى كتلة من القماش الأسود لا يبين منها إلا وجهها ولا يضوع منها إلا رائحة صابون السوسي(١).

---

(١) صابون تقليدي.

صار ديدنها أن تنظف أكثر فتنازلت في سبيل الفوز بالجنة والنجاة من النار عن الكثير ثم تنازلت عن الكلام ودخلت في صمت مريب وكأنها تقتطع حصتها من الحياة لأجل آخرين لا حياة لهم.

مارست الصمت الطوعي على نفسها وسعت إلى المزيد منه، أرادت أن تسكت عن كل الأشياء ولا تفتح فمها إلا عند الضرورة القصوى ففكرة تحاشي دخول النار أكلت روحها.

غلب على ردودها نعم ولا، ووجدت في هز رأسها راحة وتربت لديها القدرة على الامتناع عن الإحساس بأي شيء، حتى صارت تضع يدها في الماء المثلج أو على سطح ساخن فلا تشعر، كأنها بذلك النأي الاختياري جهزت نفسها وأفرغتها لمشاعر تحمل أكبر فالمؤمن دائمًا مصاب وديمومة المصائب لا تنتهي من حياة المؤمنين. هكذا أصيبت أمينة أختي بالصمت وغرقت فيه كلما غرق المجتمع من حولها في الحياة ومشاكلها.

ظلت تحافظ على صلاتها وتقتنص وقت الحج والعمرة كل عام كهدف أسمى كرست وجودها له. أرسلت المدرسة وراء جدي، ثم أرسلت وراء أمي. ثم أرسلت أمي وراء عمتي مفيدة إذ ما عادت تعارض تزويج أمينة بحجة الدراسة وصغر السن كما كانت تقول من قبل، خشيت عليها من الضياع ومن نفسها أكثر. أمينة لم تعد ترى قيمة لشيء لا للمدرسة ولا للحياة.

تزوجت أمينة عثمان ابن عمتي مفيدة في حفل عائلي بسيط،

أجبرت أمي على حفل خالٍ من الأغاني والموسيقى ومظاهر الزينة. كان حفل زواجها أقرب إلى مأتم في الحقيقة، فأمي وجدي كانا في غاية الحزن وهما يريان ما تفعله بنفسها ونحن لم نكن سعداء لسبب غير مفهوم.

بعد تسعة أشهر وضعت أمينة طفلها الأول، ثم تراكم الأطفال عليها لعدم إيمانها باستخدام موانع الحمل هي وعثمان وعدم إيمانهما بالأزمات الاقتصادية المتتالية التي تضرب البلاد وتضرب معاش الناس فيها.

الأطفال في نظرهما مستثنون من أي أزمة لأنهم حين يأتون يأتي رزقهم معهم، وهو ما سيوضحه رزق طفلهما الأول «هيثم».

هكذا اختصرت أمينة وجودها ما بين غرفة النوم والمطبخ وما بين بنغازي ومصراتة والسعودية. كلما زارتنا كانت إما ترضع طفلًا وإما حاملًا بآخر، كانت أمي مستاءة لكنها لم تعد تتدخل في حياتها، فقد جربت مرارًا وواجهتها بعدم الإصغاء وأنها وزوجها سعيدان رغم قلة الإمكانات المادية واعتمادهما فلسفة «يأتي الطفل ويأتي رزقه معه».

سنة ١٩٩٣ جثت أمينة على ركبتيها لما تبقى من حياتها واستسلمت للحزن فيما يشبه عدم الممانعة أو الخدر الذي يأتي في طيات أي كارثة، انطوت على نفسها تمامًا ولم تعد تقول نعم أو لا، ففي تلك السنة بينما كانوا في زيارة لنا، عانى ابنها البكر هيثم من ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة أُدخل على إثره مستشفى «الفاتح» للأطفال لكي

يتحول من مجرد طفل يعاني ارتفاعًا في حرارته إلى طفل مصاب بڤيروس الإيدز!

كان هيثم ضحية من ضحايا ليلة الحقن الغامضة التي تعرض فيها جميع الأطفال النزلاء وفي نفس الوقت إلى الحقن بالفيروس اللعين. قيل للأمهات المرافقات إنها جرعة من جرعات العلاج، كانت ليلة مناوبة لطبيب فلسطيني ومجموعة من الممرضات البلغاريات.

من جراء تلك الليلة التي باتها الطفل في المستشفى ستنقلب حياته وأشياء كثيرة مع الوقت.

لم تعد أمينة تنتمي إلا إلى اليأس من الحياة التي أتت بها إلى هذا البلد، واستلتها الأحزان يومًا بعد يوم على الصغير، فنحلت ومرضت واغتمت وهي تعتني بابن مصاب بالإيدز ينأى الناس عنه وعنها خوفًا وتحفظًا وتؤدي واجباتها لزوجها وأطفالها الآخرين.

أشعلت قضية أطفال الإيدز ليبيا وشكل الأهالي فريقًا من المحامين لملاحقة الجناة، كانت آمال ابنة أمزا مسعود عضوًا فيه، لكن القضية كانت قضية دولة.

ركنت إلى المال لتغطية الجريمة فمنحت نصف مليون دينار تعويضًا لكل طفل أصيب فأسكت المال الأفواه فمًا فمًا، وكان القضاء والمحاكم مجرد تمويه.

حصل عثمان على المال الذي لم يحلم به في حياته فاستثمره في تجارة له ولإخوته، فهبت عليهم ريح البحبوحة ونسيم الرخاء.

لم تفتح أمينة فمها وتدافع عن حق هيثم في التعويض، المال له فهو صاحب الأزمة وليس مال عائلة أبيه الذين تغيرت حياتهم بين يوم وليلة.

توسَّع عثمان في استثماراته حتى وجدت أمينة نفسها غير قادرة على العناية بالصغير ذي الوضع الخاص إلى جانب عدد كبير من الأطفال، فزوجها بسبب كثرة انشغالاته لم يعد يجد الوقت للسفر به كلما مرض إلى حيث المستشفى الذي خصص لأطفال الإيدز في بنغازي، صار يرسلها هي والطفل، أي تسافر من دون محرم لأن المحرم مشغول في إدارة تجارته الجديدة، ثم عجزت أمينة عن ملازمة الطفل لفترات طويلة في المستشفى ولوجود أطفال آخرين لديها ليس هناك من يعتني بهم، فقررت ترك هيثم لأمي كي تعتني به مرة، ثم تركته للمرة الثانية ثم المرة الثالثة ثم في المرة الرابعة بكت وهي تركب السيارة مقبلة يدي أمي وحضنت ابنها كمن يودعه إلى الأبد حتى افتكها زوجها افتكاكًا، قائلًا لأمي:

- يا عمتي إن حياته في بنغازي أفضل من حياته في بيئة منغلقة، إنهم يعيرونه وينبذونه، أما هنا فلا أحد يعلم به طالما لم تتكلموا، سيعيش كإنسان طبيعي حتى يتوفاه الله في أي لحظة.

تنازلا عنه ببساطة فلا حاجة لهما بطفل قد يموت حسب التقارير في غضون عشرين عامًا وقد يتسبب في عدوى لآخرين وقد وقد وقد، تساءلنا إذا ما كانت معاملة أمينة لابنها كمعاملتها للمنتجات الأمريكية ولشركات الكوكاكولا والشركات الداعمة

لبناء المستوطنات الإسرائيلية في فلسطين، تساءلنا عن الكثير من الأشياء التي غيَّرت أمينة وغيرتنا، تساءلنا حتى عن أمينة نفسها هل ما زالت أختنا؟ هل ما زال فيها ما يمت إلينا بصلة باستثناء إنجابها للتوائم؟

لقد ابتعدت أختي عنا بكل صنوف الابتعاد، ابتعد جزء منها مذ ذهبت إلى العمرة واعتنقت فتاوى المتشددين، وابتعد جزء منها مذ ذهبت إلى مصراته ورضخت للعادات المتشددة والحياة ضيقة الأفق، ابتعدت كليًّا مذ تركت هيثم لنا وأدارت ظهرها.

نصف التمثال

كنا نذهب معًا أنا وأختي إلى بيت أمزا مسعود، فينتابني الفضول ذاته في كل مرة بشأن التمثال النصفي الموجود عند الباب، من هو يا ترى؟ ولماذا وضع عند الباب؟ أشد قميصها لتنتبه وتطرح السؤال نيابة عني، ذات مرة قالت لي ما اعتقدت أنها سمعته من أحدهم:

- هذا رأس جدنا القديم، وضعوه هنا ترهيبًا للصوص.

صدقت ما قالته أن صاحب التمثال هو جدي القديم حقًّا، وقد تم تكريمه بنحته على نحاس ووضعه في صدارة البيت مثلما كُرِّم آخرون من الأسرة في زمن التصوير الفوتوغرافي، فلم تخلُ بيوتنا من صورهم ولا أحاديثنا من سيرهم.

أحد أولئك كان أبي الذي تعلقت صورة كبيرة له في صالون بيتنا إلى جانب صورة جدي «أحمد عمران شركس» وجدتي «أمينة يعقوب». وأمي وعائلتها القريتليه المؤلفة من أبيها وأمها وأخيها وأختها.

في بيت أمزا مسعود لم يكن رأس قريبنا سوى واحد من عشرات التماثيل والمجسمات التي أحالت فيلا أمزا مسعود إلى متحف للتحف والأنتيكات وجعلت تنظيفه مهمة متعبة على مدبرته الأثيرة «أبله ميمي» التي ابتكرت أساليب خاصة في التنظيف ومواجهة ما يقصر من أمد بقاء الأشياء نظيفة.

مذ وعينا وجدنا رأس التمثال العجوز ضمن مكونات بيت أمزا مسعود، وضمن مهام أبله ميمي، وهي امرأة بدينة وافرة العافية تحزم شعرها إلى الخلف بشريط لا يخالف لون الفستان الذي ترتديه، تشده إلى الخلف بقوة حتى ينتأ جبينها الصغير ويشرق بلمعة مميزة.

امرأة صارمة كثيرة الصياح، تصيح حتى بوجه القطط الكثيرة التي عاشت في بيت عمي، كانت حريصة على طردها من الڤيلا، وإذا وجدتها قد عادت تقوم بشتمها وتفريقها من جديد.

كانت تصرخ بنا نحن كذلك كما لو أننا قطط تكثر من التطواف داخل الڤيلا المرتبة النظيفة، كنا أطفالًا مشاغبين نلوث الأرضية بآثار أحذيتنا الموحلة بطين الجنينة ولا نكترث بتعليماتها. لذا وقفت لنا بالمرصاد عند الباب وأخضعتنا للكشف على أحذيتنا قبل السماح بالدخول.

- ارفعي رجلك وريني جزمتك من تحت، وإنتي كمان.

تقسم لها أختي بحياة جدنا صاحب التمثال أننا مسحنا أرجلنا في الخارج.

فتستشيط أبله ميمي غضبًا:

- جدك إيه يا بت إنتي، إنتي حتستعبطي عليًّا، غوري من وشي.

ذات مرة كانت أبله ميمي تستجوبنا عن نظافة أحذيتنا من طين الجنينة، وإذا بآمال تأتي بكعب أحمر عالٍ من الخارج دائسة على الدرب الطيني لتدخل البيت دون مسح قدميها بالسجادة الخارجية ودون أن تسألها حارسة الأرضيات «ارفعي رجلك»، مما جعل أختي تتجرأ وتسأل أبله ميمي:

- لماذا دخلت من دون أن تريك حذاءها ونحن لا؟

نهرتها أبله ميمي وهشتها بعصا الممسحة، فعادت آمال التي سمعت المحادثة وأدخلتنا دون كشف: تعاليا ادخلا.

شعرنا بالانتصار على أبله ميمي، تبادلنا ابتسامة وشيعناها بنظرات شامتة، لم تتركنا نفلت من حنقها فقامت بقرص أختي في أذنها وركلي بقدمها.

نحبت أختي وقالت إن أذنها ذهبت في يد أبله ميمي، فلامت آمال أبله ميمي وطلبت منها بلطف عدم تكرار ذلك.

كنا قد سمعنا قصة رهيبة عن عامل مصري يعمل لدى عائلة الشنطي خلقت مسافة بيننا وبين مدبرة بيت عمي، ظنًّا أن كل مصري هو قريب أبله ميمي وكل مصري يشبه الآخر، ضرب السائق ضربًا مبرحًا ورحل بعد افتضاح أمره. كان يوصل أطفال العائلة للمدرسة، وكان حريصًا على إيصال أصغرهم إلى الروضة في

الأخير، يحمله من السيارة حتى الروضه على كتفه فلا يمشي الصغير على الطين فتتسخ ثيابه. ذكرت إحدى الأمهات لوالدة الطفل أنها رأت السائق يدخل إصبعه في مؤخرة الصغير وهو على كتفه، وقد ارتعبت وفزعت وظنت أنها تتوهم بادي الأمر فقامت في الإياب وراقبته كيف يعود به، وراقبته في اليوم التالي كذلك حيث تأكد لها أنه يتعمد إيقاف السيارة بعيدًا عن الروضة ليضع إبهامه في مؤخرة الصغير، والصغير يطلب منه رفعه: ارفعني فوق يا عمي بسيوني.

ذهبت المرأة من فورها وهمست بشهادتها في أذن المديرة ثم همست في أذن إحدى الأمهات من صديقاتها ثم بلغ الخبر جميع الأمهات في الروضة ولم يبلغ النهار منتصفه حتى بلغ الخبر أم الطفل، ثم انتشرت رائحة السائق في معمورة الفويهات، فصار الناس يخشون من خدمهم، وصرنا نخشى من أبلة ميمي كذلك، اعتقادًا منا أن جميع المستخدمين في البيوت هم من الطينة نفسها، ما دفع أختي إلى الإطالة في زمن البكاء، فالأصابع التي دخلت في صغير عائلة الشنطي أمسكت مثيلاتها بأذنها وهذا بشكل ما عار اجتماعي!

لم يكترث لنواحها أحد فسكتت ولم تخبر أمزا مسعود الذي دخل موتورًا دون الخضوع لكشف رفع الأرجل، وألقى بسترته عند المدخل وباروكة في يده على رأس قريبنا التمثال. كان يشتم كائنًا مجهولًا لا نعرفه.

حدثت مشكلة صغيرة ثم كبرت ذلك اليوم، فقد أضرم أحد سكان الفويهات نارًا في المكب فغدت رائحة الهواء زنخة خانقة،

وفاقم الأمر أن الوقت كان صيفًا شديد الحر والرطوبة، يحتاج فيه الناس إلى أن يتنفسوا لا أن يلفظوا أنفاسهم.

تلاسن أمزا مسعود ومُضرِم النار، فقال الرجل إنه أراد طرد البعوض الذي جعل حياتهم كريهة، وكأي عراك حين ينشب لا يعرف من بدأه ومن ينهيه، تضارب أمزا مسعود والرجل بالأيدي ليعود أمزا مسعود بباروكة الرجل في يده، ويخبر أبله ميمي محذرًا: لا تفتحوا الباب لأحد دون علمي، سيأتي الكلب ليستعيدها، سيأتي مثل الكلب.

فقالت أبله ميمي: إزاي يا باشا حييجي من غيرها؟ يعني حضرتك واخدها رهينة؟

عدنا إلى بيتنا وكانت أني تهاني في زيارتنا، لكنها سرعان ما ذهبت لبيت أمزا مسعود حين همس لها ابنها عن أذن أختي المقروصة، قامت إلى الباب تطرقه طرقات متلاحقة منادية بصوت مرتفع: افتح يا مسعود... افتح يا مسعود.

فلما واربت أبله ميمي باب الڤيراندا وسألتها عما بها، ردت آني تهاني بغضب:

- لماذا ضربت ابنة المرحوم أخي؟ هل تظنين أنها مقطوعة من شجرة أو تظنينها ابنة الشنطي؟

في دقيقة قالت عمتي كلامًا يحتاج ساعة لتفسيره، كان مجمله نهرًا وشتمًا وتجريحًا لمدبرة المنزل، التي ردت قائلة:

- تتقطع إيدي بجاه النبي إزا اتمدت عليها، إزاي دا حرام مايرضيش ربنا حتى.

دفعت آمال أبله ميمي عن باب الڤيرندا وقالت لعمتي: اهدئي يا عمتي، ولا تفتعلي مشكلة من لا شيء.

فازدادت عمتي الغاضبة غضبًا:

- عوضًا أن يتحرك الدم فيك وتنتصري لابنة عمك، تحدثينني هكذا بوقاحة من الڤيرندا؟!

- الأمر لا يستحق حملة من الشتائم وعدم احترام بيت شقيقك ومَن فيه.

- فعلًا أنت قليلة أدب تهينين عمتك من أجل شغالة!

- انتبهي لكلامك لأنني سأطردك فعلًا إن واصلت الكلام بهذه الطريقة.

- وتجرئين على طردي يا منحلة يا منحرفة يا بنت النصرانية!؟

أغلقت آمال باب الڤيرندا ولم ترد على ما انهالت به أني تهاني عليها وعلى أبله ميمي وأمزا مسعود، تركتها تشتم وتركل الباب بقدمها إلى أن كلت وعادت لتفرغ شحنة غضبها في بيتنا.

- منتهى الانحطاط، تطردني من بيت أخي من أجل شغالة.

هدأتها أمي، قدمت إليها كوب ماء ودعتها إلى الجلوس، فجلست وشربته لكنها لم تهدأ، قدمت إليها كوب عصير، فنجان

شاي، ثم صحن من الذرة المشوية. قضت عليها كلها ولم تفلح في إسكاتها.

- اهدئي يا تهاني، لا يستطيع أحد طردك من بيوت إخوتك.

- أواه حتى أنت يا نجاة لا ترين فيما فعلته إهانة لي. اليوم وضعت الشغالة يدها على ابنتك وغدًا الله أعلم أين ستضعها، هؤلاء لا يمكن الثقة بهم، سنصل حيث وصل آل الشنطي؟

قالت أمي:

- اهدئي.. اهدئي سألتك بالله.

- بنت النصرانية هذه هي سبب الخراب في عائلتنا منذ أن كبرت، مسعود لا يخالف لها كلمة، حتى الزواج منعته أن يتزوج بعد أمها كي لا يشاركها وأخويها أحد فيما يملك.

قالت أمي:

- من قال لك هذا يا تهاني، مسعود هو من لا يرغب في الزواج ثانية.

- لماذا لا يردك؟

شهقت أمي:

ماذا تقولين؟ مسعود مثل أخي!

- طلبنا منه نحن وأبي أن يردك ولم يفتح فمه بكلمة، مؤكد أنه يخاف من هذه العقرب ويحسب لها ألف حساب.

- مسعود مثل أخي يا تهاني، ثم إنني بعد محمود لن أتزوج وأترك أولادي.

- سيكبر الأولاد وينصرفون إلى حياتهم وتظلي أنت وحيدة، فكري في نفسك.

- الله أعلم بما سيحدث، قد لا أعيش حتى الوقت الذي يتركونني فيه وحيدة.

لم تشفِ أني تهاني غليلها من آمال إلا بعد أن أدارت قرص الهاتف واتصلت بجدي لتشكو إليه ما حدث.. استشاط جدي وركب سيارته المرسيدس ٢٠٠ البيضاء وجاء من أقصى المدينة يسعى في ظهيرة يوم رطب حار. كان بالكاد يستطيع المشي من الفتق الذي يعانيه. سمعت أمي صوت عجلات سيارته تنزلق على الحصى عند مدخل الڤيلا، فخرجت مسرعة وفتحت له الباب وسحبته من كرسيه لائمة:

- لماذا خرجت وأنت مريض يا عمي؟

- وهل سأبقى في بيتي وتتحسن صحتي وبنات ابني اليتيمات يتعرضن للإهانة، لا والله، هذا المسعود تمادى في إهماله لابنته المتسيبة وعليه أن يضع لها حدًّا.

كان يسعل سعال المدخنين ولم يني عن القول أثناء السعال: يهديك الله يا بنتي ردي مسعود.

ولم تَفْتأ، أمي تقول: يهديكم الله مسعود مثل أخي.

كان الاشتباك الكلامي عنيفًا بين أني تهاني وآمال في حضور جدي وأمزا مسعود.

كان ملخص ما وجهته آمال إلى عمتي «عوضًا عن افتعال المشاكل والانشغال بحياة أبي، اهتمي بحياة أبيكِ المريض، الذي لولا نجاة لكانت حالته مزرية».

صعق جدي من كلام آمال فرماها بكوب الشاي في يده بعدما استحال عليه رفع تمثال ڤينوس الرخامي بجانبه، بينما قامت أمي وأمزا مسعود بمحاولات تهدئة متعقلة، جاء الرجل الأصلع لاستعادة باروكته خلال العراك العائلي، فلم يجد أحدًا في بيت أمزا مسعود، كان الجميع حول جدي في صالون بيتنا يناقشون قضية متواصلة التشابك، كثر فيها ارتفاع الأصوات والسعال والمغالطات، والكلام عن الطرد وعن الزواج. وتكسرت فيها بعض القلوب والخواطر لكن رؤوس الأجداد من التماثيل لم تتحرك من مكانها ظلت صامدة.

عدت أختي إلى أمزا مسعود وأخبرته : هناك رجل في الخارج يريدك، يقول إنه صاحب الباروكة.

قال لها أمزا مسعود المشغول بتهدئة جدي: قولي له غير موجود، وأعطيه باروكته من فوق رأس التمثال.

أخبرتني أختي أنها أخذت رخصة الباروكة من عمنا فذهبنا إلى الڤيلا نستبق. لم نجد أبله ميمي، بدا أنها غادرت، فلا صوت ولا ضوء في الداخل. دخلت وأختي وجربنا الباروكة على رأسينا قبل

إعطائها لصاحبها. كلتانا جربتها على مهل. وكانت أحذيتنا معفرة بطين الجنينة وحذاء الشخص الذي رأينا انعكاس خياله على الجدار أيضًا، لكننا لم نجده بمجرد أن التفتنا لنرى من يكون!

قطعنا المسافة من بيت أمزا مسعود إلى بيتنا عدوًا في سحابة من العياط والغبار والسرعة رفعت بسببها العائلة جلسة الخصومة سريعًا، كان أمزا مسعود في صدارة الخارجين، شدني وسأل ملهوفًا عمَّ بنا، أجابت أختي: إن في الڤيلا غريبًا.

كبرت حلزونة الغبار والجلبة بالتحاق صغار عماتي واتجهت صوب ڤيلا أمزا مسعود، تخلفت أمي وجدي فقط بسبب اعتماده عليها في المشي، أبقيت أختي أمينة في البيت فلربما اختبأ السارق في بيتنا بعد هروبه من هناك. أخذت العائلة تكتيكًا قتاليًّا سريعًا.

وقفت أمينة خارج بيتنا خائفة من مهاجمة السارق لها وحدها في الداخل. وارتفع صوت أحدهم متسائلًا: أين أيوب؟

وأجابه آخر:

- في بيت صديقه مروان.

- أليس لديه بيت يبقى فيه؟ لماذا يترك أمه وأخواته وحدهن؟

- أصبح شابًّا ومن حقه الخروج مع أصدقائه.

في سكرة الهياج قيل إن الغريب سارق، من قال ذلك؟ أني خديجة، أمزا خالد، أم أني مفيدة عبر التلفون من مصراتة؟! ولكن أني تهاني لفتت الانتباه إلى احتمال آخر أخطر من السرقة.

- السارق لا يسرق في النهار، كفوا عن الهراء.

- أين لمحته؟

- كان ظله على الجدار، وآثار قدميه هنا.

- لنتتبع الأثر.

- فعلًا تبدو الخطوة خطوة شخص كبير، هل يعقل أن يكون صاحب الباروكة؟

- الأولاد قالوا إن الرجل ظل جالسًا بسيارته إلى أن أخذ باروكته وغادر.

- من أين دخل الغريب؟

- من الباب.

نادت أني خديجة وأشارت بالمسبحة في يدها: تعالوا انظروا هنا.. آثار قدمين تملآن الحمام.. مؤكد أنه قفز من النافذة.

- كلا بداية الأقدام تبدأ من غرفة آمال.

بدأت عماتي الهمس.

- هذا أحد عشاقها، جلبته إلى البيت خفية.

- لن تتوقف عن العبث حتى تتسبب لنا بفضيحة.

- يجب وضع حد لها.

- فتش بيتك جيدًا يا مسعود فالغريب ليس غريبًا عن البيت.

- هل هناك مسروقات؟ تفحص المكتب.

- لا يوجد شيء ناقص، كل شيء في مكانه، دعوني أتصل بالشرطة، أغلقي الهاتف وأعطيني السماعة.

- حسنا دقيقة فقط أجيب مفيدة، مفيدة مرعوبة من النبأ دعني أطمئنها.

- لا تتصل بالشرطة، ستكبر الفضيحة.

- فضيحة ماذا؟

- ماذا لو كان الغريب من العائلة؟

- لا تتعجل التبليغ.. ما لم يكن هناك سرقة فلا تبلغ.

- أنا من رأي عمي، لا نستطيع إدخال الشر على بيوتنا، سيطلعون عليها وقد يجردوننا من أي شيء بأي حجة.

- أجل. حاميها حراميها، دعونا على المشكلة الأولى أفضل من تكبيرها.

- نعم، الله أمر بالستر.

آمال ساخرة: نعم! إلى درجة أنه الذي فضح امرأة العزيز ودوَّن سيرتها في كتاب شريعة!

أمزا خالد: هذه البنت دائمًا تقلب الأحاديث وتنحو بها منحى بعيدًا.

آمال: أنا لا أغير الموضوع، أساسًا لا يوجد موضوع، أنتم

من تخلقون شيئًا من لا شيء فقط لانتقاد والدي وانتقاد حياتنا واختياراتنا.

ارتمى أمزا مسعود متعبًا على الكرسي، فتح أزرار قميصه مناديًا بصوت غاضب: ميمي، ميمي.

- ربما تكون هي من فعلتها وأدخلت أحد اللصوص من أبناء جلدتها. قالت أني تهاني.

- اخرسي... كفى... كفى. اغربوا عن وجهي. صرخ أمزا مسعود.

- ماء.. ماء، هاتي كوبًا من الماء.. مسعود سقط عن الكرسي.

- لننقله للإسعاف، أين مفتاح السيارة؟

كانت تلك الجلطة بداية تاريخ أمزا مسعود مع المرض، ووفقًا لأني تهاني فآمال هي من تسببت في مرض أبيها ومن ستتسبب في موته كذلك.

ووفقاً لجدي: الجلطة ما كانت لتصيب مسعود لولا المشاعر التي أثارها فيه صاحب الباروكة لأنه عيَّره: تستأسد على قمامة، وتخرس عمن زحفوا على أملاككم وقتلوا أخاك!

ووفقًا لأمزا خالد الجلطة متوقعة من أسلوب حياته العابثة.

ووفقًا لأني مفيدة ولسكان مصراتة من يقدم سبتًا يجد أحدًا، مسعود لا بد أن تحدث له كارثة بسبب ابنته لكي يتعلم الدرس.

ووفقًا لأمي، مسعود مثل أخي شفاه الله.

ووفقًا لأختي يجب أن يبقى أمزا مسعود عمنا وتبقى أمي لنا دون أن يمتزجا، لذا ألقينا في سمعها بعض الاختلاقات الصغيرة، رأينا أمزا مسعود يقبل «أبله ميمي» في المطبخ ورأينا أبله ميمي تعانقه عند عودته إلى البيت فرحة بعودته قائلة: إنت جيت يا حبيبي.

كنا قد اقتبسنا المشاهد من بعض الأفلام المصرية لتلائم شخصية أبله ميمي وتخدم هدفنا وكان القدر إلى جانبنا فلم تتزوج أمي من أحد.

اليوم الذي نطق فيه قدري

رغم محبتي للمدرسة فإن وقتي فيها مضى وأنا منقبضة القلب بسبب شيء حدث أو شيء سيحدث ولا أعرف ما هو. دافعت تلك المحبة عن المدرسة وعني وإلا لكنت كرهتها وكرهت نفسي بالقدر الذي كرهت به معلماتي ونفرت من معاملتهن الجافة لي «يجب ألا تبقيك الإدارة مع الأطفال العاديين، يجب أن تذهبي إلى مدارس المعوقين» هذا عدا محاولات إجباري على استخدام يدي اليمنى بدلًا من اليسرى، لأن استخدام اليد اليسرى مكروه ويجلب الشيطان!

ولأن الله هو من خلقني وجعلني أعتمد على يدي اليسرى فلم أصدق اتهامهن للشيطان وتوقعت أن يعود الشيطان للانتقام منهن، لكنه كان طيبًا ولا يستطيع مواجهتهن فتركهن يقدن العملية التعليمية ولم يتدخل.

إحدى المعلمات عاقبت الصف ذات مرة بالضرب وحين أتى دوري لم تجلدني بالمسطرة على أصابعي كما فعلت مع البقية، توقفت

ونظرت إليَّ مليًّا، فاعتقدت أنها سترحمني وتعفو عني لما رأته من هدوء وبراءة في وجهي، بالفعل لم تضربني.

لكنها فتحت كتاب القراءة بشكل عشوائي ونقرت بالعصا على الصفحة قائلةً:

- أُكتبي هذه الصفحة بيدك اليمنى مرتين!

ففغرت فمي وتمنيت أنها ضربتني وكسرت عظامي.

لطالما واجهتني المشكلات بسبب تأتأتي وعسر يدي ولولا تدخل والدتي حينًا وجدي أحيانًا وآمال ابنة أمزا مسعود وخوض بعض المعارك التي كان لا بد من خوضها لما بقيت في مدرسة عادية ولآمنت أنني معوقة وذهبت إلى حيث يُجمع الأطفال القاصرون.

أمي كانت مدرستي الأولى، كانت تستبقيني في البيت حين أصاب بالبرد خشية عليَّ من السعال والحرارة، تراقبني باستمرار، أو تضعني بالقرب من جدي ليتولى الاهتمام بي، وكان جدي يغمرني بحنانه ولا يتركني وحيدة في الفراش ما أثار غيرة إخوتي وأبناء عماتي لمحاباته لي. لم تكن محاباة كاملة بل عطفًا أستحقه وربما شفقه لم أدرك معناها إلا حين كبرت، مِن ذلك الرجل العظيم تجاه حفيدة يتيمة ولدت متأتئة عسراء وعانت من الالتهاب الرئوي المتكرر.

حين كنا في بيت الفويهات كانت أمي تدثرني صباحًا بأكثر مما تدثر به إخوتي ثم تنطلق بهم إلى المدرسة لنذهب بعد ذلك أنا وهي

إلى بيت جدي حيث نقضي اليوم بكامله ولا نعود إلى بيتنا إلا في المساء للنوم. كنت لا أستغني عن حقيبتي حتى في المرض، آخذها معي وأستمتع بتصفح كتبي ومراجعة دروسي.

كانت هناك طفلة واحدة في الصف تجلس محاذية لمقعدنا أنا وأختي تفتقدني باستمرار وتسأل عني حين أتغيب، وقد كتبت لي رسالة ذات مرة تتمنى لي فيها الشفاء عندما دخلتُ المستشفى وغبتُ عن المدرسة أيامًا. كان اسمها فتحية الشوَّاري وقد جعلتها صديقتي لأنها سمعتني وصبرت على علتي ولم تعيرني أو تتنمر علي.

كان مشهد المدرسة اعتياديًّا، رتبت أمي أماكننا في السيارة كي لا نتنازع فيما بيننا. خصت أيوب بالكرسي المحاذي لكرسيها، واختارت أمينة الجلوس بجوار النافذة اليمنى بينما تعاقبت أنا وتوأمي على الجلوس قرب النافذة الأخرى، يوم لها ويوم لي لنرى المشاهد نفسها قبل أن تتغير المشاهد بالنسبة إليَّ وتصبح مشاهد تنتمي إلى المستقبل.

تخلصت أمي من نزاع توزيع الأماكن، لكننا لم نتخلص من نزاعاتها اليومية مع أيوب الذي يقوم بتشغيل السيارة صباحًا ويقودها في دورة أو دورتين أمام الڤيلا قبل أن تتحرك بنا إلى مدارسنا، كنا نتأخر بسببه، إضافة إلى انزعاجها من انشغاله عن دروسه بكرة القدم وجمع صور اللاعبين، حتى إن إدارة مدرسته استدعت جدي وأخبرته: ابنكم فتح مزادًا في المدرسة للصور وصار يبيع ويشتري ويقايض ويشغل التلاميذ عن دروسهم.

ولأن المدير كان أحد معارفنا، ويحفظ احترامًا قديمًا للعائلة عفا عنه مرارًا محاولًا إصلاح شأنه بعيدًا عن تدخل جدي وأمي، لكن مساعيه لم توفق فالمدرسة غدت بالنسبة إلى أيوب مكانًا للتسويق وملعبًا مثاليًّا لكرة القدم وحسب، حتى أنه لم يجد حرجًا في إبلاغ جدي وأمي على المائدة ذات يوم أن المدير قال له أريد رجلًا من أهلك أتحدث معه.

فوبخه جدي وأمي توبيخًا شديدًا ثم ذهب جدي إلى المدرسة وما إن جلس في الإدارة حتى تكلم كمحامٍ عن أيوب وعقد اتفاقًا مع المدير لتحويل آفة الاهتمام بكرة القدم بين التلاميذ إلى حافز، من ينجح سيحصل على انضمام مجاني إلى مصيف الملاحة وكان جدي وأمزا مسعود من أعضاء مجلس إدارة المصيف.

نجح أيوب في دراسته رغبة في الانضمام إلى معسكرات التدريب الصيفية وتنهدت أمي الصعداء لأن ما دفعته للدروس الخصوصية في اللغة العربية لم يذهب سدًى.

أما بالنسبة إلينا نحن البنات فلم نرهق في دراستنا أحدًا، سرنا سيرًا طيبًا حتى وإن عانيت أنا من مشاكل التكيف بسبب التنمر الذي أسبغ عليَّ انطوائية لم تكن من طبيعتي. كان جدي مؤيدي ومناصري في المدرسة والحياة. يحتويني في سريره ما إن يسمع صوت الباب يفتح، يناديني مرحِّبًا فأتسلل إليه في الغرفة التي يضيئها ضوء التلفزيون، ينزع عني حذائي ومعطفي ويصبحني بالقبلات سائلًا عن حالة قفصي الصدري.

- هل يؤلمك صدرك؟

- نعم يا بابا أحمد، لكني تخلصت من حصة التسميع اليوم.

- لماذا لم تحفظي النشيد أو السورة القرآنية؟

- أنا حافظة يا بابا أحمد لكن المعلمة تعتبرني غير حافظة وتعاقبني.

- هل ضربتك؟

- كلا.

- سأذهب إليها وأعاتبها حتى لا تعطيك علامات أقل المرات القادمة.

كان جدي حبيبًا قريبًا إلى قلبي، ينسيني وجوده المرض ويسليني بما يرويه لي من القصص والأحاديث التي فتحت ذهني وجعلتني سابقة لأترابي، ذات صباح كان يشاهد برنامجًا عن الآثار في سريره، جاءت أمي وأضاءت مصباح الغرفة وصبَّحت عليه فطلب منها الاتصال بالدكتور سيد عبد العظيم ليرانا أنا وهو. كان يشتكي شيئًا غامضًا لم أعرفه، يُلزمه الفراش.

طلب مني التسميع ريثما يحضر الطبيب وأعطاني وقتًا كعادته، ليس كما يفعل معي الآخرون. الوقت هو ما أحتاجه للإعراب عن نفسي وقد كانت رفيقاتي ومعلماتي في المدرسة بخيلات به عليَّ باستثناء فتحية الشوَّاري التي عاملتني بمودة ولم تكن شرسة أو متنمرة.

حين انتهيت فاجأني جدي بقوله: ممتاز. عندما تكبرين أريدك أن تصبحي عالمة آثار.

فسألته: ما معنى عالمة آثار؟

فأخذ يفسر لي حتى قرَّب لي المعنى وصرت أتخيل نفسي عالمة آثار مزهوة بالمكانة الجديدة التي أوصلني إليها التسميع الجيد. سألته عن سبب اختيار هذه الوظيفة لي فأجابني:

- لن تكوني فيها بحاجة إلى أن يمُنَّ عليك أحد بالوقت الذي هو من حقك للحديث، ستكونين فتاة محفوظة الكرامة، تمارسين عملًا مستقرًّا يؤمِّن حياتك ويغنيك عن الأحاديث الملزمة مع الناس.

- هل يعني هذا أنني لن أتكلم في العمل؟

- لن يفوتك شيء.. ستكونين بخير بعيدة عن الاختلاط بالناس.

زرع جدي الفكرة التي شغلتني وشاغلتني وكان حريصًا على عدم إخباري شيئًا عن مرضي، استدعى لي صديقه الطبيب سيد عبد العظيم طبيب العائلة كلها والأقارب العارف بأمراضنا وأسقامنا والقادر على تشخيصها من خلال مكالمة هاتفية، كان رجلًا ذا هيئة مستقرة يصعب تصوره من دونها، بدلة كلاسيكية بربطة عنق وبنطلون بالحمالات ترتفع ساقاه قليلًا حتى يكشفا عن جوربيه، وكرش مرتفع ناتئ يساعد في رفع البنطال عن ساقيه،

وحذاء ضخم يعادل ثلاثة أقدام صغيرة، وغلاف جوي مشبع برائحة كولونيا «أكوا دي بارما» وحقيبة مليئة بالأدوية، كان حليقًا حد ملاحقة الشعر في وجهه إلى ماوراء الجلد أما رأسه فقد متعه الله بحلاقة طبيعية إلا قليلًا وكان من طبيعته المجيء في موعده والذهاب إلى المرضى في بيوتهم حتى اكتسب شهرة في بنغازي بطبيب العائلات.

كانت أمي تقدره وتكرمه فهو طبيبها في فترات حملها وما برحت تعترف له بالمهارة قائلة: «والله يا دكتور سيد إن لم تعطك جامعة القاهرة إجازة الطب لأخذتها من عائلتنا».

وكان يضحك ضحكة مترجرجة ويناديها «أختي».

كنت أبني تخيلاتي عن عالمة الآثار التي وضعها جدي في رأسي حين رن جرس الباب وقال جدي مطمئنًا:

- ها قد حضر الطبيب، لا تخافي لن يخزك بحقنة كالمرة السابقة.

- لا.. حقنة لا.

- اهدئي.. إن وصف لك حقنة فسآخذها أنا بدلًا منك.

عمليًّا كانت الحقن تخفف عني رغم كراهيتي لها.

أحدث مجيء الطبيب شيئًا من الحركة والمسرة في بيت جدي الساكن فترة الصباح، ترجرجت ضحكته العميقة عند الباب، تلك الضحكة التي لا بد أن يضحكها وكأنه يسلم بها على كل من في البيت مرة واحدة، ثم لا بد أن يمازح أمي عن الطعام.

- طبختي إيه النهارده ياست الستات؟

- أخبرني بما تحب وسأطبخه.

- طيب إيه رأيك بما إن الدنيا سقعه تعمليلنا حتة رز مبوخ من إيديك الزوراف دول؟

تلبي أمي رغبته سعيدة بمجيئه، أما جدي فيستنكه أحاديث السياسة والحياة معه أكثر من النصائح الطبية.

- إزاي محركاتك يا حج؟

- تعبانه والله بحاجة لرعاية جنابك.

- نشوف البنوته القمر دي الأول وبعدين نفضالك.

حفظنا ما يفعله لمعرفة المرض الذي نعانيه، افتح فمك، تنفس جيدًا، خذ شهيقًا وأخرجه على مهل.. أخرج لسانك.. اكشف عن ظهرك، افتح عينيك.. مد يدك.. ارفع قميصك، نبضك ممتاز.. هل لديك صداع.. هل لون بولك متغير.. هل لديك ألم في المعدة، سأصف لك دواء لمدة أسبوعين.. بعد الأكل.. قبل النوم.. بعد الأكل.. قبل النوم.. هوب ستكون مثل الحصان. لكن أي حصان؟ لا أحد يدري فالأحصنة المريضة لا يراها أحد عادة.

انتهى الطبيب سيد عبد العظيم من فحصي، أخبر جدي أن لديَّ أسنانًا لبنية منخورة.. أول مرة أسمع عن الأسنان اللبنية، ظننتها مرضًا أو عارضًا يعيقني عن الكلام بانسياب.. سألت أمي

فابتسمت قائلة: كلا لا شيء.. لا تكثري من أكل الحلوى. كان في جيبي حلوى أعطاني إياها جدي، سكت لم أخبرها عنها حتى لا تصادرها مني وأراها في فم أيوب.

فتح الطبيب باب الغرفة بعد الانتهاء من فحص جدي وذهب لغسل يديه في الحمام، أتت أمي بصفرة شاي وشطائر وجلسنا جميعًا حول سرير جدي.

واصلوا أحاديثهم عن المدينة والحياة والسياسة والصيدلية التي يعمل فيها في شارع عمرو بن العاص وعن مشكلة الطبيب الأزلية مع المخالفات المرورية.

حين تهيأ للخروج، أكد له جدي انتظاره تمام الثانية للغداء ونبهه للمخالفات المرورية التي تفنن فيها، مثلما تفنن رئيس عرفاء «رمضان شلعوبة» في اقتناص المخالفين.

- إياك ورمضان شلعوبة.

- تِف من بؤك يا حج، ربنا يبعدنا عن شلعوبة ويبعد شلعوبة عننا.

عدت إلى سرير جدي بعد انصراف الطبيب، حاول جدي تسليتي ودفعي إلى الكلام دفعًا، سعلت فضغطني بين يديه الكبيرتين لئلا أتألم من السعال، مسح مخاطي ودموعي وحضنني إليه «ستكونين بخير يا طفلتي» كان لا يفتأ يردد ذلك.

عاد إلى مطالعة جريدة كان قد طواها بجانبه، بالرغم من أنه

يضع نظارته على أنفه فإنه يرفع عينيه إلى أعلى حين يقرأ، ليقرأ من دونها، سألته: كيف تستطيع أن ترى هكذا؟

ضحك ومازحني:

- بالشم، بالمناسبة هل تستطيعين ذكر الحواس الخمس؟

استهلكت عشر دقائق لأذكرها كلها، فالمسافة الفاصلة في كلامي وضيق التنفس تسبب لي الضيق وتجعلني غير راغبة في الكلام خشية الحرج والتعرض للسخرية، كان جدي يعطيني الوقت الذي أحتاجه لقول شيء، أمي كذلك، أما أيوب فلم يكن له صبر عليَّ.. أمينة وتوأمي يفهمانني من كلمة أو إشارة، أما آمال ابنة عمي فتستدعيني إليها وتطلب مني أن أقرأ لها، وحين أحمل إليها الطعام أنا وتوأمي تنهى أختي عن الكلام نيابة عني:

- دعيها تتكلم، أنت السبب في بقائها هكذا. هيا غادري.

عززت آمال ثقتي بنفسي، فتحسن حالي وغدوت أفضل في وجودها، كانت تصحبني معها في جولات داخل المدينة، تحدثني كفتاة راشدة، وتسألني هل فهمتني؟ فأهز رأسي بنعم أو لا، فتقول لي: قولي لا بالكلام، ولنعم يكفي إيماءة بعينيك أو رأسك.

- بابا أحمد رأيت هذا الرجل من قبل في بيت عمي مسعود.

- أي رجل؟

- ذاك الذي تعلق صورته قرب الخزانة.

- هذا أخي المرحوم محمود، مات شهيدًا في فلسطين في حرب ١٩٤٨.

- ما معنى شهيد.

- الإنسان عندما يموت في الحرب.

- مقتول؟

- نعم يقتل في حرب.

- هل تكون له عفريتة لأنه مقتول؟

- لا العفريتة تكون لمن يموت مقتولًا في غير الحرب.

- وبابا؟

- بابا مات شهيدًا، رحمه الله.

- هل صحيح أن الفويهات فيها عفاريت؟

- لا، لا تصدقي هذا الكلام الذي يخيفكم به أيوب، ولا تكترثي به.

أتذكر جيدًا ذلك الرجل، كان طويلًا ملتحيًا، يواجه الكاميرا بجهته اليمنى في زيه العسكري كأنه ينظر إلينا إذا نظرنا إليه، كان يشبه جدي كثيرًا عدا أنه نحيل وجدي لا.

شرع جدي يحدثني عن مدينته الثرية «سوسه» والآثار الرائعة فيها حين دخلت أمي الغرفة من جديد بملعقة المطبخ في يدها وقالت له:

- هل سمعت ما حدث في الفويهات اليوم؟

- ماذا حدث؟

- وجدوا آثار أقدام جديدة هناك؟

- أين؟

- في ڤيلا إسماعيل.

- من أخبرك؟

- مفيدة في الهاتف الآن.

- مفيدة في مصراتة من أعلمها بما يجري في الفويهات وفي بنغازي؟

- خالد.

دمدم جدي مستغربًا: ياإلهي!! لقد فات المخابرات الليبية الاستفادة من ابنتي مفيدة وحسها الاستخباراتي العالي. لقد ضيعتها المخابرات من يدها.

- حسنًا دعينا نعود إلى موضوعنا عن آثار الإغريق في سوسة وقورينا ودعك من آثار الأقدام في الفويهات، لا تفكري فيها فهي من قبيل ما ينسجه أيوب من حكايات ليخيفكم بها.

وغمز لأمي بعينه فلم أصدق تطميناته.

الغارة الأمريكية
على بنغازي وطرابلس ١٩٨٦

- أين سنختبئ؟ في جليانة أم في الفويهات؟

سألت أمي جدي وسأل جدي أمي واستمر النقاش طويلًا حول المكان الذي سنأوي إليه كعائلة مجموعة هربًا من قصف الطيران الأمريكي لبنغازي.

يجب أن نتفرق حتى لا نموت كلنا مع بعضنا.

كلا بل يجب أن نكون معًا وألا نتفرق حتى نموت معًا.

أمريكا ترمي لتأديب القذافي، وما دخلنا نحن في المشكلة؟ نحن الإسفنجة التي تمتص ردات فعل الآخرين. نحن دافعوا الضرائب متعددة الأشكال.

انحنى جدي عليَّ بينما أُنجز واجباتي وأخبرني بهدوء:

- يجب أن نجمع أشياءنا الهامة ونغادر فورًا تجاه سوسة، فبنغازي تحت القصف.

لم أفهم خلفيات الخبر، ولماذا تقوم أمريكا بقصفنا؟ كمشتُ ذراع جدي وقلمي بين أصابعي فحضنني مطمئنًا: لا تخافي لا شيء سيحدث لنا لكننا للاطمئنان سنذهب عند أتريا ريثما تهدأ الأمور هنا. قد يقطعون الكهرباء فنبقى من دون ماء أو ضوء لذلك سنذهب إلى سوسة.

لم يرد إزعاجي حتى لا أخاف وأرتعب وتعاودني مشاكلي، حزم لي حقيبتي وأشرف عليَّ بنفسه وأنا أجمع حاجياتي، كان يضع لي البناطيل ويقول للاحتياط سنأخذ معنا هذا وهذا.

وجدنا سيارات كثيرة محملة بالناس وأشياؤهم على الطريق، كأن بنغازي تفرغ في نفس اللحظة حتى لن يبقى فيها أحد، في سوسة على أي حال بيتنا الآخر، لسنا أغرابًا عنه ولا هو غريب عنا.

أغلقنا منازلنا ورافق أمزا خالد عماتي وأزواجهن إلى شحات. أما أمزا مسعود وآمال فكانا في ألمانيا.

لم يتركنا جدي نقلق أو نخاف، لم نستقرئ في وجهه أو سلوكه توترًا واضطرابًا، دخلنا سوسة عصرًا وكانت تِتي أتريا في استقبالنا.

كنا نسمع أخبار الغارات الجوية في التلفزيون وفي أحاديث الناس أينما قصدنا في البلدة الصغيرة، الناس لا يعملون شيئًا سوى الشيطنة السياسية لما يسمعونه في الأخبار ومشاهدة التلفزيون والأكل والنوم والإتيان ببعض المواليد.

في بيت سوسة تفرغ جدي لمتابعة الأخبار في الحديقة الأمامية

لبيت تيتي أتريا أو كنا نرافقه إلى الشاطيء نحمل له كرسيًّا ومظلة ليجلس خلال سباحتنا. وفي أحيان أخرى نتمشى معه بمحاذاة الشاطئ حتى حوض كليوباترا لنشاهد أيوب يقفز الصالتو مع الشبان، آثر جدي أيضًا الجلوس مع نفسه عند المسرح اليوناني مدخنًا البايب، متأملًا الحياة أو مشاهدًا تمثيلياتي أنا وأختي التي نرتجلها على المنصة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

في البيت تفرغت أمي وتتي أتريا لصنع الأطعمة والمخللات ونبذ الفاكهة واستقبال الأصدقاء القدامى والتطريز والخياطة على وقع أغاني كريتية قديمة حفظتاها عن أمهما وجداتهما.

خاطت لنا أمي فساتين من دون أكمام وخاطت لأيوب سراويل قصيرة وقمصان. اجتزنا بها صيفًا كاملاً.

كأن كل ذلك كان في انتظار أن تغير أمريكا علينا ليحدث!

سمعنا صوت أمي الصائمة عن الغناء منذ زمن بعيد تغني. شاركت صديقات تِتي أتريا من قريتليات سوسة في الغناء والتطريز في حديقة البيت الجميلة المزدانة بإكليل الجبل والنعناع والحبق والورد الفواح.

كنا سعداء لرؤيتها مبتهجة وتغني. وكنا نصيد الفراشات من حولها لنطيرها في اتجاهات أخرى غير اتجاهاتها.

في فترات القيلولة عكفت وأختي على قراءة قصص المغامرين الخمسة وأغاثا كريستي تحت أشجار الحمضيات قريبًا من الدرب

الحجري المؤدي إلى الشاطئ، كنا نحب خيال أغاثا كريستي المثير ونتخدر به، أما أيوب فاختص بمطاردة الطيور في أعشاشها وصيد الأسماك ومنافسة الشبان على القفز في حوض كليوباترا، بينما قررت أمينة أن تختم القرآن.

جمعتنا سوسه كعائلة ورتبت أوراقنا من جديد، ففي أمسيتها اللطيفة المنعشة تسامرنا تحت نور القمر البديع الذي نفذ من قضبان شباك حجرتنا المفتوح على البستان فجعل وقت ما قبل النوم ساحرًا وبهيجًا. كنت وأختي نستلقي أسرتنا على وقع أصوات أحاديث الكبار وجداجد الليل، وتراكض أمواج البحر القريبة وتحرش الهواء بأوراق الشجر، كانت أختي تستعذب القراءة لي في السرير السفلي بينما تذروني الأحلام بعيدًا في السرير العلوي حتى أنام، تارة إلى كريت الفلقة الأخرى لسوسة وتارة إلى إيطاليا التي قضى فيها أبي وأمي أشهرًا من العسل، وتارات إلى أماكن لم أسمع عنها إلا في دروس الجغرافيا صحبة ذاك الغريب الذي أخبرتني عنه ذات مرة بأنه سيأتي من البعيد ويحملني على ظهره ويتزوجني ويهتم بي. أظنها قالت لي في الإعادة بأنه وسيم ويعيش بين الأموات، وأظنني وقعت في الحسد وحسدتها لأنها رأته قبلي.

في نهاية الأمر أقنعني خيال أختي بوسامته أو أردت أنا أن أقتنع فاقتنعت.

فتحية الشواري

لم أستطع منعها، جذبتها بفستانها لكنها أفلتت مني.

- ماما .. هناك رجل يقبل امرأة في بيت عمي.

- ماذا؟ أين؟

- في تلفزيون غرفة آمال يا ماما.

- وأنتما هل كنتما تتفرجان معها؟

- كنا نلعب بألعاب أعطتها لنا آمال.

لم تكتفِ أختي بذلك بل أخبرت أمي أننا رأينا آمال تدخن في الڤيرندا واضعة ساقًا على ساق فهل التدخين عيب أم حرام؟ وأننا رأيناها مرة تقبل خطيبها الجديد في الصالون، فهل التقبيل قبل الزواج عيب أم حرام؟

وضعت أمي ملعقة الطعام من يدها وذهبت وأدارت قرص الهاتف واتصلت بآمال، جرى بينهما حديث لم تدعنا أمي نسمعه.

ثم أنهت المكالمة وطلبت منا عدم إخبار أحد بما رأينا وأرسلتنا بصحن تارت إلى بيت عمي، نظرت إلينا آمال نظرة غاضبة ولامتنا على نقل الأخبار. فبرأت نفسي أمامها ولم أكن بحاجة إلى كلمات كثيرة كي تدرك أني لم أقترف الوشاية ونقل الكلام إنما شقيقتي هي من فعلت، وجهت كلامها لكلتينا:

- إياكما ونقل الأخبار، هذا سلوك ذميم.

طأطأنا رأسينا موافقتين واعتذرنا عن فلتات اللسان.

تعودنا التحدث أنا وأختي بصفة الجمع، أكلنا، شربنا، مشينا، نمنا، قتلنا نملًا في الحديقة، ذهبنا، ركبنا الدراجة... حتى غدا وجود إحدانا في صوت الأخرى طريقة في الكلام، وكانت صديقتنا فتحية الشواري تعرف ذلك عنا وتتقبله من دون استفسار، وكأنها قايضت عدم السؤال بتركنا إياها تتكلم فهي تريد أن تقص علينا شيئًا يثقل قلبها ويرهقه وقد وجدت أمامها أربعة آذان لا بد أن تملأها بالكلام.

كانت أحاديثها تشدني وتشغل ذهني عن بيتهم المليء بالأطفال والمشاكل. تزوج والدها للمرة الثانية مما جعلها تستقبل في العام الواحد أخوين جديدين أحدهما من أمها والآخر من زوجة أبيها، وبالرغم من أن والدها سائق عمومي محدود الدخل فإنه كان يتكاثر بشكل جنوني حتى أنهم عانوا من نقص الطعام والكساء وأشياء كثيرة كان على أمهاتهم تدبرها لهم فوالدها لا يهتم ولا يبالي وكان مراسه صعبًا إلى حد الضرب، يضرب زوجتيه ويتوعدهما بزواج ثالث ما إن تفتتح طريق مصر.

كان العالم الذي ترويه لنا فتحية غريبًا على مخيلتي كطفلة، سمعت منها أحاديث لم أتوقع أن تحدث في بيوت الليبيين أو لأنني اعتقدت أن بيوت الليبيين منزهة إلى حد ألا يحدث فيها إلا ما هو فاضل!

- لماذا لم تجلبي معك إفطارك اليوم؟

- أمي لم تصحُ لنا صباحًا. خرجت أنا وإخوتي دون إفطار.

- هل أمك مريضة؟

- أمي مضروبة، بالأمس ضربها أبي.

- وماذا فعلت أمك حتى يضربها أبوك؟

- لم تفعل شيئًا. حين تتكلم معه يهب غاضبًا في وجهها ويضربها بأي شيء في يده، صحن، كوب، قطعة حديد، أي شيء وأحيانًا يجري وراءها ويشدها من شعرها ويدق رأسها بالجدار ويدوسها بقدميه.

- هل والدكِ مصارع؟

- كلا، والدي سائق حافلة، لكنه غاضب باستمرار ولا نعرف لماذا هو غاضب ولماذا يضرب من يجده منا بلا سبب، بل لماذا يضرب ما يجده في طريقه. إحدى المرات ركل قطة بقوة فقتلها، كانت قطة الجيران.

- وإخوتك الآخرين؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- حتى هم يضربهم هم وأمهم. دائمًا نسمع بكاءهم ونسمع أمهم تشتم وتدعو بالموت على أبي وجدتي.

- وماذا تفعلون؟

- نقول آمين.

- ألا يتدخل أحد لتخليصكم منه؟

- أخي الكبير في الصف الثاني إعدادي إذا حاول منعه، ضربه هو الآخر ضربًا مبرحًا. جدتي تشجعه على ضربنا، نحن جميعنا في البيت نكرهها لأنها تحرضه باستمرار ضدنا وتقول له عندما يذهب لتقبيل يديها في الصباح والمساء: كن رجلًا ولا تجعلهن وأبناءهن يخرجوا عن طاعتك.

- لماذا لا تهربوا منه إلى غرف البيت وتقفلوها عليكم بالمفاتيح؟

- بيتنا ضيق، ضيق جدًّا.. نعيش في مسكن من طابقين مليء بالأطفال وفي كل شقة حمام واحد، وإذا هربنا للاختباء في الحمام نجده مشغولًا أو سبقنا أحد واختبأ فيه. هل ڤيلتكم واسعة؟

- نعم.

- يا عطايا الله، أمي مصرية. هل أمكِ مصرية؟

- لا، أمنا قريتلية.

- مثل أمي، أمي ليست ليبية؟

- كلا، أمنا ليبية من أصول كريتية.

- هل لديكم قبيلة؟

- لا.

- نحن لدينا. أين يقيم أجدادك؟

- أجدادنا كلهم في سوسة لكن أقارب والدنا شراكسة من مصراته.

- هل تذهبون لزيارتهم في مصراته؟

- لا، هم يأتون إلينا كلما جاؤوا إلى بنغازي في شغل. يزورون جدنا.

- هل لديكِ صديقات في سوسة؟

- في سوسة لا نعرف سوى بيت خالنا نديم وخالتنا أتريا. هما على الشاطئ وليس لديهم جيران.

- هل سوسة أجمل من بنغازي؟

- نحب الاثنتين. هناك بحر وهنا بحر وكلاهما جميل، لكن حين نذهب لزيارة تِتي أتريا نشعر أننا سافرنا في رحلة. وعندما نعود إلى بنغازي نكون في شوق إليها.

- للأسف ليس لدينا أقارب خارج بنغازي نذهب لزيارتهم، نحن دائمًا في البيت حتى العطلة الصيفية نقضيها في البيت، يذهب الناس إلى البحر نحن لا يأخذنا أبي إلى البحر.

- لماذا؟

- لأننا بنات وهو لا يريد أن يرانا أحد.

- هل يأخذ إخوتك الذكور؟

- لا، هم يذهبون مع أولاد الشارع، يسبحون في بحر الصابري ثم يعودون آخر النهار مشيًا على أرجلهم.

- وماذا يفعل والدك عندما يعرف أنهم ذاهبون إلى البحر؟

- لا يفعل شيئًا، يقول: إن شالله يغرقوا ونستريح منهم.

- هل لديك جد؟

- جدي متوفَّى. جدتي حية.. وأجدادي الآخرون في مصر.

- هل جدك والد أبيك حي؟

- جدنا حي وجدتنا متوفاة هي وأبونا.

- هل يسمح لكم بالذهاب إلى البحر؟

- بالطبع هو يأخذنا بنفسه؟

- ألا يقول الناس عنكم كلامًا سيئًا حين يرونكم في البحر؟

- لا، نحن نذهب للسباحة في المصيف العائلي مع العائلة، وأصدقاء بابا رحمه الله. كما أن بيت جدنا في جليانة قريب من الشاطئ.

- يااه!! هل تريدين تذوق بسبوسة أمي؟

- أها. نشكرك.

- إنها لذيذة جدًّا، عندما تصنعها أمي سأجلب لكما منها. أريد أن أسألك هل صحيح أن القريتلية يوزعون حلويات في مآتمهم؟

- سوف نسأل أمنا.

- هل سألت أمك؟

- نعم سألناها وأمنا تقول إنهم يقدمون حلوى «الخيلفا» ثالث يوم العزاء ويوم الأربعين حتى تكون نهاية الأحزان.

- أمي تصنع بسبوسة لذيذة، سأجلب لكما منها قطعة. إنها رائعة.

فجأة انقطعت فتحية عن الدراسة وتضاعفت أيام غيابها وتضاربت الأقوال بشأنها، المعلمات سألن الصف: أين فتحية؟ والتلميذات أجبن: غائبة ولا نعلم السبب. انتشرت شائعة بين البنات تقول إن أهلها غيروا عمرها وسيزوجونها!

أرسلت المدرسة إلى العائلة تسألهم لماذا لا تأتي فتحية إلى المدرسة؟

واستخدمت المعلمة رد العائلة في شرح الدرس محذرة إيانا بأننا سنصبح مثل فتحية إن لم نلتفت يمينًا يسارًا قبل اجتياز الطريق. فتحية صدمتها سيارة أثناء عبورها الطريق لأنها لم تتفقد الطريق جيدًا، لأنها مهملة، وهي نزيلة المستشفى الآن وإصابتها بالغة ولن تستطيع العودة إلى المدرسة في وقت قريب.

عدنا إلى البيت مكسورتي الخاطر من أجلها، علم جدي على الغداء ما بنا، فاقترح أن نشتري لها هدية ونزورها في المستشفى ونتمنى لها الشفاء العاجل.

بالرغم من أن اصطحاب الأطفال إلى المستشفيات ممنوع فإن الحجرة التي وجدت بها فتحية ملئت لأنفها بالأطفال، إخوتها وأمها وشقيقات الطفلة طريحة السرير المجاور لفتحية. كانت طفلة بدينة قيل إنها سقطت من الطابق الثاني. ربما استعملتها المعلمة هي الأخرى في شرح أحد الدروس وربما كانت الشائعة المصاحبة لسقوطها في مدرستها أنها حاولت الانتحار.

كانت والدة فتحية بالقرب منها، امرأة نحيلة طويلة تبدو على وجهها المرارة، شاحبة لا يبدو من مرآها أنها تصنع بسبوسة تقطر عسلًا كما وصفت فتحية.

كانت تهش عن وجه ابنتها الحر والذباب بقطعة كرتون، وكانت ملامح فتحية قد تغيرت في فترة وجيزة بسبب الحادث. استحالت وجهًا ميتًا هزيلًا. أجريت لها جراحة في العظم في إحدى ساقيها وعانت الساق الثانية من وضع دقيق حرج لم يستطع مستشفى الحوادث في بنغازي التعامل معه، أوصى بعض الأطباء ممن يدخلون غرفتها زرافات ويناقشون حالتها فيما بينهم أن التأخير في إجراء جراحة عاجلة لفصل الكسور عن اللحم في ساقها الأخرى لن يكون في مصلحتها، فربما لن يمكنها المشي مجددًا.

حكت أمها المسكينة كيف وقع الحادث لها، شقيقها ترك يدها بينما يجتازان الطريق السريع عندما رأى سيارة مقبلة بسرعة، جرى وتركها.

طرح عليها جدي أسئلة كثيرة. وقال حين صرنا في البيت إن وضع فتحية حرج، وأن المستشفى مجرد سلخانة وأن العائلة غارقة في البؤس.

كانت فتحية نائمة أو مخدرة أو مغشى عليها عندما زرناها، لم تصحُ بنا أو بجمهور الأقارب الذي تكدسوا بجوارها.

كان رأسها مائلًا على المخدة وفمها مفتوح وبه أنبوب وصوت تنفسها كأنه شخير بأنين وأمها تبكي مرة وتتحدث لنا مرة وتستقبل الزوار وتضع ما يحملونه من أطعمه تحت السرير ولا تتوقف عن مسح العرق عن وجهها وهش الذباب عن وجه فتحية. كانت رائحة المستشفى طعام وأدوية وسبيرتو وقرف.

سأل جدي أمها: هل تأكل الصبية؟

قالت الأم: كلا.. الطبيب قال لا تطعموها شيئًا حين تصحو.

- وهل ستبقى على التغذية بالأنابيب؟

- نعم حتى يفرجها الله.

وضعنا الفاكهة والشكولاتة والبسكويت والعصير الذي جلبناه بجانب سرير فتحية والتي من المؤكد أن من سيتناولها هم إخوتها الناظرون إلينا بعيون مستغربة وقوفًا عند الباب، ففتحية لم يزرها من المدرسة أحد غيرنا!

كما وضعنا الرسائل التي كتبناها لها ورسمنا حولها بعض الزهور والفراشات تحت مخدتها ودعونا الله لها من جوار سريرها أن يشفيها وينقذها.

بعد فترة أحاطنا جدي علمًا بأنه ذهب لزيارة فتحية دوننا. وأنه حمل إليها قصة سندريلا وشكولاته، فلم يجدها في حجرتها، سأل عنها فقيل له: نقلت للعلاج في إيطاليا، حالتها معقدة وتتطلب علاجًا طويل المدى. باعت والدتها شيئًا مما لديها واستدانت وناحت كثيرًا حتى استجاب زوجها لسفرهم.

كانت امرأة تعمل في تنظيف الغرف هي من أخبرت جدي.

انقطعت أخبار فتحية سنوات ثم سمعنا أنها وصلت روما وأدخلت المستشفى، بقيت معها أمها وشقيقها الأكبر ووالدها شهرًا ثم نقص المال فقرروا العودة إلى ليبيا شأنهم شأن الأسر التي يتلقى أحد أفرادها العلاج في الخارج، يترك المريض وحده وتعود العائلة لكي تجمع الأموال وترسلها إليه، وقد يستمر الوضع لسنوات، ترسل العائلة ما جمعته ما لم يمت المريض أو تفلس العائلة.

تعذرت عودة أهل فتحية إثر المتغيرات السياسية، فرض على ليبيا حصار اقتصادي بسبب أزمة طائرة لوكربي التي انتهت إلى اتهام ليبيا بتمويل الإرهاب العالمي وضرورة فرض حصار اقتصادي يحجم من دورها. دام ذلك الحصار أكثر من عشرة سنوات عجاف لم يتوفر فيها للناس إلا ما يلزمهم للبقاء. أي أن محاولات العائلة للتواصل مع ابنتهم باءت بالفشل فلا طيران يخرج من ليبيا أو يدخل إليها.

الأخبار التي تناهت إلى العائلة طوال انقطاع التواصل أن مستشفى أطفال المسيح التابع للفاتيكان تولى علاج الطفلة المتروكة بلا أحد. استمرت عزلة ليبيا وعزلة الطفلة عن أهلها ومر الوقت وتجاهل الأب ابنته فماذا سيستفيد من ابنة معوقة على كرسي متحرك ستعيش عالة عليه، لديه ما يكفي من العيال ومجيئها مجرد عبء إضافي فلتبقَ هناك خيرًا له ولها.

طويت فتحية في النسيان ولم يعد يسمع عنها شيئًا. وانشغل الجميع عنها بحياتهم وتدابيرها. حين تقلب بي الزمان وأخذني إلى إيطاليا إلى حيث سبقتني هي بعمر، فكرت فيها كثيرًا كما لو أن روحها تحوم قرب الأماكن التي أتردد عليها، إنها الآن فتاة مقعدة في كرسي متحرك، ربما تغير شكلها واسمها. لكنها ستعرفني ما إن تراني أو تسمع بي.

كيف يمكنني العثور عليها وقد طال الغياب وامتدت السنون وانقطع التواصل، ومن أين سأبدأ البحث عن صديقة طفولتي في إيطاليا الوسيعة؟

وددت أن تعلم أني فكرت فيها وأن أحدًا من ليبيا غير أمها رغب في العثور عليها. أحدًا جالسته سني طفولتها القصيرة جدًّا في ليبيا وبثته شجونها وهمومها ووعدته بشيء من بسبوسة أمها اللذيذة لكنها لم تفِ له بالوعد أبدًا.

كسر وترميم

لو تكلمت الجدران والأبنية والسلالم لقالت الكثير الذي سيغير الكثير.

عندما تسمر الضابط بجانبي كانت قد وقفت معه مشكلة ستغير حياتي وتلقي بظلالها عليَّ إلى مدى بعيد.

كنت جالسة على سلالم قسم الآثار في الجامعة أمرر الوقت في القراءة عن المقابر العائلية الهيلينستية في ليبيا ريثما تنهي أختي موعدها.

رفعت رأسي إليه، أخرجني مرآه من زمن الهلنستيين وأدخلني في آخر. كأني لم أره ولم أعرفه من قبل، بدت نظراتي إليه نظرة آخر إلى آخر يأتيه من الاتجاه المقابل له في الطريق. كان وسيمًا حتى أني استغرقت لحظات لمقاربته بأحد مشاهير الفن. من أين هبط عليَّ في الجامعة وكيف عرف بمكاني؟

قال لي مبتسمًا رافعًا ذراعه بالتحية: أهلًا.. كيف حالك؟

تعثر لساني المتعثر أساسًا ولبستني موجة خجل، أما مجيئه إلى الجامعة صدفة فنقلني من متأتئة إلى خرساء حقيقية.

قال: كنت في بيتكم للسلام على خالتي نجاة، لم أرها منذ مدة، كنت في مهمة في معسكر الرحبة قريبًا من بيتكم فرأيت أن استغل الفرصة وأزورها.

تمتمت: أممم.

واصل كلامه:

- غدائي اليوم عندكم، سألت خالتي عنكما، فقالت لي البنات في الجامعة ولا يوجد من يعود بهن إلى البيت، السيارة في الورشة عند أيوب، فاقترحت أن أتولى أنا المهمة.

لم أعرف ما أقول له، انتهت المواضيع أو الكلام، ذهبت أفكاري تجاه أختي التي مذ تعرفت على ذاك الشاب صارت تتهرب من الدروس ومن العودة إلى البيت بعد انتهاء محاضراتنا، أعطيتها الوقت الذي طلبته للتعارف والحب، كما أعطيت أمي توقيتًا مغايرًا للعودة بنا من الجامعة. لم أكن قد رأيت مروان في زيه العسكري من قبل لذلك بدا كما لو أن غريبًا انتحل شخصيته. تغير ذلك الشاب الذي فضل الحياة في البناطيل والقمصان الرياضية أو الجلباب البدوي الطويل والعمامة حين يتحول إلى صاحب ماشية.

كان في ميعة الشباب. أزحت حقيبتي وكتبي عن مكانها وقلت له بعد أن لملمت كلماتي بخجل: سأنادي أختي.

فاستوقفني:

- لا داعي للعجلة دعيها تدرس، سننتظرها، على كل حال الغداء سيتأخر إلى عودة أيوب.

خجلت أكثر وغمرني عرق شديد، ماذا أفعل معه الآن، ماذا أقول، في ماذا نتحدث حتى تنتهي أختي من مواعدتها وتأتي. هل سيحدثني عن العسكرية وأحدثه عن الآثار؟

جلس إلى جانبي على الدرج وكان مشهده في الزي العسكري لافتًا لطلاب وطالبات قسم الآثار الذين عهدوني إما وحدي وإما مع أختي، كان من طبيعتي الخشية من قالة الآخرين، وهو عيب لم أستطع التحرر منه دون صدمات متكررة نحتت الصخرة المتحجرة داخلي.

زاد جلوسه من حرجي ومن ضغطي على يدي.. ماذا سيقولون عني في القسم، تواعد ضابطًا في الجامعة؟

حسنًا أنا لا أبالي، كلا أنا أبالي.. إن مروان مجرد صديق مقرب وقد عرفناه منذ طفولتنا واعتدناه بيننا قبل أن ترتفع على كتفيه الرتبة ويربي شنبًا وتفتل العسكرية عضلاته ويعرب كل ما فيه عن جاهزية للزواج.

تلك اللحظات لم أسمع ما كان يتحدث به، كنت أهز رأسي لإعطاء انطباع أنني أسمعه ولا أشرد بفكري عنه.

لماذا أنا متوترة وما الذي يربكني ويدعوني إلى السيطرة على

انفعالاتي حتى لا أبديها؟ لا شك أن العلاقة السرية التي تبرمها أختي تضغط على أعصابي فأنا ألعب دور الحارس لها ولسمعتها ولسرها باستمرار وأتستر عليها أمام أمي التي بدلًا من أن تأتي للعودة بنا أرسلت إلينا الجيش الوطني!

تورطت في اختيارات أختي عندما وجدت نفسي أمام مشكلة سوء فهم قادمة لا محالة مع أيوب الذي أتى صدفة لاصطحابنا ولم يكن من عادته أن يفعل ولم يتصل بالبيت ليخبر أمي فما الذي جاء به ما لم يكن سوء الحظ؟!

لمحته قادمًا من بعيد وعيناه علينا وكلما دنا اتضحت فيهما الظنون. يبس حلقي ولم أعرف ما أفعل.

بوجه باسر قال لي: اذهبي إلى السيارة وقال لصاحبه:

- تواعد أختي من وراء ظهري كما يفعل سقط المتاع، أو تظن أن هذه البدلة تجعلك رجلًا؟!

- كلا، كلا، لا تفهمني خطأ، ذهبت إلى البيت وقالت لي خالتي.

لم يكمل مروان إيضاحه، سدد له أيوب لكمة أسفل ذقنه من دون محاورة أو مداورة فارتطم فكاه وسال الدم من فمه وسقطت قبعته عن رأسه، لم يعطه فرصة لفهم ما يجري، وازداد الموقف حدة بتمادي أيوب في تسديد الضربات إلى صديقه الذي حاول تمالك نفسه واستيعاب الهجوم المباغت عليه محاولًا إبعاد يدي أيوب عنه،

تراجع إلى الخلف ولاحقه أيوب دون أن يعطيه دقيقة يلتقط فيها أنفاسه، شده من تلابيب بدلته وسحبه من الدرج صفعًا على وجهه أمام الطلبة الذين تدخلوا للفصل بين الصديقين.

تلقيت دفعة قوية من أيوب طرحتني عن الدرج بينما حاولت منعه، أصيبت ذراعي إثر السقطة.

لم يعطِ أيوب مجالًا لأحد، كان يضرب ويلكم فحسب، ولم يفعل مروان شيئًا سوى اتقاء لكمات أيوب له ومحاولة إبعاد يديه عنه.

جريت إلى حيث أختى، أدركت من هيئتي المبعثرة أن شيئًا قد وقع، أخذتها وعدنا جريًا، وجدنا الطلاب احتجزوا أيوب بينما صعد مروان سيارته بهدوء وانطلق متبوعًا بشتائم ثقيلة من أيوب.

بقية الشتائم نالتنا في الطريق من الجامعة إلى البيت ثم نال مني أيوب مرة أخرى عند وصولنا، فتدخلت أمي وأختي وأبعدتاه عني، لم يكن قد فعلها من قبل وضرب أحدًا من العائلة، لم نعهده من قبل متوجسًا، لم نعرفه من قبل متوحشًا، كأنه لم يكن أخي قط. لم يصدق أنني بريئة من التخطيط لمواعدة صديقه في الجامعة وأن أمي هي من أرسلته. معتبرًا ما قالته محض دفاع كاذب عن ابنتيها اللتين كسائر البنات ذهبتا للجامعة لتحصلا على عرسان. كانت هذه الفكرة السطحية قد غزت المجتمع وتبناها العامة والخاصة دون فرق.

كسرت الثقة بيننا كإخوة.. جرحت علاقتي بأخي الذي كسر ذراعي ولم يتوانَ عن المزيد لو لم تتدخل أمي، وكعادة بيتنا عندما

تخرج الأمور عن السيطرة، أدار أحدهم قرص الهاتف وأبلغ جدي فاتصل بالتاكسي الذي يتولى تنقلاته ليأتينا رغم مرضه، لم يتركنا جدي وحدنا مرة حتى وهو مريض أو مهموم أو مشغول. كان يأتي ويشاركنا المسألة مهما كانت تفاهتها أو جديتها.

انهار جدي باللوم والتقريع على أيوب الذي حاول تبرير فعلته، ووجه له ضربات واهنة مثله من عكازه، تلقاها أيوب كالدغدغة.

- الرجل من يحمي سمعة أخواته وأهله، الرجل من يستر أهله.. من يدافع عنهم بغير العضلات، لا أتذكر أن في عائلتنا شخصًا استعمل يديه لمعالجة أمر ما أيها البغل الذي لا أدري من أين جاءنا؟ كأنك تربيت في بيئة سلوكها الضرب والهمجية وقلة الأدب، أنت قليل أدب وتجعلني غير مطمئن على هذه الأمانة بين يديك عندما تصعد روحي إلى بارئها. أنت لست أمينًا على أمك وشقيقاتك كما ربيتك، حتى وأنا ميت ستكون روحي قلقة عليهن معك.

- أيها الشيخ الطيب أنت لا تعرف حيل بنات اليوم وألاعيبهن، أنت طيب ويسهل استغفالك.

- أنت مجرد تسعين رطلًا من الدهون بلا عقل. اغرب عن وجهي أو لنغرب نحن عن وجهك، هيا اجمعي أشياءك وتعالى معي.

- أيها الشيخ الطيب أنت من أفسدت أخلاقهن بدلالك وتهاونك.

- اخرس يا تافه.

انسحب أيوب متواريًا من سورة غضب جدي.

أخذتني أمي وجدي إلى المستشفى. قال جدي للطبيب إنني وقعت عن الدرج ليضع لي الجبيرة، حين خرجنا كانت بقايا من الشمس تلتصق في النهار، ذهبنا إلى بيت جدي.

على العشاء كان عليَّ استخدام يدي اليمنى للأكل، بكى جدي حين رأى معاناتي قبل جبيرتي ووجهي وأنا أبكي يومي الغريب وأتعثر في كلامي: ظلمني يا جدي أقسم بالله ظلمني.. ليس بيني وبين مروان شيء. رفع جدي سبابته قائلًا: لا تحلفي، حتى لو كان بينك وبين مروان علاقة ما الضير في ذلك؟ أيوب الغبي الذي لا يجد فتاة تقبل به وتحبه لا بد أنه غاضب لهذا السبب. لماذا صديقه محبوب وهو لا؟ عليه أن يستحي من نفسه ما من فتاة أحبته حتى الآن بسبب طباعه.

كانت أمي صامتة لا تعارض قولًا لجدي لكنها في داخلها لا تتقبل انتقاد فتاها المدلل مهما اقترف. ظلت صامتة ولم تعطِ أي تعليق ثم حين نطقت قالت:

- لا بد من تزويجه ليعقل!

منذ صغري كان البقاء مع جدي يريحني ومرافقته تداويني من أحزان ذكرتها وأخرى عج بها قلبي ولم أبح بها أبدًا.

انتهى يومي بوجه وارم ويد وقلب كسيرين وحالة مؤسفة. باعدني جدي واستبقاني معه لخلق مسافة فاصلة بيني وبين أيوب.

كنت محرجة من العودة إلى الكلية ويدي مربوطة إلى عنقي لكن جدي شجعني على تجاوز الحادثة والتقليل من شأنها وناوشني وضاحكني باستمرار:

- وماذا لو أحببتِ مروان وأحبكِ؟ ليست جريمة. البغل أيوب ليس وصيًّا عليكِ ولا على أيٍّ من أخواتكِ.

- أنت تقول هذا يا جدي فقط، لكن الناس لا يتحدثون مثلك والواقع في الخارج مختلف ومؤلم. لا أستطيع مواجهته.

- يجب أن تكوني شجاعة، الحياة تريد صلابة عود، الهشاشة ستحطمك وتضعف مناعتك.

- ليت لي عزمك وإرادتك.

- ستكبرين وتتعلمين من تجاربك. لن تستمري قطة ضعيفة لينة هكذا. أسأل الله أن يرزقك أيامًا تستطيعينها يا ابنتي أنت وأختاك.

على الرغم من أن كلمات جدي كانت دائمًا تقويني وإخوتي إلا أن حزنًا ووهنًا يكمن في طياتها أحيانًا. كان يطعن في السن والوهن والحزن يغزو كلامه، كلما فكر في الموت وفي النهايات، صار الموت هو المستقبل الوحيد أمامه.

قلت له باكية كما أقول دائمًا: أحبك يا جدي، ليت الرجال كلهم مثلك.

هز رأسه ساخرًا: ما يعجبك فيَّ لا يعجب سواك يا صغيرتي.

كان يبكي معنا إذا بكت إحدانا، كأن حرقة قديمة ما زالت تضطرم في جوانحه، حرقة تجعل دموعه رابضة على حدود جفنيه في انتظار حجة للنزول.

طلب مني مناولته الهاتف، اتصل ببيت مروان واعتذر إليهم. غادرت الغرفة لا أريد سماع شيء عمَّا حدث ولم يتكلم جدي عن شيء مما حدث فيما بعد لمساعدتي على طي الحادثة سريعًا.

في الصباح جاءت أمي وكنت في سريري لم أغادره، دخلت الغرفة تحدثت معي ثم ذهبت إلى غرفة جدي.

حين اجتمعنا على الغداء في غياب أيوب قالت أمي وبارتياح بدا على وجهها ودون مقدمات:

- اسمعي.. البارحة جاءنا أهل مروان قدموا اعتذارًا عن ابنهم وقالوا إنهم مستعدون لطلب يدك ليعالجوا ما فعله ابنهم.

شهقت! ماذا؟ لكن ابنهم لم يفعل شيئًا!

- نعم أبدى استعدادًا للزواج منك إذا كان قد أساء إلى سمعتك في الجامعة.

كان لدى جدي علم مسبق، فاستمر في الأكل وتقليب نظراته من أسفل نظارته، كان ينتظر أن نفرغ من الكلام ليقول شيئًا. كلا، أحسب أنه صمت ليجعلني أنا صاحبة الشأن أقرر دون إملاءات.

قلت لأمي:

- يريد أن يتزوجني ليصلح علاقته بأخي! تبًّا كيف يفكر الرجال هنا؟ وهل يكون أولادي نتيجة لترميم صداقة بين رجلين غبيين؟ تبًّا أنا لست سببًا ولن أكون نتيجة.

استعجلت أمي وقالت:

- ومن تعتقدين نفسك؟

فكأنها باعتراضها قد أوقدت المرجل بداخلي:

- أعتقد بأني ابنتك، وبأنني لست كما يراني الناس مجرد متأتئة يسخرون منها أو يشفقون عليها، لتعلمي بأني لست بحاجة إلى شفقة أحد، وأنا أكبر ممن يرونني أدنى منهم.

تركت الطعام وأخذت أنتحب بمرارة فقال جدي متأملًا:

- دعيها تبكي، البكاء يداوي الندوب.

ثم قرب مني شوربة العدس مضيفًا:

- عندما تنتهين من البكاء خذي هذه الشوربه لتشفى يدك، العدس والدجاج جيدين لترميم الكسور، أفضل مما جاءت أملِ لتقوله.

غيَّر جدي الموضوع من اعتذار وطلب يد إلى فوائد الدجاج والعدس للعظام. ثم طرح على أمي اقتراحه الذي فكر فيه أمسِ فجدي رجل عملي لا يهدر الوقت.

- سنذهب أنا وطفلتي لزيارة أتريا في سوسة ونقضي عندها

بضعة أيام. سأهاتفها الآن وأرتب الأمر معها. إذا أردتِ إرسال شيء إلى أختكِ فجهزيه.

دفعت أمي طوال جلستها طرف الطاولة بالسكين حتى تركت فيها أثرًا، فقال لها جدي وهو ينهض متدعدعًا: اتركي الطاولة وشأنها يا نجاة، الطاولة كانت عزيزة على المرحومة، أهدتنا إياها أمها بمناسبة ميلاد محمود، رحمهم الله جميعًا.

كان جدي رجلًا عظيمًا.

القدر يدفعنا نحو مصائرنا طوعًا وكرهًا

حين كنا صغارًا كنا نضحك ساخرين من تِتي أتريا لأنها تقول سوزوسا بدلًا من سوسة وقوريني بدلًا من قورينا معتقدين أن غرابة نطقها بسبب أسنانها التي تخرجها من صدريتها لتأكل بها ثم تقوم بتعقيمها في محلول ملحي قبل أن تجففها وتعيدها إلى صدريتها مرة أخرى.

كنا نخاف تلك المرأة الخارقة التي لديها القدرة على انتزاع أسنانها وإدخالها في صدريتها ونتخيل ما يمكن أن تفعله بتلك القدرة متى طلبت منا الهدوء من أجل أن تأخذ قيلولتها ولم نستجب لها، جعلتنا نحجم عن إزعاجها، فهي إن استطاعت اقتلاع أسنانها من دون ألم ودم والاحتفاظ بها في صدرها ألن يكون بمقدورها أن تفعل بنا أشياء أخرى غريبة تتعدى انتزاع أسناننا وأظافرنا وإعطاء أقدامنا للعفاريت؟!

كنا نتسلل إلى غرفتها لتأملها وهي نائمة كيف تنام، واضعة أسنانها بجانبها على الكومودينو، مسدلة على قدميها منشفةً للحيلولة

دونها ودون الكائنات غير المرئية التي تأتي في الليل وتأخذ أقدام النيام وتمشي بها واضعة مكانها الكوابيس والأحلام المزعجة.

كنا نحفظ شكل المنشفة كي لا نمسها بعد مغادرة تِتي أتريا إلى سوسة. كما كنا نربط كلامها أثناء النوم بأسنانها المنزوعة ونومها ممددة على ظهرها إلى أن كل من ينحدرون من إغريق قورينا وسوسة يتأثرون بالموتى الأزليين الذين يشاركونهم المدينة نصفًا بنصف إلا أن الموتى لا يشخرون وتِتي أتريا يصل شخيرها إلى روما.

كان أخي أيوب يحيك لنا قصصًا مخيفة عن بيت تِتي أتريا وعن البحر الذي غمر جزءًا من البلدة القديمة وسيغمر بيت جدي لا محالة بعد مضي تِتي أتريا إلى ربها، لعله في انتظار رحيلها ليفعل، فالبحر ليس ببعيد لكنه لن يتمدد ليغرق امرأة غارقة في الوحدة.

حكى أيوب القصص عن تلك البلدات الصغيرة التي يمتعض من زيارتها بسبب فصفصة ساكنيها، لذلك دائمًا ما قال لخالتي: تعالي أنتِ إلينا فنحن نقيم في جزيرة نائية في الفويهات، كل يغلق بابه على نفسه ولا يختلط إلا بمن يختار.

وكانت تتي أتريا ترد عليه ساخرة: إذن تعالَ واصحبني من حافَة الطريق إن خشيت أن يسألك أحد هنا ماذا جئت تفعل عندنا؟

لم يكن بيت تِتي أتريا الذي يشبهها في سوسة غريبًا عنا، كان مألوفًا لنا وفيه من الذكريات والمشاعر الدافئة ما فيه، كيف لا وهو

نفسه بيت جدي الذي احتوانا صغارًا ثم آل بعد وفاته بوقت قصير إلى خالتي وأمي ليحمل شخصية خالتي من ثم.

لم يخص جدي يعقوب تتي أتريا بوصية كما ألحت أمي مرارًا: يا أبي اكتب البيت لأتريا، أتريا غير محظوظة، توفي زوجها ولم ترزق بأطفال، ونديم أخي صاحب نفسه وأصهاره ولا ثقة به سندًا لأحد، سيخرجها من البيت بمجرد أن تغيب عن الدنيا. اكتبه لها يا أبي كي لا تشقى من بعدك، اكتبه لها أتريا طيبة وتستحق.

لكن جواب جدي كان مماطلًا: «إن شاء الله تعالى إن شاء الله تعالى» إلى أن توفاه الله تعالى. والسبب تفضيله للذكر الوحيد الذي أنجبه وأحبه وميزه ثم حين أصابه الكبر والضعف لم يكترث به وبمرضه وعجزه فهجره في عهدة تِتي أتريا وسافر إلى أزمير.

كانت آخر كلمات جدي وهو يقبض يدها وينطق بصعوبة: نديم.. نديم، أريد رؤية نديم.

وكانت تِتي أتريا تنظر إلى عينيه مشفقة عليه من الإجابة التي لطالما أنكرها وتهرب منها قائلة له كي يطمئن قلبه: اطمئن يا أبي اتصلت به وهو في طريقه إليك.

وفي الواقع الرحلة طويلة وليبيا مغلقة بلا طيران بسبب رعونة القائد مع العالم.

كانت الحجة دائمًا أوضاع ليبيا الشائكة المتخبطة ففيها حجة لكل باحث عن حجج.

كانت خالتي تتصل بأمي باكية وتوصيها أمي بالصبر والمزيد من الكذب على الجد المسكين فمن أين لابنتيه بأخيهما الذي هاجر إلى تركيا وانقطع فيها لا يسأل عن أحد ولا يهتم بأحد ثم لمَّا مات أبوه عاد ليأخذ ميراثه فقط!

لم تملك تِتي أتريا المال لشراء حصة نديم من البيت وطرده من حياتها إلى الأبد، كانت الحياة الاقتصادية في ليبيا مضنية ولا تسمح بالكفاية أو الوفرة مهما كد المرء فيها من الصباح إلى المساء. اضطرت أمي والحال هكذا إلى معاضدة استقلال شقيقتها وراحتها فتقاسمتا شراء حصة أخيهما معًا كي يؤول البيت إليهما. وقد ساورني الظن مرارًا أن جدي أحمد عمران ساعد أمي لتساعد أختها ومدها سرًّا بتوفية للمال كي لا تثار غيرة بنيه وبناته، فنجح الأمر وغدا البيت لخالتي وأمي وصرنا نذهب إليه في الصيف والعطلات كبيت لنا في الريف البحري. خلال تلك السنوات الطويلة التي عاشتها خالتي في البيت لم تكلم أمي أختها في شيء عنه حتى صار روحيًّا بيت تِتي أتريا وحدها.

عملت تتي أتريا في مستوصف سوسة، ثم ذهبت للتقاعد وحصلت على شيء من المال صانت به البيت وانزوت فيه إلى حياة هادئة مع أصدقائها وكلابها وقططها وبستانها الصغير، نزورها وتزورنا بلا انقطاع، ونحبها ونتلطف بها فهي الباقية لأمي من ذويها وأمي كذلك بالنسبة إليها أما خالي نديم فلا أحد يتكلم عنه أو يذكره بشيء حتى كأنه لم يولد ولم يوجد.

حين غدونا في بيت خالتي أنا وجدي لم يتوقف جدي عن قدح أيوب وصنيعه أمامها وكأنه لم يسرد لها تفاصيل ما حدث في التلفون ويتبادلا الكلام فيه، غير أن عقلي كان يهدأ وأصبح أفضل كلما سمعت حديث جدي، فلعله رمى إلى ذلك كي يمتص الغضب من قلبي ويحرر أيوب من طائلته، أما خالتي فكانت على قولٍ واحد: لا تحزني سنأخذ بثأرك من الولد الطائش، وسأساعد أختي في البحث له عن عروس قريتلية.

وهي كلما قالت ذلك جعلتني وجدي نتبادل النظرات مبتلعين ضحكة ساخرة ثم إذا خلونا بعضنا إلى بعض ضحكناها معًا بقوة.

- خالتك أتريا تثبت أنها قريتلية أصيلة، فالغالب على طبع القريتلية تفضيلهم للمصاهرة فيما بينهم وإن لم يجدوا كان الخيار الثاني من الشركس أو التركمان أو الكراغلة الليبيين.

- هل تعني أن أمي تزوجت بأبي لأنها لم تجد قريتليًّا؟

- أمك أنا من سبقت إليها القريتلية في سوسة كلها وخطبتها لأبيك من صديقي وأخي يعقوب -رحم الله جدك وأباك- كان جدك من أعز أصدقائي، كبرنا معًا في سوسة وكانت أيامنا فيها حلوة هادئة، أذكر أننا كنا في طريقنا إلى مخبز إيزار القريتلي -هذا الذي ذهبنا إليه أمسِ مع خالتك- وقد هبط الموضوع فجاءةً بيننا فقلت له يا يعقوب يا صديقي أنا أحبك مثل أخ لي لم تنجبه أمي وأتمنى أن تتلاحم جذوري وجذورك في عائلة واحدة، فسكت قليلًا مفكرًا في مغزى

كلامي ثم قال: أما أتريا فقد صارت لمصطفينو كلافاس وأما نجاة فما زالت صغيرة. فقلت له: أريدها لمحمود. فأطرق قليلًا ثم سألني عن مسعود، فقلت له: مسعود متعلق بفتاة ألمانية تدرس معه وأظنه سيتزوجها لكني لم أخبر أمه بعد.

- وماذا قال لك عن أمي؟

- سكت قليلًا كأنه يفكر في الاقتراح، وأخفض رأسه إلى الأرض ثم قال: برنس هذا المحمود. شعرت أنه كان سعيدًا وكانت تلك موافقته المبدئية.

- ثم؟

ضحك جدي:

- ثم نسي جدك أن أمك صغيرة ولم يجادلني كما لو أنه فضل سؤالها والرجوع إليها. جلسنا بعد ذلك أمام المخبز مع بعض القريتلية الذين اعتادوا الجلوس هناك وشربنا الشاي وتبادلنا الأحاديث، كان المخبز كالمقهى الجامع لهم، تركنا موضوع الزواج واحتسينا الشاي وأكلنا كعكًا طازجًا جاءنا به صاحب المخبز، وتكلمنا في مواضيع أخرى كنت في ذلك الزمن صاحب تجارة ما بين بنغازي وضواحيها وكان جدك من رياس سوق السمك في سوسة.

- وأمي ماذا قالت عن أبي؟

- اسأليها هي (ضحك جدي).

- أمي لا تتحدث عن شيء وكأنها لا تريد أن تتكلم.

- أمك امرأة صبورة وعظيمة لن يختلف اثنان على ذلك.

ثم بعد صمت وجيز تنهد قائلًا:

- جيل اليوم مختلف لا يستطيع أحد أن يخطب لأحد بمثل تلك البساطة، اليوم يخشون التورط في المشاكل والإحراجات بسبب عدم الثقة بسلوك أبنائهم. خالتك تظن أن أيوب ناعم من الداخل كما يبدو من شكله الخارجي، لا تعي أنه قنفذ صعب، أرجح أن أمك لن تورط نفسها مع عائلة محترمة بشأنه.

- كلا. أمي تحبه وتخضع له وتتناسى حدة طبعه، كأنه هو من أنجبها وليست هي.

- إنها أم. أيبيه يا بنتي.

- لتحتمل حماقاته هي أما نحن فلسنا أمه كي يتوقع منا نفس المعاملة ليذهب إلى الجحيم.

سكت جدي واحتد مزاجي.

خلال إقامتي في سوسة أخذ يومي طابع يوم تِتي أتريا، إفطار صباحي باكر، نخرج بعده رفقة جدي في جولة بالسيارة في ربوع البلدة الآسرة، نذهب إلى سوقها الصغير نتبضع حاجة يومنا، نمر بمخبز إيزار، ثم نقفل عائدين، تعد تتي أتريا الطعام أساعدها في بعض أعمال البيت التي أستطيعها بيدي اليمنى، تنادي أصدقاءها

من الموقع الأثري ليشاركونا الطعام أو تأخذ إليهم قسمًا منه، نذهب إلى قورينا لشراء بعض الأشياء التي لا تجدها في سوسة، المسافة ليست بعيدة والطريق جميلة، نذهب إلى البيضاء لزيارة بعض الأخوات من الراهبات الباقيات في المستشفى وللحصول على أدويتها بعناية خاصة منهن، نذهب إلى مسة قريبًا من البيضاء لشراء عنبها الجيد للخل والنبذ في البيت. نشتري عسلًا جبليًّا من الطريق ونعود إلى البيت وتتجدد دورة الحياة.

حسَّنت سوسة مزاجي كثيرًا كما أن جدي تحسنت صحته هو الآخر من بعد اعتلال وارتاح قليلًا. أما الجامعة فقد نجحت نسبيًّا في طردها من رأسي، امتحاني القادم وماذا يقول زملائي عني وكيف ستكون عودتي إليها لم تعد تحتل صدارة تفكيري قبالة ما صار يشغله فعلًا وهو الاقتراح الذي طرحه جدي في إحدى الأماسي على أصدقاء خالتي، وخلق منعرجًا جديدًا وجديًّا في أفكاري.

كان اقتراحًا مفاجئًا من جدي -مثل عرض زواج أبي بأمي- اقترح فيه أن أتدرب على أيديهم بعد تخرجي وأن يساعدوني بمنحة تدريبية أجنبية أستكمل بها دراستي.

لا أدري هل جدي الذي كان يتكلم أم قدري هو ما جرى على لسانه؟!

قال الشيخ ما يرغبه ويتطلع إليه دفعة واحدة وكأن عليه أن يقوله وعليهم أن يسمعوه لأنه لن يعود ليلتقيهم مرة أخرى. بدا

كلامه غير مدروس وغير واقعي قياسًا إلى واقع ليبيا المحدود، فالدراسة في الخارج حكر على ذوي السلطة ومن دار في فلكهم ومن أوتي لديهم وساطة عظيمة. إضافة إلى أن الدولة التي بيدها مقاليد الإيفاد لن توفد ابنة رجل اتهمها بسرقة ماله وقضى في أحد سجونها.

أما في طيات الأمر غير البادي للعيان، فقد كان جدي عاقلًا إلى درجة لا تعقل ومعارضًا للواقع الميؤوس منه إلى درجة يصعب تفسيرها، وما كان له أن يقول ما قاله من دون حدس أو دافع، فالمنحة مقدمة من جامعة أو مؤسسة أجنبية ولا دخل للدولة الليبية بتسييرها.

كان المشهد قبالتي كأنما اجتزئ من فيلم أو سقط من تلفاز خالتي أو رمى إلينا به التلفزيون إكبارًا لاختيارنا سوسة نسكن لأنفسنا فيها، لم أصدق ما سمعته وظننته مجاملة بادل فيها الضيوف كرم المضيف حتى قالوا له: سنبذل جهدنا بالخصوص.

وزاد أحد الأساتذة ويدعى إدواردو: هناك منحة أستاذنا الراحل سيباستيانو توزا، رئيس البعثة الأثرية الخاصة بشواطئ برقة اقتطعتها له زوجته باسمه بعد رحيله، بمقدورك الحصول عليها.

جعلتني سوسة ببقعة الضوء تلك أنسى ما جئتها من أجل نسيانه كما جعلتني لا أنسى أبدًا أن أول لقاء بقدري كان فيها. لم يخطر ببالي أن تلك البلدة الصغيرة التي ينعقد لسان البحر المتوسط فيها، الحافية بأصالة نادرة جمعت أجدادي من جزيرة كريت بأجدادي

من الشركس، هي التي سترسم قدري إلى الأبد وتعيدني إلى ضفة المتوسط المقابلة التي هاجر منها أجدادي الأولون.

مضت أيامي في سوسة تشبهها في الوداعة، تصحو خالتي باكرًا، تتحرك بهدوء يتناغم معها، تصفف شعرها الأشيب وترتدي أحد فساتينها التي خاطتها بنفسها وتخرج إلى حديقتها كامرأة أفلتت من أحد أفلام فيلبيني تسقي زرعها، وتطعم قططها وكلابها ثم تشرع لها البوابة لتحريرها، تعد لنفسها ولجدي القهوة والفطور، يجلسان في فيء شرفة المطبخ تحيطهم أشجار حديقتها وزروعها. وتدور الأحاديث كما لو أنها بانتظارهما عند عتبة الباب ليحكياها، لم استغرب أن يدور حديث الصباح عن القديد الحايل[1] أو عنب مسة الفاخر أو هجرات الإغريق إلى ساحل سوسة أو مغامرات سحرة المغرب وصعاليك الجزائر في المقابر الأثرية بحثًا عن الكنوز والدفائن. أحاديث قد لا تناسب الصباح إلا إذا جاء بها عمودان من عواميد العائلة.

كانت تتي تغلق الباب المؤدي إلى حجرات النوم لئلا تزعجني، لكني غالبًا ما أكون صاحية وأتمهل النهوض من فراشي حتى إذا احتاج جدي المساعدة للحمام أو ارتداء الملابس وناداني يجدني، يتناهى إليَّ شيء من حركتها في البيت ومحيطه. أسمعها تمشي الهوينى لتقطف بعض الفاكهة من حمضيات بستانها تضعها لنا على طاولة الطعام أو لمن سيمر من أصحابها وهم غالبًا يمرون فمعظمهم يعمل

---

(١) مر عليه الحول.

في الموقع الأثري القريب من بيتها. أربعة منهم هم من تتواصل معهم ويتواصلون معها بشكل دائم، أكبرهم سنًّا كان عجوزًا إيطاليًّا يدعى كلاوديو فريجيرو، أمضى ما يزيد على الثلاثين عامًا ما بين سوسة وشحات، يتكلم لهجة أهلها بمهارة ويحضر مناسباتهم ويعشق السباحة في شواطئ سوسة وطلميثة والحمامة، وصيد الأسماك بالمهارة إياها التي يصطاد بها الحمام النيسي من أسلاك الكهرباء في شوارعها.

الآخر هو البروفيسور جيمس ثورن، إنجليزي عاش في قورينا أكثر مما عاش في بريطانيا، أنجز أكثر من ألف رسم للمقابر القورينائية مقيم بشكل دائم مع زوجته السيدة دورثي والآخرين في مقر استراحة الآثار.

أما أصغرهم فهو إدواردو بنينو أحد تلامذة الإيطالي العجوز، أمريكي من أصل صقلي، يعمل باحثًا لصالح جامعة السوربون، مختص في مدن الموتى خارج اليونان. والنيوكوليس في قورينا هي موضوع أطروحته للدكتوراه ولديه اهتمام كبير بالآثار الغارقة في ساحل سوسة.

كان أقلهم كلامًا وأكثرهم نبشًا للطعام دون إنهائه. يترك صحنه ليدخن ثم يعود إليه فيلتقط منه لقيمات وعلى ذا النحو لا ينتهي من الأكل ولا من التدخين، كأن عمله في المقابر جعله كذلك خلافًا للبروفيسور جيمس ثورن الذي قالت زوجته إنه ينسى أمر الطعام والشراب ما إن يدخل المقابر ولا يكترث بالزحف مثل السناجب

بين الأقبية لكي يرسمها ويخرج منها كالجرذ الملوث بالتراب عندما يطبق الظلام.

ثم يأتي «عبد الله صوفيا» المرشد السياحي المحلي الملازم للبعثات، ترى فيه خالتي مراقبًا أمنيًّا من قبل الدولة أكثر منه مرشدًا سياحيًّا لا تحتاجه البعثات التي تعرف عن الآثار أكثر مما يعرف، كان الجميع يعلم أنه كذلك لكنهم لا يتصرفون كعارفين وكان إدواردو لا يحبه ليس بسبب أنه مخبر بل لثقل جانبه.

ضحكت خالتي حين أخبرتني عنهما:

- إدواردو يكره عبد الله كما يكره زوجته الإيطالية.

- وما بال زوجته؟

- يخوض معها قضية طلاق شائك منذ سنوات، أتعبته. نحن هنا نطلق سرًّا على عبد الله اسم زوجة إدواردو «عبد الله صوفيا» هاأهاأ يا للمسكين إنه ساذج بسيط.

- و لماذا يكرهه إدواردو؟

- عبد الله لديه الفضول الشائع لدى البدو، وهو فضول يتنافر مع ثقافة الأجانب التي تحترم الخصوصية وتقدرها، عبد الله لا يشعر أنه ثقيل وأن هؤلاء أجانب لا يحبون ملازمة أحد لهم كظلهم، إدواردو لم يستطع أن يوصل لعبد الله رأيه فيه بشكل ودي غير مهين، من سنوات حاول إفهامه وعبد الله يحتاج قرنًا على ما يبدو لكي يفهم. هل لاحظتي ليلة العشاء

كيف كان يتجنبه ويتحدث إليك بينما عبد الله يحوم حولكما حاشرًا أنفه (تضحك خالتي) كنا نرى وجه إدواردو يمتقع ونسأل عبد الله ما به إدواردو فيقول: ربما تؤلمه معدته.

- على فكرة هو دعاني إلى زيارة المقابر.

- من؟ عبد الله؟

- كلا، إدواردو.

تضحك خالتي مجددًا:

- يريد الهرب من عبد الله بأي شكل، هل تريدين الذهاب إلى النيكروبولس فعلًا؟

- نعم أريد.

- الدخول هناك ممنوع لغير أعضاء البعثة. لكنه سيتصرف.

- سيتدبر الأمر هكذا قال.

- لكنك زرتها مرارًا معنا؟

- أجل حين كنت صغيرة، الآن سأراها بشكل مختلف.

فرحت خالتي لأني بمخالطة الغرباء أتخلص من مشكلة تعثرني وتربك حياتي يتداخل فيها الخجل مع التأتأة فيزيد أحدهما الأخرى أو يضفي عليها من طابعه.

أخذتني سريعًا إلى قورينا قبل أن أغير رأيي. أوقفت السيارة ومشينا مسافة لا بأس بها على الأقدام فلما دانينا الحبال التي سيجت

الموقع، نادت كلاوديو فظهر لنا بعد لحظات العجوز الإيطالي كسنجاب اعتمر قبعة قش، لا تعلم كم رأس يطل عليك من حفرة أو من وراء صخرة أو من خلف تمثال إذا ما ناديت في ذلك الهدوء، ولا شك أن رأس عبد الله صوفيا سيكون إحداها حتى وإن لم تره بالعين المجردة.

قالت خالتي مشيرة إليَّ: هذه حفيدتي هل تتذكرها ياكلاوديو؟

شيع العجوز قبعته وأجابها:

- لست فاقدًا للذاكرة كارا أتريا.

- أوو.. ظننتك أصبحت كذلك بعد عشاء تلك الليلة.

ضحك العجوز وهو يأتي تجاهنا:

- لن تفلتي مني، لن يكون العشاء الأخير على أي حال مهما حاولت. أنا عجوز يحب الأكل والتدخين ويكره النصائح الطبية بشأنهما. هاتي يدك السليمة ياصغيرتي قبل أن تمر الدورية. هنا الجميع يرى كل شيء على أي حال.

اجتزت الحاجز، ظلت تتي أتريا واقفة في الأعلى توصيني بالحذر، ساعدني العجوز المغبر الذي إن قابلته في الشارع ظننته عامل بناء أو حفار قبور، وهو بالفعل حفار للمقابر الإغريقية والرومانية ونباش لتاريخها. هيكل عظمي جففته عوامل التعرية وثيابه بحاجة إلى الرمي.

أوصلني إلى حيث يعمل إدواردو، كان مقعيًا على ركبتيه يكنس

الأرض بمقشات صغيرة معفرًا هو الآخر بالغبار. سألني ما إن رآني:

- أهلًا وسهلًا، هل معك شيء تغطي به شعرك؟

أجبته: كلا.

أخذ العمامة عن رأسه ووضعها على رأسي، الواقع أنه وضع كمية كبيرة من التراب على رأسي دفعة واحدة، فالعمامة كانت مشبعة بالأتربة.

- دعيني أساعدك. صرت كتمثال المرأة المحجبة، أتمنى ألا يراك لصوص الآثار فيخطفونك، ثم من دون عراقيل فيزا وترانزيت هووب تجدين نفسك في دبي ومنها في أمريكا[1].

- حسنًا.

- تعلمين أن النيكروبوليس[2] تزيد عن ٥٠ كم، سنرى ما يسمح الوقت لرؤيته.

- نعم.

تسلقنا بعض السفوح حيث صفت اللحود في تجاويف بباطن الصخر على مدرجات، بعضها كان في تجاويف رطبة لا تصلها

---

(١) يرمي إلى التمثال الرخامي الشهير بـ«رأس المرأة المحجبة» القرن السادس قبل الميلاد، نهب من مدينة شحات، هرب إلى دبي ومنها إلى الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٨ ثم أعادته الولايات المتحدة إلى ليبيا سنة ٢٠١٩.

(٢) مدينة الموتى.

الشمس، كانت رائحة ترابها كالعظم القديم المبلل بالطل، كانت اللحود ترتفع في بعض أنحاء مدينة الموتى وتنخفض على سلاسل متصلة ومتقطعة كالسلالم، وهناك ما كان صغيرًا معزولًا في دهليز أو تجويف ضيق داخل الشقوق لا يمكن اجتيازه وقوفًا، طلب مني إدواردو في بعض نواحي النيكروبوليس الزحف ليمكننا الوصول، فلم يسعني ذلك بسبب جبيرتي، نظر إليَّ وقال: لا بأس المسافة ليست طويلة اصعدي على ظهري وتوكئي إن لزم الأمر بيمناك.

فتلعثمت: آآآ.

عاينني بعينيه: كلا أنت خفيفة.

كانت أول مرة أقترب من رجل إلى حد الالتصاق، كانت رائحته سجائر وصابون حلاقة وتراب. أما الدهليز فهواؤه رطب ورائحته رائحة تراب قديم تحلل فيه أناس من قرون مضت. تراب مختلف عن التراب، رائحته، ملمسه، لونه. شعرت حقًّا أنني أسير على ثرى الأجداد.

- حركي أي صخرة مهما كان حجمها وستخرج لك من تحتها حكاية يسهل معرفتها. دوسي أي بقعة من ساحل المدن الخمس (بنتابوليس) حتى الإسكندرية إنما تطئين أرضًا ثرية بالتراث المادي وغير المادي. ليست المسارح والمعابد والأقواس فقط ما بقي، فالكنوز المدفونة مع أصحابها تجعل العالم السفلي زاخرًا بالدفائن النفيسة من ذهب، وفضة، وأحجار كريمة، وفخار وتماثيل. أناس الحضارات

القديمة كانوا يأخذون مقتنياتهم معهم، حتى وهم ينتقلون إلى مرحلة أثيرية يؤمنون أن بإمكان المادة التي صنعت منها مقتنياتهم اختراق العالم الآخر والاحتفاظ بنفس سماتها في الحياة الأولى. لماذا أنتِ صامتة؟

- أسمعك.

كنت أعرف الكثير عن هجرات الإغريق إلى ليبيا في عصور مختلفة وعن حضارتهم في فترات ازدهارها البينة في الساحل الشرقي من ليبيا لا سيما المدن الخمس[1]، كانت علاقتي بالآثار الإغريقية هي علاقتي بكل ما تنتمي إليه أمي وما ينتمي إليها. فجذور أمي تعود إلى جزيرة كريت اليونانية.

فاجأني سؤال إدواردو لي: لماذا لا أتكلم؟ سؤال لم يسألنيه أحد من قبل، ربما لا أحد كان يبالي أن يسمع بقدر مبالاته أن يكون متكلمًا، لذلك لم يفتقد صوتًا غير صوته ولم يعِ حديثًا لا يكون له فيه ضعف الوقت من الكلام، إدواردو فاجأني بسلوك مغاير لسلوك الرجال لدينا، يفضلون أنثى صامتة تسمع لهم فقط وإن تكلمت تضايقوا وفتشوا في كلامها عمّا يُحدِث مشكلة تجبرها على السكوت أو عدم تكرار ظاهرة التكلم ثانية. إدواردو أعطاني وقتًا للحديث وهو يعي أني متأتئة!

---

(١) هي مدن أسسها الإغريق بداية القرن السابع قبل الميلاد في إقليم قورينائية بشرق ليبيا. قورينا - أبولونيا - برقه - يوسبريدس - توخيرا.

أعطاني ما كنت بحاجة إليه دائمًا من الآخرين دون أن أطلبه منه أو أوحي إليه به، من تلقاء تربيته وتكوينه سألني أن أتكلم، ومنحني الوقت لأتكلم، شيء لم اعتده إلا من قلة محددة. تلك الاستجابة كانت دلالتي للآخرين ومحدد علاقتي بهم قربًا وانفتاحًا أو عزلة وابتعادًا.

الفرصة للكلام والتعبير عن نفسي.

- هل زرتِ قورينا من قبل؟

- كثيرًا.. سوسة وقورينا هي مرابع أمي.. كنا نأتي ونحن صغار إلى بيت جدي هنا ونطيل البقاء في الصيف من أجل البحر.

- أها تسبحين إذن؟

- نعم أسبح بشكل جيد منذ الطفولة.

- أنا كذلك أحب البحر هناك، نظيف وصافٍ مثل شواطئ صقلية وفيه أنواع سمك لذيذة.

عدت إلى البيت وقت الأصيل متعبة، مشعثة مغبرة مع شيء من الألم في يدي بسبب تخلخل جبيرتي. أخذتني خالتي في الصباح إلى المستوصف وأجرت لي صديقتها الراهبة «تشليستي» مسحًا سريعًا، فاتضح حاجتي إلى ترميم الجبيرة.

لم تتوقف خالتي عن لومي طوال عملية ترميم الجبيرة ولم يفتر ثغري عن كلمة. كنت مشغولة بالمقابر ورائحة إدواردو واتصال

أمي الصباحي وآمال ابنة عمي التي ستكون في بنغازي مطلع الشهر المقبل. في السيارة كان على الطابلون بقايا فاكهة مقضومة سألتني خالتي مجددًا:

- لماذا توكأتِ على يدك وهي مكسورة؟

فسألتها بدوري:

- لماذا كل هذه البقايا في سيارتك؟

- وهل هذا وقت السؤال عنها؟

- لا أدري، ورد في بالي الآن.

- أحيانًا تتكلمين مثل جدك.. أسأله عن أمر ما فيعلق لي عن آخر. أمك تسأل عنك على كل حال.

- سأتصل بها في المساء.

- لم تخبريني ماذا تحدثتي أنت وإدواردو أمس.

- كم هو بعيد الطريق إلى وارسو كما يقول جدي.

- تكلمي بشكل جاد.

- بشكل جاد كان هو شهرزاد وأنا شهريار.. تكلمنا عن الآثار.

- المسكين في الفترة الأخيرة يبدو متعبًا جدًّا من مشاكله الشخصية.

- لماذا الطلاق لديهم أصعب مما لدينا؟

- نحن سهل لدينا الهدم والبناء، بينما لديهم عقَّدت الكنيسة كل شيء. هل سيأتي الليلة؟

- لا أعرف.. لم يخبرني.

- هل ترغبين في «سفنز» من إيزار، سنشتريه في طريقنا. ضبطت طقم أسنانها في المرآة.

- لا بأس، جدي يحبه مع شاي العصر.

في المساء زارنا كلاوديو وإدواردو، كان إدواردو قد أزال شعر رأسه كاملًا فصار مثل القرد المصاب بالبهاق، رأسه بلون وجسده بآخر.

شيء ما في أعماقي أراد شم القرد.

****

أول ليلة عدت فيها إلى جليانه ووضعت رأسي على وسادتي أحاطتني مشاعر غريبة، كأني ما زلت في سوسة ولست في جليانه، فكرت في تتي أتريا التي تعيش وحيدة من دون أنيس. وفي شكل الليل كما خبرته هناك وفي وسادتي والغرفة والسرير وفي نفسي لما كنت هناك وفي البيت من دوني ومن دون جدي، وفي المقابر المهجورة، فكرت في مدى قدرة الإنسان على أن يألف الوحدة بينما يتقدم في السن، أتريا، جدي، ربما أمي بعد أن نتزوج ربما أنا كذلك ما لم تحدث معجزة يصبح بها زواج المتلعثمة في مجتمعنا أمرًا عاديًّا.

يبدو أن الزواج ليس أكثر من محاولة للقضاء على الوحدة بالوحدة. لا بأس الجميع يلعبون هذه اللعبة من أجل ألا يكون المرء فردًا «رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين».

ربما يحتمل الإنسان قدره بما يمنح من قدرة على التحمل توازي ما قدر له، ربما أراد جدي أن يريني كيف على المرأة أن تكون، قوية، غير مهشمة بتصرفات الآخرين، مستغنية، مستكفية، متعففة، ناهضة بنفسها وشؤونها، ربما أراد أن يريني كيف تعايش الناس في ذلك المجتمع الريفي الصغير على اختلاف مشاربهم وكيف يتسع الريف كما تتسع المدينة لأن الأمر وقف على الناس وليس على المكان.

أتريا التي لديَّ جزء منها، جزء يشبهها لا بد أنني لم أدفعه إلى الظهور والحضور بعد، لم أنشطه من أجلي، جدي إنسان ذكي فعلًا إن قصد إلى ذلك والأيام سوف تبين لي.

عدت برائحتها ونمط يومها وأحاديثها، قلبت رأسي الذي لا يأتيه النوم على وسادة جليانة، شيء ما في داخلي أبقاني يقظة، أشبه بطفل صغير نام النهار كاملًا ثم صحا ليلعب الليل بطوله.

- لماذا تهتم بالآثار الغارقة على الرغم من أنك تخصصت في المقابر اليونانية خارج اليونان؟

- الآثار الغارقة هي آثار مقبورة، ومنها أيضًا مقابر، هل تعلمي أن صخرة سوسه التي يقفز من فوقها الشبان للبحر ما هي إلا بوابة مقبرة إغريقية مطمورة تحت البحر؟

- هل قدمت ورقة إلى مصلحة الآثار الليبية بضرورة التنقيب عنها؟

- أصدقائي من الأثريين الليبيين في مراكز حساسة في مصلحة الآثار أسرُّوا إليَّ بتسويفهم المقصود لملف الآثار الغارقة.

- لماذا؟

- حفاظًا عليها من سلطة لصوص السلطة. إنهم غير مطمئنين لجانب الدولة، تعالي أريك قبور أجدادك المعلقة.

- في ماذا تفكرين؟

- لا أدري.

- هل نكمل أم تعبتِ؟

- نكمل.

نظرت إلى يدي التي أمسك بها إدواردو في الظلام وحدثت نفسي:

لم يسبق لي أن سمحت لرجل برفقتي.. وحدثتني نفسي أنني أسمح لرجل مختلف، ولخليط من ثقافات ودماء أن يحاذيني، إنه مثلي غير مفصول عن المدارات الزمنية والمكانية التي كونته وجعلته ما هو عليه.

قالت تِتي أتريا يوم أن رأت أضواء كريت من ظهر قارب في عرض البحر: إن ذلك الضوء مكاني أيضًا.

سألتها:

- أوَ ركبتِ البحر ورأيتِ أضواء كريت؟

قالت: بلى، وماذا تعتقدينني؟ صَدفة منزوية على نفسها؟

- مع من ذهبتِ؟

- آخ يا بنت مع من؟ مع الذي يجب أن أكون معه. كفي عن الأسئلة السمجة، لا شأن لك مع من ذهبت.

وبعد صمت وجيز قالت: ذهبت مع المرحوم مصطفينو ذات ليلة هادئة، كل قريتلي أصيل لا بد له أن يطل على كريت على طريقته. أن يميل قلبه إلى الجذور حتى وإن لم يولد هناك.

- كان زوجك قريتليًّا منغلقًا ومتحيزًا.

- الكريت مندمجون مع أنفسهم أكثر.

- وهل كريت بعيدة؟

- كلا.. بيننا وبينها الماء، في الليالي الصافية تلوح أضواء كريت من بعيد، نستطيع أن نراها رأي العين. حين كنت صغيرة كان جدي يكلمنا عنها ويرسل إليها القبلات كلما وقف على الشاطئ، مسكين فر من هناك صغيرًا إبان مذابح المسلمين والمسيحيين.

طَفَتْ في عيني المفتوحتين صور ذلك الجد العتيق في صدر البيت العتيق وكأنها رسم بارز أتلمسه في ظلام الغرفة، شنبه المعقوف

وثيابه اليونانية التقليدية، السروال الواسع، البوط والحزام والقميص والصدرية والطربوش. ملامحه التي تسكن وجوهنا متفرقة.

عندما تتحدث تِتي أتريا عن كريت تتحدث من ذاكرة العجوز التي عاصرتها تمامًا كما أتحدث من ذاكرة جدي الذي جايلته. وبشكل غير مباشر ذلك العجوز الذي تحدث اللهجة الكريتية القديمة وحافظ على هيئته نفسها حتى وافاه الأجل وتعلقت صوره بيت تِتي أتريا تقاسمني مع العجوز الحالي الذي خرجت من سريري وتسحبت إلى غرفته والتصقت بظهره، هربت إليه من أفكار شجية شاركتني سريري فتركته لها حتى لا تتمكن مني ولجأت إليه، جدي كان مجرد جسد واهن يستلقي على ركنه مشخرًا بصوت رتيب. حضنته من ظهره، حضنت شيخوخة أحبها، حضنت كولونيا أكوا دي بارما وبكيت بصمت لاذع كي لا تزعجه دموعي. لكن الشيخ العجوز تفطن إليَّ وسألني عمَّ بي:

- ما بكِ؟ هل أنتِ خائفة؟

- آآآ.

- اطمئني لا يوجد شيء، اسحبي الغطاء ونامي.

- أنااا أحبك يا جدي كثيراااً.

- وأنا أحبك أكثر مما تتخيلي أنت وإخوتك.

- لا أريد أن أتركك بعد اليوم وحدك.

- أنتِ لا تتركيني أبدًا، أنتِ دائمًا معي، نامي حبوبتي واستريحي.

تمتم كلماته تلك ثم واصل نومه وواصلت أرقي.

مذ عودتي تلك اتخذت قرارًا بعدم تركه وحيدًا، وهو أول قرار انفصال عن توأمي. لم أقصد به الانفصال قدر ما قصدت عدم الترك.

وردية ليل

عند الباب وقفت امرأة ممتلئة، شعرها أحمر قصير، اعتنت بمكياجها وثيابها وارتفاع حذائها عن الأرض. عانقني عطرها قبلها، ولم تكفها ذراع واحدة مني للاحتضان.

- لم يخبرني أحد أنكِ صرت هنا.

- أنا تآمرت معهم عليك.

- سمنتِ حتى لا أستطيع عناقكِ بيد واحدة.

ضحكت:

- أصبح لديَّ مؤخرة عمتي مفيدة، إثبات نسب.. إثبات نسب.

- وزوجكِ أين هو؟

- تركته في تونس.

- ويزن؟

- يتعلم الرقص في بريطانيا.

ذهبنا إلى جدي في السرير، وأقمنا عنده جلسة عائلية من أمتع الجلسات ثم انزويت أنا وآمال لأحاديثنا الخاصة. هاتِ ما لديكِ، وخذي ما لديَّ.

أدت أختي امتحان الحضارة الهلينستية نيابة عني، هي تدرسها مع أستاذ آخر غير الذي أدرسها معه. لا أحد يستطيع التمييز بيننا، وضعت رباطًا حول يدها وحملت تعريفي الجامعي وتجهزت لتمثيل تأتأتي إن لزم الأمر.

- ألم يكتشفها أحد؟

- كلا. كان الامتحان بعد الظهر أي في الساعات الطاردة، حيث يحاول الجميع الخلاص من يوم جامعي ثقيل، دخلت قاعة الامتحان بعد الجميع بدقيقة حتى لا يسألها زملائي وصديقاتي.

- والأستاذ؟

- الأساتذة في الجامعة لا يتواجدون بعد الظهر في محاضرة فما بالك بامتحان، يضعون مشرفًا ويمضون.

- والكتابة كيف تدبرتها؟

- هي تكتب بيدها اليمنى على كل حال لكن معظم الأسئلة كانت موضوعية. ضع علامة صح أو خطأ عند الاجابة المناسبة وهكذا.

- وصديقاتك؟

- عادة من ينتهي بعد الظهر من محاضرة أو امتحان يغادر فورًا إلى البيت. لذا حرصت على المغادرة بعدهن.

- مجنونة، ماذا لو اكتشف أمرها؟

- هي تدرك أن العقاب هو الرسوب في المادة، ومن وجهة نظرها أن يكتب راسبة أفضل من أن يكتب غائبة عن الامتحان حتى لا أفقد فرصتي في الإعادة. أنا أخاف لا يمكنني أن أفعل فعلتها. هي أقوى قلبًا مني دائمًا.

- لكنها أنانية وتسببت في كسر يدك وتغامر بمستقبلك.

- ليست أنانية، لكنها تحسن تدبر خياراتها، تريد أن تتخرج وتتزوج وتعمل خطة واضحة للمستقبل، على عكسي أنا تتقاذفني الأمواج.

- ستتخرجين بعد أشهر، يجب أن تعرفي ماذا ستفعلين بعد ذلك.

- جدي اقترح اقتراحًا أعجبني.

- دعكِ من تنفيذ ما يخططه لك الآخرون، جدي نعم طيب ويريد لك الخير، لكنها حياتك أنت.

- أنا أحب استشارته ويطمئن قلبي لرأيه.

- مشكلتكِ عاطفية.

- هل ترون هذا عيبًا فيَّ أو ضعفًا؟

- كلا.

- لكني أشعر من داخلي بالرضا، كما أن الله طرح البركة دائمًا في كل شيء توكلت عليه وسرت فيه.

- طيب يا ستي، هاتي أخبريني ماذا خطط لك الكهل.

- اقترح أن أعمل في الترميم في سوسة، يرى أن فرصة الحصول على عمل ستكون أسرع منها في المدينة ومن الإدارات المكتظة بالعمالة الإدارية، ثم سيساعدني أصدقاء أتريا في الحصول على منحة أجنبية.

- يعني ستتركين بنغازي وتقيمين مع أتريا؟

- نعم.. سوسة جميلة وليست غريبة عني.

- وهل ستنسجمين بسهولة في الريف البحري؟

- سأكون مشغولة في العمل وسأعود إلى البيت للراحة والنوم، في الإجازات أزور بيتنا في بنغازي.

- وأختك؟

- ستتزوج حال تخرجنا، هذا ما قررت مع الحبيب.

- وأنتِ ألن تتزوجي؟

- أنا لم أحب أحدًا ومن يتقربون مني يتقربون بغرض اللهو والتسلية.

- الحب ليس أهم شروط الزواج. أنا تزوجت عمر وأنا لا أحبه وحياتي تسير سيرًا جيدًا.

- أعني لم يجذبني أحد وإن بشكل بسيط.

- ولا أحد من الجامعة؟

- يااااه الجامعة، مجرد صبيان، أجسام البغال وعقول البغال أيضًا. ثم إني أشك في أن هناك ليبيًّا واحدًا ستوافق عائلته على زواجه من متلعثمة أو عرجاء أو كفيفة حتى وإن كان هو نفسه متأتئًا أو أخرس أو به خطأ تصنيع.

- ربما يوجد.

- نادر جدًّا.

- هل تعرف أمكِ بأنكِ ستنتقلين إلى سوسة؟

- سأتحدث معها بمجرد أن نجد الوقت.

تنهدت آمال وقالت:

- هي الآن مشغولة بتصميم القفص الذهبي لأيوب أفندي.

- أصبح أيوب عبئًا وأمي تريد تسليمه لامرأة أخرى حتى ينشغل عنا.

- كلما غبت عن ليبيا وعدت وجدت أيوب شخصًا آخر. حديثي معه أمسِ غابت عنه المطارق فقط.

- ماذا حدث؟

- كان حادًّا وجارحًا. وأنا لم أجامله بشأنك وبشأن رفيق عمره الذي أساء التصرف معه. كان كلامه كله صياحًا: «اذهبي

واستري نفسك، امرأة بضة مثلك لا يجِبُ أن ترتدي ما ترتديه في مجتمعنا وكأنها في ألمانيا». وكأن ملابسي هي سبب سوء سلوكه وعنفه.

- لا يطاق.

- قابلت مروان وتحدثنا، هو الآخر مذهول ومستغرب كيف فرط أيوب في صحبتهما بسهولة؟ هل تعلمين أن مروان ضحى كثيرًا من أجل أيوب ناكر المعروف.

- كلا، لا علم لديَّ.

- مروان هو من كان وراء تدمير سيارات جيران جدي الذين احتلوا شققه وسكنوها بقانون «البيت لساكنه»؟

- ماذا تقولين؟

- نعم، مروان دفع لمهاجر عاطل كي يعطب سيارات جيران جدي، لأن أيوب أراد تلقينهم درسًا!

- من كان يتخيل ذلك، هل علمت أمي؟

- كلا لم أخبرها ولن أخبرها.

- إياكِ، من فضلك ولا جدي كذلك.

- أيوب بات يعلم أني علمت بشأن السيارات وبشأن المعسكر أيضًا.

- ماذا هناك بعد؟

- لن ننام الليلة من أخبار أيوب أفندي.

- إنها الثالثة صباحًا. لا يوجد ما نفعله، الجمعة سننام براحتنا.

- إليكِ قصة المعسكر.. حين استلم مروان مهامه العسكرية بإدارة معسكر الرحبة، أتاه أيوب ذات يوم وسلمه بيانات عريف يرغب في استدراجه إلى معسكر مروان. عثر مروان على العريف ودبر لنقله إلى ثكنته حتى يكون تابعًا لإدارته ثم أوقع به دون أن يشعر في قضية تهاون وظيفي اتخذها سبيلًا لمعاقبته بالحبس الانفرادي ثم ذات ليلة دخل عليه السجن هو وأيوب وضرباه ضربًا مبرحًا دون أن يكشفا له عن وجهيهما.

- لماذا؟ لماذا يفعل أيوب ذلك؟

- ذلك الرجل كان العريف الذي ضربهما أيام أن كانا فتيين في الثانوية وجندا لحرب تشاد. أسرها أيوب في نفسه حتى عثر عليه.

- لا أكاد أصدق أن من تخبرينني عنه هو أخي!

- ولا أنا لولا أن مروان نفسه هو من أخبرني.

- ربما كان هناك المزيد مما لا نعرفه عنه. أيوب شخص مخيف ولا يغفر ولا يسامح حتى وإن بدا غير ذلك.

- ربما من يدري. الرجل الذي ينسى تضحيات صديقه وينقلب عليه ويسبه وينعته بالبدوي المتخلف أمام الناس وكأن البداوة عيب أو عار مشين، توقعي منه أي شيء.

- يشغلني دائمًا ما سيحدث لنا إن مات جدي وصار أمرنا إليه؟

- إي والله، أطال الله عمر جدي، فوجوده يحول دون وقوع أشياء كثيرة لا نرغب أن تقع.

- يضيق صدري ويسود مزاجي بمجرد أن أفكر في غياب جدي. إن عقلي لا يتقبل أبدًا فكرة عدم وجوده.

- لكننا سنموت جميعًا في نهاية الأمر!

- أعرف وقد نموت نحن قبله لكني لا أتقبل فكرة رحيل أحد من أهلي.

- دعينا من الحديث عن الموت قبل النوم، أخبريني عنك.

- ماذا؟

- الحب.. أشياء من هذا القبيل.

- ههههه لا يوجد شيء، أنتِ فضولية.

- إيه، بخصوص الحب أنا دائمًا فضولية ومهتمة.

كانت آمال امرأة جريئة، متدفقة، تحب حب الحياة وتدعو إلى نيل أطايبها بلا حدود. تحب أحاديث الحب لكنها عقلانية عند اتخاذ القرارات. غير مبالية بانتقاد العائلة لها لزواجها برجل أعمال ينتمي إلى الحرس الثوري، ولا مبالية كذلك لقالة الناس عنه. كانت تدرك أن العائلة تعتبرها أرملة مع وقف التنفيذ، إذ لا أحد يسأل

عن زوجها ولا أحد يدعوه ولا أحد يزوره أو يتعاطى معه، إنه منسي وفي حكم الميت بالنسبة إليهم.

لكنها لم تبالِ في عمر الرشيدي بغير راحتها الشخصية واحتياجاتها، ولا تلقي بالًا لشبهات الفساد التي طالته في حوادث عامة، كصفقة استيراد سيارات كورية أدارها ثم جاءت السيارات من دون منافض السجائر (جلب الرشيدي المنافض لحسابه الخاص وباعها في السوق السوداء) في تلك الحادثة التي صارت حديث الناس صرحت آمال بأنها لن تترافع عنه إذا ما سجنوه أو حاكموه.

عمر الرشيدي كان أيضًا مهندس صفقة زراعة النجيل الصناعي في أحد أعياد الثورة في بنغازي، استعمل فيها سماد فضلات الدجاج، مما تسبب في تعفن الهواء وانتشار الروائح الكريهة واستياء الناس منه. لكنه جنى أرباحًا طائلة لحسابه من تلك المناسبات التي ينتظرها الشطار لسرقة المال العام.

جنبت آمال نفسها الخوض في أعمال زوجها أيًّا كانت وأبقت على إعجابها بذكائه في كسب الأموال وصيد الفرص.

أما في الحب فقد كان عمر خارج حياتها، بعيدًا لا وجود له أو كأنه لم يوجد على الإطلاق.

الستلايت والجوّال وأشياء أخرى

التسعينيات سنوات متشابهة.

في تصالح مع ماضيها غير النظيف قررت الدولة تعويض أصحاب الأملاك المغتصبة وأقرت جبر الضرر. أوكلت العائلة ملف التعويضات إلى آمال ابنة أمزا مسعود واستغرق تعويض جدي سنوات طويلة في دهاليز البيروقراطية.

أموال التعويض ما هي إلا إيجارات العقار بتاريخ رجعي. كان على المتضررين قبول التعويض النقدي لأن عقاراتهم لن تعود وكأن الدولة اشترتها منهم.

جاء المال وأعطانا جدي حصة منه، فتنازلت أمي لأيوب عن نصيبنا من تعويضات المصنع من أجل توسعة تجارته شريطة أن يشغل معه أختي لمياء التي لم تجد عملًا وهيثم ابن أمينة عن حصة أمه، فأدخلهما معه وسلمهما الحسابات والإدارة. بينما بقيت أنا في حصة أمي.

تولى مكتب آمال للمحاماة قضية أطفال الإيدز أيضًا وكانت التعويضات شغل الناس الشاغل لوقت طويل، أما تعويض هيثم (نصف مليون دينار) فقد قلب حياة والده وأعمامه وغيرها إلى الأبد، واستمرت أمينة في هروبها من الألم بالتعبد فصارت تحج إلى مكة كل عام، وتبكي قريبًا من البقاع التي بكت فيها هاجر على إسماعيل.

بعد تخرجنا قدمت أختي ملفات للشغل في عدة أماكن، بينما التحقت أنا بمصلحة آثار سوسة لأن التعيين في بلدية صغيرة مستقلة كان أيسر منه في بنغازي المدينة، وجدت مناخ العمل رائعًا، معظم من يعملون في المواقع الأثرية في سوسة كانوا من العناصر الأجنبية، أما العنصر المحلي فله العمل المكتبي قريبًا من التكييف والتدفئة والقهوة والتلفاز حيث لا يطاله برد ولا حر ولا شمس ولا غبار.

انخرطت في قسم الترميم وتعلمت فنيات ترميم لا يمكن الإلمام بها إلا ميدانيًّا. كان من الموافق لي أن معظم أساتذتنا من الأجانب، أي لا فضول ولا أحد يتدخل في الشأن الخاص للآخرين ولا نميمة ولا غيبة بل انهماك في العمل وإخلاص له وصمت.

رممت أول قطعة في حياتي هناك، كانت عبارة عن عملة نقدية رومانية احتوت رأس إمبراطور بيزنطي. أعدت رسمها في البيت واحتفظت بصورتها في كراستي. ثم رممت مجموعة كبيرة من النقود تعود إلى فترات تاريخية مختلفة، كنت أقضي يومي أنظفها صامتة في

ورشة كلية الآثار شبه المهجورة في قورينا. وكان من يأتي ويراني من طلاب الزيارات الميدانية يصعب عليهم مشهد فتاة منزوية عن العالم في صهريج يشبه صهاريج تخزين الأعلاف في المزارع والحقول، تقضي وقتها وحيدة وبطبيعة الحال ستمر الأعوام سراعًا وهي هنا وسيفوتها القطار الوحيد العامل في ليبيا قطار الزواج، إن استمرت في عزلتها.

ذات يوم زارني كلب دخل من الباب الموارب، وقف مكانه نظر إليَّ ثم أدار ظهره مبتعدًا بين الأشجار فلا شيء يغري بالبقاء في المكان الرطب الهادئ. تعودت أن يدخل أي حيوان ضل طريقه في الغابة.

كنت أعمل لساعات طويلة وحدي، عمل بطيء، روتيني، أعود بعده إلى بيت تتي أتريا، أتناول طعامي، وأستحم وأشاهد التلفزيون معها قليلًا ثم أذهب إلى فراشي.

كانت حياتي ذات وتيرة هادئة رتيبة.

في بنغازي ألَّمت أمراض الشيخوخة بجدي فلم يعد لائقًا تركه وحيدًا، تقاسمنا خدمته بيننا، من يكون حاضرًا منا يبقى معه ويكون في خدمته، كان يعرف توقيت كل واحد منا حسب عمله وظروفه. «غدًا سيكون أيوب متاحًا بعد الظهر سيحلق لي ذقني. اليوم يعود هيثم من المدرسة أبكر من المعتاد سيدفع بي العربة إلى دكان البرغثي لأجالسه ويلقي عليَّ محفوظاته من الشعر الشعبي. الخميس تنهي «تاماثيامو» عملها وتكون هنا بعد العصر. اطبخي

لها عشاءً تحبه يا نجاة، أما تاماثيامو أم أربعة وأربعين لسانًا فهي التي تصحينا كل صباح حاملة ولديها إلى روضة ماما المجانية».

كان ينادينا أنا وتوأمي بنفس الاسم «تا ماثيامو»[1].

في أعوامه الأخيرة لم يعد جدي قادرًا على مغادرة الشقة، كان أيوب يحمله على ظهره من شقته ويهبط به الدرج إلى المستشفى وإلى البحر، ثم أفردنا له غرفة في بيتنا في الفويهات لنستطيع إخراجه بسهولة إلى حديقة البيت وللشمس ولنأخذه إلى أي مكان.

وكان هناك شاب صومالي في الجوار يأتي لخدمته عند الطلب.

حين انتقل إلى بيتنا صار الاهتمام به أيسر، أصبح مثل الأطفال يحب أن يركب السيارة لتطوف به من مكان إلى مكان، مبتهجًا برؤية الناس والحياة، أحب أيضًا أن نأخذه إلى سوق الحوت وسوق الجريد حيث دكانه القديم ودكاكين من عاصروه من أبناء أصدقائه ومعارفه. كنا جميعًا نقود به، أنا وأشقائي وأمي وزوجة أيوب «ابنة أني تهاني» وكان أيوب قد أسس مدرسة للفروسية في القوارشة بضواحي بنغازي دأب على اصطحابه إليها ليشاهد سباقات الخيول وتدريباتها.

كان في كرسي متحرك، عقله يقظ وذاكرته بخير كان يقول لأختي:

---

(١) عيناي في لهجة كريت.

- يا تاماثيامو جئت بأطفالك لأمك، لا بد أن نقايضك، خذيني إلى ميدان البلدية.

فتتهرب منه: يا جدي لديَّ عمل في ناحية أخرى بعيدة.

فيلوح لها بالمسبحة: كذوبة من يومك، خذيني وسيتبين لك أن المكان الذي تقصدينه قريب.

فتقول له ضاحكة:

- ذاهبة إلى اجتماع بالغرفة التجارية يا جدي.

- إذن خذيني معك للاجتماع ولن أزعجكم، بعد الاجتماع خذيني إلى وجهتي.

- ستأخذك نسرين زوجة أيوب، أساسًا بيت أني تهاني قريب من هناك.

- أها هذه قريتلية أصيلة. لم يجتمع فيها ألعن ما في الشركس وألعن مافي القريتلية.

- وما ألعن ما في القريتلية والشركس يا جدي؟

- شيء يشبهك تقريبًا.

ظهر الستلايت في حياة الناس وغير في طبيعة الحياة العامة وأدخل الكثير من التأثيرات، في بداياته تباهى الناس الذين يملكونه على الذين لا يملكونه ثم وحدت الدولة الفرجة وباعت للمواطنين ٢٠ قناة فضائية قبل أن تسمح باقتناء أجهزة البث

والاتجار في أجهزة الستلايت. أما النت والهواتف الجوالة فتأخرت حتى بداية الألفية الثالثة. تلاشت القبضة الاشتراكية وأعيد فتح التجارة الحرة وراجت تجارة الشنطة على تركيا وسوريا ومصر وتونس والمغرب وبدأ النظام تلميع صورته للغرب بتعويضات مالية هائلة عن سلوكه السيئ وبتصدير أبنائه واجهة شبابية تقود ليبيا في المستقبل، لم أكن أهتم بالسياسة فما لدينا لم يتعد زمرة من قبائل موالية وزعت أبناءها على المناصب والمراكز الحساسة وسمَّت نفسها الدولة، أما معالم الدولة المعاصرة فلم يكن لها وجود إلا في أحلام الحالمين.

ساعدني إدواردو في التقديم لمنحة سباستيان توزا للعلوم الأثرية في صقلية وقابلت مروان في قورينا وكان لقاءً بالصدفة البحتة، طلب رئيس فريق «اكتشاف مقرات مرقس الرسول» من قاعدة بنينا الجوية تزويده بطائرة هليكوبتر لمسح الأودية والكهوف في الجبل الأخضر التي ارتادها مرقس وأتباعه، فكان والد مروان هو من سرَّع الحصول عليها، وحضر مروان ضمن الضباط الذين نسقوا التعاون بين القوات المسلحة ومصلحة الآثار. كان لقاؤنا لقاء قريبين، بل إن حضوره زادني مهابة بين العاملين في آثار المنطقة، حين قال لهم: أوصيكم بها خيرًا فهي قريبتي.

استمر العمل في تتبع أثر مرقس الرسول قرابة الثلاثة أعوام. كانت شاقة لكنها ماتعة. حضر معنا إدواردو كثيرًا من الطلعات الجوية. من خلال التحليق المنخفض أمكنني رؤية الجبل الأخضر

من فوق كاملًا ورؤية حدود ليبيا والساحل الشرقي كاملًا، الأودية، السفوح، المدن الأثرية، قورينا، سوسة، طلميثة، لاثرون، رأس الهلال، البيضاء وضواحيها، ومعظم القرى الأثرية المتناثرة هنا وهناك. كانت الرؤية أوضح بالنسبة إلى اكتشاف المخابئ التي لجأ إليها مرقس الرسول وأتباعه هربًا من تنكيل الرومان.

كانت هناك أوشاز معلقة لا يمكن الصعود إليها والنزول منها إلا بالحبال والبكرات، تلك المناطق الأصعب اتخذت كمقرات تعبد آمنة لصعوبة بلوغها واكتشافها من قبل الغرباء وسط كثافة غابيَّة وعرة. الطبيعة هناك دافعت عن المبشرين الأوائل بالمسيحية وعن كاتب أول الأناجيل مرقس الرسول من مواليد الجبل الأخضر.

على الرغم من صعوبة الأوشاز إلا أن حياة موازية للحياة الطبيعية في القرى والدساكر الخاضعة لسيطرة البيزنطيين قامت فيها، تزود أتباع مرقس بالطعام والفاكهة والعسل البري والمياه العذبة من الأودية المجهولة نفسها وواصلوا عملهم التبشيري بالمسيحية على طول الساحل الشرقي من ليبيا حتى الإسكندرية في مصر سرًّا.

من الأعالي تمكنت من رؤية قعور الوديان الملأى بأشجار الرند والبلوط والمرسين الملتحمة بالصنوبريات وبشجر الزيتون والرمان والعرعر والبطوم، رأيت المسرح الروماني في سوسة (أحد أقاربي) الذي مثلنا عليه أنا وأختي بعض مسرحياتنا في الطفولة،

تخيلتني أترك دوري في المسرحية وأجري وراء الطائرة وألوح لها. رأيت مدينة الموتى، والحمامات اليونانية ومعبد زيوس ومعبد أبولو والأغورا ومجلس الشورى، وقلعة الأكرابوليس. المسرح الروماني، ورواق هرقل وحوض كليوبترا والكثير من المعابد والنصب والكنائس، كلها عدوت وراءها ولوحت لها. واسترجعت الآبار المهجورة التي كنا نصيح فيها لسماع أصواتنا، والطرق المعبدة من أزمنة سحيقة والأعمدة الممتدة في السماء والأقواس المهيبة، والتماثيل الكاملة والمنقوصة، أعيان الماضي السحيق الذين سكنوا الساحل الشرقي مرابع الإغريق حين أرادوا أرضًا تشبه اليونان ومرابع الرومان حين أرادوا أرضًا تشبه توسكانا.

بهاء يسلب الألباب، بساط أخضر ممتد ازدان بالأزاهير وتراشق بالطيور. لم أشبع مما رأيت، الماشية المستلقية على الحصيد في التلال والسائبة في الأراضي المنبسطة، السحب البيضاء في زرقة السماء، والجبل المغير على البحر أحيانًا والمتقوس على نفسه أحيانًا وجداول الماء الفرات على جنباتها فاكهة زرعتها الطبيعة، وكواسر الطير والحجل والحمام واليمام والهداهد والبوم والزرازير واليساريع، والنحل في الأفانين وتجاويف الصخور، والأرانب البرية المتناثرة كحبات كهرمان أبيض مفروط، والماشية ذات الأصواف الجيدة ترعى في المروج والهضاب وأصائل الخيول السارحة على بساط الأرض المعشوشبة وتلك التي مرت فوقها المحاريث وصولًا إلى البحر المتخايل الزرقة حيث لا ينتهي السحر إلا ليبدأ من جديد.

انتهت رحلة ثلاثة أعوام من الاستكشاف بالعثور على مقر مرقس الإنجيلي.

وهتاف رئيس فريق بعثة الاستكشاف «لقد عثرنا على آثار أول كاتب للإنجيل، فانعم في أبديتك بالراحة والسكون يا مرقس».

غمرتنا البهجة وعدنا إلى مقر البعثة واحتفلنا في مجتمع الأثريين الصغير بمرقس الرسول، كامل الحضور. كنت سعيدة وراضية عن نفسي وعن عملي وممتنة للرفاق رفقتهم خفيفة الظل.

- لماذا أنتِ مثل مرقس بعيدة عن الحياة العادية للفتيات من سنك؟

مازحني إدواردو يومها.

كل هؤلاء كبار في السن، عجائز. لماذا؟ العمل في الآثار يعزل عن المدينة والشباب يرغبون حياة المركز والامتلاء، العمل في الآثار يحتاج صبرًا ومطاولة، فقد يمر اليوم دون إنجاز ومع ذلك يسمى يومًا أثريًّا بامتياز، ثم إن معظم من يعملون في مواقع التنقيب يشتكون من الروماتيزم وأوجاع الركب والمفاصل ومشاكل التنفس، لبقائهم الطويل في الرطوبة والغبار والأتربة والشمس.

- لا بد أن للأمر جانبًا قدريًّا. ألا تعتبر لون بشرتك البرُنزي بفعل الشمس والسباحة في الشواطئ الدافئة شيئًا قدريًّا؟ هل كنت لتكتسبه إن بقيت في أوروبا أو أمريكا مجرد عالم آثار يحاضر في الجامعات؟

- كلا قطعًا.

- بالتالي من جاء بك إلى هنا من مسافة بعيدة جاء بي من مسافة قريبة. وأبعد من هذا لا أعرف ماذا قرر لي!

ذات يوم لم أعرف ماذا أراد إدواردو من الكهف الذي أصرَّ على ذهابي إليه معه، حمل بلطة ومجرفة وقال لي في ظهيرة غير باردة من شهر يناير تعالي معي.

ما إن وصلنا إلى الكهف المقصود حتى أخذ يحفر في زاوية منه من دون أن يتفوه بشيء. ساعدته في الحفر حتى بلغنا عمقًا يزيد على الذراعين في جوف الأرض، آنذاك أخرج علبة من حقيبته وضع بداخلها قنينة زجاجية وفي القنينة كانت ورقة.

سألته وأنا أرى ما سيدفنه بعد ذلك الجهد الذي بذلناه:

- ما هذا؟

قال: رسالة، رسالة كتبتها لابني في المستقبل.

ظننته يمازحني، لكنه أكد قوله، أنا لا أمزح.

كان جادًّا في ترك الرسالة في الكهف لابنه، الذي يريد له أن يكون عالم آثار مثله ويحب ليبيا ويعود ليستكمل سيرته فيها.

ضحكت وأمسكت برأسي.

- لا أكاد أصدق شيئًا من الجنون الذي حولي، من يكون ابنك إذا لم يكن لديك ابن من الأساس؟

- سيكون لدي ابن، لا تقلقي.

ومضى يدفن الرسالة بعزم ثم أضاف:

أو ابنة.. ابن أو ابنة.

وبعد أن فرغ من تسوية التراب نفض يديه وأخرج منديلًا ومسح جبهته وهو يتأمل جوانب الكهف مجعدًا جبهته، ضاغطًا على عينيه بوجنتيه.

قال لي احفظي مكانها جيدًا فسألته:

- وأنت؟

- أنا أعرف المكان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ألن تعود إلى هنا؟

- لا أدري.

حملت المجرفة ومشيت من ورائه الهرولة دون أن أفهم ماذا يفعل وإلى ماذا يهدف. هل صار عاطفيًّا فجأة أم أنه يستجيب لضغط فكرة عاطفية عليه أم أن ثمة هدفًا آخر لا أراه وأفترض أن يكون شيئًا عاطفيًّا؟

في الطريق التفت إليَّ وقال: تعالي معنا.. لا تبقي هنا.

عاد إلى نفس الطلب الذي تحدثنا فيه مرات..

قلت: لا أستطيع.

أمسك يدي بقوة وقال: تعالي معي.

- وأمي وأهلي؟

- كما كنت في إيطاليا من دونهم تستطيعين مواصلة حياتك من دونهم! ما الجديد؟

- إذا أردت أن أذهب معك، لماذا أوصيتني بالرسالة؟

الرسالة للمستقبل والمستقبل ليس الآن.

- لكن...

قاطعني:

- هاتِ المجرفة.

أخذ المجرفة وأخذ يدي معها.

نريدك حتى ينتهي الحب!

اللحظة التي يحدث فيها أمر مفاجئ، هي لحظة تقاطع أقدارنا بأقدارنا.

في معمل الآثار الأشبه بكوخ خردوات وسط الغابة انسكب محلول قلوي على يدي بينما كنت أحاول فتح قنينة صدئة، أصيبت أصابعي بتسلخات تشبه الحروق، أسعفني الزملاء من بعثة التنقيب إلى مستشفى قورينا، هناك وضعت لي بعض الأدوية المسكنة ونصحوا بالذهاب إلى مستشفى يستطيع التعامل مع الحالة بدقة.

صحبني إدواردو وعبد الله صوفيا والأستاذة شارلوت بوبر من البعثة الفرنسية إلى مستشفى بنغازي. كان عبد الله صوفيا هو من قاد بنا السيارة، أدخلت قسم الطوارئ في بنغازي لتلقي العلاج.

بينما أنا هناك اتصلت بنجلاء ابنة أمزا خالد وهي طبيبة تعمل بنفس المستشفى. جاءت من فورها وحضرت الإسعافات التي تلقيتها، كنا نتحدث بينما الطبيب يعمل على جروحي.

سألتني عن العائلة إذا ما علمت بأمري، فقلت إنني سأذهب إلى البيت مباشرة ما إن أفرغ من العلاج، لا أريد أن أشغل أمي.

ظنت ابنة عمي أنني على دراية بتوعك جدي الأيام الماضية.

- هاتفني أيوب يريد طبيبًا يحضر إلى البيت لجدي.

لم أكن أعلم بمرض جدي، أمي لم تخبرني في اتصالي معها أمسِ شيئًا، بدا أن كل شيء عادي في البيت، وحين سألتها عن جدي قالت: نائم. غير أن جدي لم يكن على ما يرام وكان في أشد المرض.

لف الطبيب يديَّ وقال إن عليَّ المراجعة يوميًّا لتنظيف التسلخات وتغيير الضمادات.

اتجهت إلى بيتنا وأجرى زملائي معاملة خروجي في إجازة مرضية وفي المساء لحقت بي تتي أتريا ومعها حاجياتي.

لم يرحني حال جدي حين رأيته، كان واهنًا وأضعف حالًا مما رأيته الأسابيع الماضية. علمت بأن أيوب ترك بيته ونام بقربه تحسبًا لأي طارئ، كان أيوب في السنوات الأخيرة يحمله بين ذراعيه حملًا ليضعه على كرسيه المتحرك أو في السيارة لكنه منذ أشهر لم يعد قادرًا على مغادرة السرير. بات طريح الفراش تمامًا.

كنت وإخوتي نتناوب على حلق ذقنه وشعره حين كان بخير، وكانت أوقات الحلاقة لطيفة جدًّا، نتبادل فيها أحاديث طيبة معه وضحكات كان قادرًا على دغدغتنا بها بينما نعتني به. هذه المرة غابت ضحكته وأفلت الأحاديث وخمدت الحركة.

كان ذابلًا جاحظ العينين، يتنفس بصعوبة، إلى جواره صوت قرآن خفيض، والكثير من الأدوية. وقفت أمامه بهدوء كي لا أزعجه، ففتح عينيه بالكاد وأسبلهما وغمغم اسمي بوهن. كانت يداي مخبأة ورائي. قبلت جبينه، وقبلت رأسه وقبلت يده والدموع تنزل دون تحكم.

صعدت السرير إلى جانبه، ساعدني الشاب الصومالي في رفعه قليلًا حتى أدخلت ذراعي تحت إبطيه ووضعته على صدري، ضممته إليَّ فرأى يدي وأشار إليهما مع صعوبة في الكلام. خففت الأمر وقلت له: دائمًا تصيبني بعض الجروح خلال عملي. وكعادة قلبه الطيب الملهوف علينا لم يمنعه مرضه من أن يسألني جميع الأسئلة في عبارة واحدة خرجت من حلقه بصعوبة: أخبريني كل شيء.

واضعًا يديه الطاهرتين الضعيفتين على لفافتي.

كان لا يستطيع الأكل أو لم يعد يرغبه، جاءت أمي بشوربا الخضار والدجاج وأجبرته على تناول بعض الملاعق.

حاولت تسليته، أمي قالت دعيه يرتاح، قبلته كثيرًا ومسدت جسده بذراعي ووجهي، أغمض جفنيه وتمتم لي واهنًا: ابقي هنا.

سمعت أيوب يأتي وأمي تخبره عن إصابتي. دخل وسلم وتفحص جدي.

قال سيأتي مروان مساءً بطبيب فرنسي يعرفه من أطباء المستشفيات النفطية لفحص جدي.

لكن جدي لم يكُ مكترثًا بأي طب يبعد عنه الموت، مكترثًا فقط بالراحة الأبدية التي تشفيه من بقائه العليل.

في الفترة الأخيرة كان يردد: الموت راحة، وكنا ننهاه كارهين ما نسمعه منه.

- مازلنا نريدك يا جدي.

- إلى متى، لقد تعبت.

- إلى الأبد يا بابا أحمد سنريدك، إلى الأبد.

همست في أذنه إلى الأبد يا بابا أريدك، علَّ كلمات الحب تفرح روحه، وتقويها على المرض، كنت أتوهم أن المحبة الصادقة قادرة على فعل الأعاجيب، تشفي وتبرئ وتبعث من جديد، كان وهمًا يعادل حقيقة غير قابلة للدحض. وهم صالح للاستعمال أكثر من مرة حتى ثبت بطلانه.

تلك الليلة بهدوء ومن دون مزيد من المعاناة وكما أراد دائمًا أن يريحنا ويرتاح، خرجت روحه من بيننا إلى السماء منهية مسيرتها في الأرض.

رأيت أيوب يحضن أمي وتحضنه أمام باب غرفته باكيين.

فأدركت من مرآهما أن الموت دخل بيتنا وجال فيه وأعادنا إلى يتمنا القديم.

عدت يتيمة من جديد.

الرحيل

شغلت غرفة جدي في بيتنا كلما عدت من سوسة، لم أبدل فيها شيئًا، حتى اليوم هي كما تركها وتركتها أنا من بعده، ملابسي في خزانته، أشيائي بين أشيائه كأنما غادر وسيعود. نظاراته، عكازه، صنادله، نعاله، ربطات عنقه، عطره، أدوات حلاقته، كتبه، وأقلامه، طقم أسنانه، حتى قنواته التلفزية، لم أغيرها. عندما أغلق الباب على نفسي إنما أغلقه على عالم خاص أعود فيه إلى ذلك الزمن الذي حماني فيه من اليتم وكان جيشي الذي واجهت به الحياة.

قبل وفاته سلمني قطعة التريكو التي وضع فيها خاتم زواج جدتي ورصاصة موتها أضاف إليهما خاتمه وهمس في أذني بعض الكلمات:

- الرجل العجوز يموت ويريدك أن تحفظي هذه الأمانة ولا تعطيها إلا لأولادك.

- لا تتحدث عن الموت، إنني أبغض هذا الحديث.

- لم يعد هناك وقت، المرض والشيخوخة تفتك بي، أرحم لي أن أذهب إلى ربي من هذا العذاب.

- أنا أكره هذا الحق حتى لو كان حقًّا ولا أريد أن أفكر فيه.

- تمنيت أن أراكِ عروسًا، أطمئن عليك مع زوجك وأولادك، لكن قدر الله ما شاء فعل. لم يحقق الله لي هذه الأمنية.

- لا عليك يا جدي أنا بفضلك صرت قادرة على إدارة شؤوني دون حاجة إلى أحد. ثم إنني لا أكذب على نفسي، فمن سيتزوج بفتاة متلعثمة متأتئة، أنت تعرف الرجال لدينا ناقصون ويريدون زوجة مثالية، أنا لست مثالية.

- أنت جميلة وطيبة وحسنة الخلق وهم أغبياء لا يحسنون الانتقاء. دعك منهم وتزوجي بمن تريدين.

توشح وجهه طابع المزاح مضيفًا:

- ثم إنك حين تزوجتْ تماثيامو لم تضعي قدميك في قدر الشربات بعدها ولم تأخذي منها الطرحة وتلبسينها أو المرآة وتنظرين فيها، تركتِ الفتيات يأخذنها فتزوجن قبلك[1].

- دعك من أساطير الإغريق يا جدي. الزواج لا يأتي بصحن شربات أو سواه.

---

(١) عادة قريتلية قديمة متبعة في الخطبة والزواج.

لم يقل جدي ما قاله على سبيل المداعبة واللطف، ما لم يكن متيقنًا في أعماقه باستحالة زواجي في ليبيا. لم يقله ما لم يكن قد فكر فيه بينه وبين نفسه مرات.

لماذا يتحطم هنا من ولدوا بشيء مغاير فيهم؟ لماذا لا يعيشون حياة طبيعية مع شركاء يختلفون عنهم؟

بعد رحيل جدي اكتشفت أنه لم يخصني بتلك العلبة فقط، بل ترك لي شيئًا للزمان، فأنا على حد تعبيره أحتاج ألا أحتاج أحدًا بقية حياتي.

ترك وصية أصبحت بموجبها شقته في جليانة ملكًا خالصًا لي. أثارت الوصية حفيظة عماتي وأمزا خالد لكنني كنت في حمايته حاضرًا وغائبًا فلم يزد الأمر عن ذلك. كنت أعود من سوسة لأرى أمي ثم ما ألبث أن أدير سيارتي وأذهب إليه. لم أتجاوز رحيله، كبرت في العمر لكن عاطفتي لم تكبر، أبقتني تلك الطفلة الصغيرة المحتمية به، المرتبكة على الدوام، الخجولة، الباكية المحتاجة إلى يده على رأسها وكتفيها.

غادر جدي الدنيا بجسده لكنه لم يغادرني، كانت أمي تواسيني على فقدانه وهي تراني كيف كنت وكيف صرت بحزني الكبير لخسارته.

- هزمني الموت يا أمي حين أخذه. لم يهزم أحدًا سواي.

- ادعي له بالرحمة والمغفرة. مصير الحي يموت.

لم توافق أمي على ذهابي إلى شقته، أخذت المفاتيح ومنعتني.

- غادري الأحزان وابتعدي عنها، ستهلكك. بدأ الشيب يَخِط شعرك.

ذهبت إلى أختي التي تدس رأسها في الكمبيوتر وأسررت لها بأنني حين أعود من بعثتي سأقيم في جليانة، فرفعت رأسها إليَّ قائلة:

- إذا كنت تقصدين العيش وحدك مثل تِتي أتريا فلن أوافقك.

- كلا.

- ها مع من؟ مع جون تراڨولتا؟

- دعك من المزاح، انسي حب الطفولة ذاك.

- ها مع من ستعيشين في شقة قديمة وسط بناية تغير سكانها عشرات المرات ولم تعد مناسبة. اسمعي، فكري بعقل فالعاطفة مخاتلة وقاتلة، من في عمرك كلهن تزوجن، يجب أن يكون لك حياة وزوج وأطفال.

- لا شيء يعجبني هنا، ولا أحد يعجبني، وأنت دائمًا تغيرين الحديث.

- حسنًا سافري واصنعي لنفسك حياة جديدة، إيطاليا جميلة. دعك من شقة جدي وبيت العائلة وليبيا كلها.

- قلبي محطم.

- سلامة قلبك. أنا معك لا توجلي. حتى وإن ابتعدتِ سأكون معك ولن أتركك. سافري وادرسي وعيشي حياتك ستتحررين من الشعور بالوحشة وتنخرطي في حياة لن تجدي معها الوقت للتفكير في الموت البطيء وكل ما يحرق الأعصاب ويستهلكها هنا.

- أنت أيضًا ستسافرين إلى مصر، ومن سيبقى مع أمي؟

- لن تكون وحدها، مصر قريبة، سيكون معها هيثم والأحفاد وأيوب وصديقاتها وخالتي والعمات وأنا بين الحين والآخر. أمي تريد أن ترانا سعداء.

تكتل الكلام في داخلي حتى صعب عليَّ إذابته في عبارات، كيف انتقل من أحبهم من ركن حي في بنغازي إلى ركن ميت فيها، وكيف سأنتقل أنا عنها بأركانها كلها إلى روما، شعرت برغبة في البكاء إلا أنني سيطرت على نفسي واستبدلت بها قضم الأظافر بينما انكفأت أختي على الكمبيوتر، مستغرقة في إدارة تجارتها الخاصة.

أختي هي الجانب القوي مني، وأنا هي الجانب الضعيف منها.

أريد قهوة بالآيس كريم

المرة الأولى لي في روما كانت بسبب علاج هيثم ابن أختي. رافقت أمي لاستبدال المواقع مع أختي أمينة حتى تتمكن من العودة إلى بيتها وأطفالها بعد غياب طويل. تبعثرت أمينة ما بين وضع طفلها الكارثي وبين رعاية أطفال أصحاء عانوا هم كذلك من وضع كارثي بسبب غياب أمهم عن البيت.

ترك الأطفال في رعاية الأجداد والعمات والأعمام، تلقفهم كل يوم بيت، بعد فترة اشتكت الابنة الكبرى لأمها أن ابن عمها يضايقها دائمًا بمحاولة لمس صدرها وأن عمها والده يصر على بقائهم لديه ويمانع ذهابهم إلى بيوت عماتهم.

اشتكت أمينة لأم الولد فحدثت مشكلة عائلية ألقي اللوم فيها على الصغيرة وقالت أم الولد بأن البنت لا تفكر كطفلة فمن أين جاءت بتلك الأفكار القذرة إن لم تكن قد اطلعت عليها من قبل!؟

منعت الطفلة جراء كلامها لأمها من استخدام التلفون وفرضت عليها العائلة لبس الحجاب حتى لا يبين منها ما يلفت النظر إليها، وكرهها والدها عن بعد بسبب الشرخ الذي أحدثته في العائلة متوعدًا إياها بالتأديب ما إن يعود.

لكن الابنة لم تتوقف، نشجت في اتصال هاتفي آخر متوسلة أمها الرجوع «عودي يا ماما نريد أن نعود إلى بيتنا.. عودي يا ماما» وأخبرت والدتها بأن عمها الكبير «محمد» أخذهم في نزهة بحرية إلى الخمس وفي البحر رأته يدخل يديه في بناطيل أشقائها الصغار بحجة تنظيفهم من الرمال. وهي تخاف إن تفوهت بكلمة أن يغضب والدها منها وتحدث مشكلة كبيرة كالمرة الأولى ولا يصدقها أحد، بل تخشى من أن تأكل كلاب عمها محمد وجهها كما أكلت وجه فاطمة بنت عمها عبد الله من قبلها، ويصدق فيها مأثور العائلة: أن من يكذب تأكل وجهه الكلاب!

اختصرت أمي كل شيء وقالت لأمينة: «عودي واجمعي أولادك حولك ودعي هيثم لي».

استغرقت رحلة استشفاء هيثم وقتًا طويلًا من دون شفاء، فالإيدز الذي حقن به هو وما يزيد على أربع مئة طفل في نفس الليلة، كان ڤيروسًا مخلّقًا في المعامل وليس فيروسًا طبيعيًّا. يهاجم جهاز المناعة لكن نشاطه يخمد أو يحاصر في وجود الدواء.

درءًا للجريمة البشعة سارعت الحكومة بنقل الأطفال مع عائلاتهم للعلاج في إيطاليا امتصاصًا للغضب وتهدئة للرأي

العام ريثما يتم تعويم القضية وفتح مسار لتسييسها وهو ما حدث بالفعل، فبعد سنوات من المحاكمات التمثيلية العبثية أخلي سبيل الممرضات البلغاريات الخمس والطبيب الفلسطيني وتم تسليمهم لزوجة الرئيس الفرنسي «ساركوزي» في صفقة سياسية.

سُهِّل سفر عائلات أطفال الإيدز ولم يكن السفر من قبل يسيرًا، حتى تسعينيات القرن العشرين كان الناس يبيعون مدخراتهم ويسافرون للعلاج بها في مصر وتونس حتى تحول هذان البلدان إلى مستشفيات عامة لليبيين.

كانت تلك هي الظروف العامة المحيطة بسفري الأول إلى إيطاليا.

بهرتني روما بجمالها حين جئتها لأول مرة. كانت أمي منشغلة بمواعيد هيثم، وزوج أختي منشغل بتسيير أعماله التجارية التي أنشأها ما بين روما ومصراتة انتهازًا لفرصة التنقل السلس ما بين البلدين، تلك التي منحتها له صفة أب لأحد أطفال الإيدز.

وجدت الوقت للتنزه بمفردي في روما وهناك أوقات شاركني فيها إدواردو واصطحبني لرؤية بعض الأماكن الشهيرة، الڤاتيكان، الكولسيو، فونتانا دي تريڤي، وبياتصا ناڤونا، والكامبو دي فيوري، وسلالم إسبانيا وبياتصا ڤينيسيا.

حين انتقلت للدراسة، استمر خروجنا معًا إلى أماكن في روما أو خارجها وكان أجملها على الإطلاق تلك التي وعدني فيها إدواردو بالذهاب إلى شاطئ لاديسبولي ذي الرمال السوداء أواسط

الخريف، وبدا لي فيها إدواردو رجلًا مختلفًا عن الذي عرفته في ليبيا إبَّان عمله في بحث الدكتوراه ومعالجته لمسألة الطلاق.

لم تكن روما غريبة عني، كنت أعرف شيئًا من ملامحها وطبيعتها، وصلتها وحدي ذات مساء ربيعي وكنت قد ربحت منحة سباستيانو أتوزا للدراسات الأثرية وعلى إثرها جئت. أقلني التاكسي إلى حي سان بيترو حيث بيت صديقة إدواردو «بينا سترازا» التي رتب لي الإقامة لديها.

كانت امرأة في عقدها السادس، مكتنزة وعليها آثار العيش الرخي، تبادلت معها نظرات الغريب للغريب حين يلتقيان وتفرض عليهما اللحظة أن يتعارفا ويتكلما. رحبت بي وصحبتني إلى الداخل، أخذت تريني البيت ركناً ركناً ومن ورائنا تمسح بها كلبًا كبيراً نادته بوبو.

كان بيتًا جميلًا قسم بديكور داخلي رائع، هناك أرفف متناثرة ملأى بالكتب (لا أتصور أنها قرأتها كلها) وهناك نباتات ظل كثيرة وأباجورات مضاءة بألوان متباينة، أضفت على البيت رونقًا خاصًّا.

خصصت لي السيدة بينا غرفة ابنها المهاجر، وهي غرفة زوجية مؤثثة تأثيثًا جيدًا ومرفقة بحمام صغير.

لاحظت السيدة بينا أنني لم أقل شيئًا عن الغرفة والبيت خلال جولتي معها فسألتني:

- آمل أن المكان أعجبك؟

فهززت رأسي بنعم، كنت من دون شك أخشى الكلام حتى لا تلحظ تأتأتي، ثم علمت أنها تعلم بها من خلال ما زودها به إدواردو عني. التأتأة كانت جزءًا من هويتي في حضوري وغيابي وبطاقة تقديمي للآخرين فلا مفر. حزَّ في نفسي ذلك ككل مرة حدث فيها لكن لحظات تأثري لم تعد طويلة كما في السابق.

طرحت السيدة بينا شيئًا من الأسئلة في ثنيات الحديث وكانت تكلم الكلب أيضًا.

ماذا تدرسين؟

كفى يا بوبو.

كم ستبقين هنا؟

هل لديكم نفس تيار الكهرباء في ليبيا؟

آآآوه بوبو.

هل زرتِ إيطاليا من قبل؟

كفى يا بوبو.. كابيتو.

كان بوبو الضخم كلب شقيقها جابرييل سترازا (سيصبح طبيبي العائلي لاحقًا) يحل ضيفًا عليها عندما يسافر شقيقها، وكان معتادًا على الناس ولا ينبح على الرغم من شكله المهيب، وينام قرب التلفزيون باستمرار ما لم تتحرك بينا ويذهب لحك وجهه بربلتيها.

عرفت من أرفف الكتب المنتشرة في الشقة أن السيدة بينا

تهوى اقتناء الكتب وعرفت من إدواردو أنها مهندسة معمارية ومعدة برامج تلفزية، وعرفت منها أنها درست في جامعة تورفيرغاتا قبل أن تتقاعد وتتفرغ للكتابة والشأن العام، وعرفت من «ناتاشا» الفتاة الأوكرانية التي وجدتها في البيت بعد عودتي من كورس تدريبي في صقلية، أن بينا إذا شربت ثملت وإذا ثملت فذلك أفضل وقت لطلب أي شيء منها، وعرفت من الخادمة الإندونيسية بأن السيدة بينا تستضيف «ناتاشا» نظير مبلغ تتقاضاه من شقيقها لأنه وعشيقه قررا الأبوة وهما بحاجة إلى رحم بالإيجار. فاستأجرا رحم ناتاشا.

منذ اللحظات الأولى أرادت بينا سترازا بفضول الإيطاليين المعتاد أن تحدد درجة الصداقة التي تربطنا أنا وإدواردو، ربما طرحت عليه السؤال نفسه لتقدر من إجابتينا إجابة ترتاح إليها وعلى الرغم من عدم أهمية كيف نبدو لها، إلا أن تكرار سؤالها استفز فضولي تجاه نفسي لمعرفة من يكون إدواردو بالنسبة إليَّ أنا أيضًا. هل ما زال ذاك الأمريكي الجنسية المتشكل مناصفة ما بين سيدة من سيشيليا وسائح أمريكي ذي أصول إيطالية التقيا وتعارفا وتحابا لبعض الوقت، أم أنه بروفيسور مقابر الإغريق في الساحل الليبي؟ الرجل الذي يهب لترميم الآثار لكنه لم يرمم زواجًا متعثرًا مهما عنيت له العلاقة. هل هو الرجل الذي وهبني ظهره أول مرة ليزحف بي داخل مدينة الموتى في قورينا بليبيا أم الرجل الذي وهبني وقته ومظلته ليكون بمعيتي في روما؟ الرجل الذي ما فتئت أربط له أحذيته في الطريق

ولا يمتنع عن مد يده فجأة ليزيل هدبة على خدي أو يزرر معطفي في الطقس البارد أو يصلح ياقتي أو يجر قلادة اسم الله المائلة في جيدي ليجعلها واسطة السلسال؟

نبش ذلك السؤال الأخطبوطي مخيلتي على مر الوقت حتى أجاب على نفسه شيئًا فشيئًا وعلى مهل.

ليلتي الأولى في بيت بينا سترازا هاتفني إدواردو للاطمئنان على وصولي، وحدد لي المكان والوقت الذي سنتقابل فيه، كان أحد مقاهي حي براتي الجميل. تكررت لقاءاتنا فيما بعد كلما كان لديه الوقت وكانت لي معاملة يصعب عليَّ إنجازها في الدوائر الإيطالية بنفسي. في أحد اللقاءات أنهى طعامه ولفَّ سيجارة وأخبرني عما قالته له بينا استرازا عني: هادئة ولا تنظر إلى محدثها كما لو أنها أضاعت شيئًا بقربها.

- وماذا قلت لها؟

أجاب بإيماءة ضاحكة من وجهه: سألتها.

- ماذا سألتها؟

- سألتها عمَّا إذا وجدتك نحيلة أم لا؟

- وماذا قالت؟

- قالت نعم نحيلة إلا إذا كنت تريد أكثر.

حدجته آنذاك بنظرة موبخة، زمَّ شفتيه ونظر بنظرات مستسلمة،

تجاوزت الحديث عن قوامي وقلت له: أريد قهوة بالآيس كريم. فذهب إلى الباريستا وطلبها بنفسه.

كانت القهوة فاصلًا لطيفًا لتغيير وجهة الأحاديث. لكني ذات يوم سألته السؤال نفسه حين امتلكت الجرأة على طرحه: ما رأيك فيَّ؟

فقال بكل وضوح ومن دون تردد: أفضل أن تمتلئي قليلًا.

فكان له ذلك، وفي العام الثاني لعلاقتنا امتلأت!

أستطيع أن ألخص أعوامي في روما بأنها مشي تجاه الرجل الذي جلبت معرفته من بلادي وانطوت منحة الدراسة على قدر رائع جمعني به وكأن منحة سباستيانو أتوزا ما كانت إلا سببًا قدمه القدر ليمرر حدثًا آخر.

في روما حدث التقارب أكثر من ليبيا، تغير الرتم ومزاج العلاقة بيننا وكأن شيئًا في مزاجينا كان محكومًا بالجغرافيا ودورها الغامض في بلورة الأحاسيس، وتنمية شعور خافت وإطفاء آخر. حتى اختلف إدواردو في إيطاليا بالفعل عن إدواردو في ليبيا وأحسبني أنا أيضًا اختلفت.

اتسمت فترتي في روما بالاكتشافات، عرفت وجه روما غير السياحي، المجتمع والحياة في أوروبا، الآخرون وأنا، الحبل السري مع الأشياء، الوحدة داخل الوطن وخارجه، تغاضي العائلة عن بقائي في الخارج، هواجسي عن مقايضتهم ذلك بالتأتأة وإن لم

يبينوا أو يصرحوا، شعوري بأنني فتحية الشواري في شكل آخر، النزهات القصيرة والطويلة التي أخذت نفسي إليها، نوبات الحزن الثقيلة، ثم أنا مع إدواردو وكيف انتهى بنا الأمر إلى الأشياء التي تحدث للمرة الأولى.

الاهتزاز

انحنيت على حقيبتي فامتدت يده لسحب التيشرت الذي انزاح عن ظهري ولم تنسحب منذ تلك اللحظة باختلاف الأيام، تسللت لتلمس ظهري، زردت ريقي وتضرج وجهي حياءً، من دون أن أنبس بكلمة، فكتب بسبابته على عمود الفقري شيئًا أظنني تبينته على الفور. ثم رفع كتفيه وقال ما كنت قريبة من سماعه: كنت أفكر في اللحظة المناسبة التي أقر لكِ فيها بأنني أحبكِ، لم أتوقع أن تكون تلك اللحظة هي الآن، خططت أن تكون في مقهى أو سهرة سينما أو في عيد ميلادكِ. وتخيلت أنها ستكون في براتي أو تراستيفري ماذا أفعل (تلفت حوله وجعد جبينه) شاء الله أن تكون في ستسيوني باليرمو بعد ساعات من السفر معًا، كأنها كانت في انتظارنا هنا. انظري كم الحياة عجيبة لقد أتت في سيشيليا ولم تختر لاتسيو. أو ربما نحن اللذين أتيناها هنا لأنها كانت في انتظارنا.

قولي شيئاً، ما بالك سكتِّ؟

- هل آذيتك بكلامي أو بتصرفي؟ أعتذر إن فعلت. لكني أشعر بأني صرت أفضل، تخلصت من حمل ما أردت قوله لك منذ وقت.

كان ردي غير متوقع بالمرة على اعترافه، قلت بهدوء:

- أريد قهوة بالآيس كريم من فضلك!

ثم سكت.

وقعت في الحب هكذا دون مقدمات، اتصلت بأختي وأخبرتها فقالت لي:

لماذا لم تخبريه، لماذا تتصلين بي؟

قلت لا أعرف.

قالت: صفي لي ما أنت فيه، فقلت لها أشعر بشيء كالمغص في بطني، لكنه مغص جميل فضحكت وقالت: الناس يتحدثون عن اختلاجات في قلوبهم حين يحبون وأنت تتحدثين عن ألم في بطنك. فقلت: نعم، أحس بأن بطني تؤلمني كلما تحدثنا.

قالت: اقتربي منه أكثر سيذهب المغص.

اتصلت بآمال ابنة عمي وأخبرتها فقالت لي:

- لماذا تتصلين بي؟ اذهبي إليه.

- لا أجرؤ.

- أنتِ ساذجة؟!

- لا أستطيع!

- عندما يتحدث إليكِ استرسلي في الحديث معه لا تصمتي.

أرسلت له رسالة بعد تردد كتبت فيها:

- أريد لهذا الشعور الجميل أن يستمر في حياتي وأنت معي.

كان رده: وهل تستطيعين الحياة من دوني؟

- أجل يمكنني الحياة من دونك، لكن الحياة ستكون أجمل إن كنت فيها.

- هل أنتِ متأكدة؟

- نعم.

- ألا يوجد لديك مانع من الزواج برجل أجنبي، مختلف الدين والجنسية والثقافة؟

- لا.

- ظننت أن ذلك مشكلة كبيرة بالنسبة إلى أي امرأة مسلمة؟

- أجل هو مشكلة مع العائلة والمجتمع وليس مع الله.

- الله ليس سبب المشاكل، فهم الناس لله هو ما يتسبب في المشاكل. هل أنت متأكدة من أنها ليست مسألة أخرى؟

- لا يوجد لديَّ مانع من الزواج بك أنت بالذات. أي رجل آخر سيوجد لديَّ مانع.

- هل تحبينني يا ريم؟

- أجل.

- لماذا لم يوجد فيك ما يوحي بذلك؟

- أنا هكذا، أخجل.

- هل تشعرين بالسعادة عندما تكونين معي؟

- نعم.

- إذن لماذا لا تقولين، لا تعبرين؟

- لا أدري، أنا هكذا.

- لكنك تكتبين ذلك الآن؟

- لأنك لست أمامي.

- هل تخافين من شيء؟

- أنا خائفة على الدوام.

- لا يجب أن تخافي وأنت معي.

- نعم وجودك بجانبي يجعلني أقل خوفًا.

- هل أحببتني.

- نعم.

- أخبريني ما المختلف في الحب؟

- أشعر أنه يملأ الشقوق والفراغات في كياني الداخلي.

- هل تريدين أن نمضي أكثر؟

- نعم. وااا.

- قولي.

- أن نعقد قرانًا في المسجد وفي البلدية.

- حسنًا، سنناقش المسألة.

ولم يناقش المسألة كثيرًا كما قال. كان منسدحًا في الحديقة على ظهره، غطى وجهه بقبعته، نظرت إلى فمه قال: هذا بسيط جدًّا، على أن تتركي لي تحديد اليوم.

- لماذا؟

- لدي أشياء لا بد أن أنهيها وأفرغ لك.

هكذا اتفقنا على أن تكون حياتي أجمل وأن أكون أقل خوفًا. لم تستغرق ترتيبات عقد القران شيئًا، ذهبنا إلى مسجد باريوللي وقت صلاة الظهر، شهد أربعة رجال مغاربة على القران، أحدهم إمام المسجد، ذهبنا بعدها إلى شقة إدواردو على أن أعود لاحقًا إلى غرفتي في بيت بينا سترازا أجمع أشيائي وأسلم المفاتيح.

كان كل شيء سلسًا وحميمًا مع الرجل الذي هربت منه إلى القهوة بالأيس كريم حين لمسني أول مرة وكتب بأصابعه على ظهري Ti amo ثم وضعها على قلبي من مسجد باريوللي حتى بيتنا في سان بيترو وظل من ذلك الحين وفيًا في وضعها.

لامريكانو

عندما يتكلم أحدهم عن الماضي فإني أتخيله دائمًا بالأبيض والأسود، لا أستطيع فهم حدث في الماضي من دون تخيله بهذين اللونين، وكأن الجزء المسؤول عن الماضي في عقلي مصاب بعمى بقية الألوان.

تخيلته بالأبيض والأسود طفلًا شرس الطباع يتبع أمه في الحقول والبساتين بسراويله القصيرة وأحذية الجلد التي لا يجيد ربط خيوطها وتظهر في معظم صوره مفتوحة أو منزوعة من الحذاء نهائيًّا.

تخيلته يدخل يده في صدر أمه ليبحث عما تخبئه، نقود، سجائر، سكاكر، مفتاح الموتو، مفتاح الدكان... وهي لا تمانع من تقليب طفلها الفضولي تحت ثدييها، حتى أنها خبأت له حبات الكرميلا قصدًا لكيلا تخرج يده الصغيرة خالية.

أخبرتني أنه لمَّا أصبح فتيًّا ساعدها في أعمال البيت والدكان والبستان الصغير وكان يذهب لتحصيل الديون من تلقاء نفسه

بعد تصفح الدفتر ومعرفة ما فيه. يركب دراجته بسرواله القصير ويذهب لطرق أبواب المدينين في السفوح والتلال ثم يعود إليها بجزء من المال وبأكثرية الدائنين، شاكين من طول لسانه طالبين عدم إرساله إليهم مرة أخرى.

أخبرتني أن عجوزًا غاضبة أتت إليها منددة لأن «لامريكانو» دعس دجاجاتها بعجلته المسرعة من دون أن يراعي حتى صرخاتها المستنجدة المهيبة، تجنب دعس البقية.

قالت لها: ابنك لا يرى ولا يسمع يا فيدريكا، أقسم لك بالعذراء إنه لمجنون!

فأعطتها فيدريكا دجاجة عوض التي حملتها وتدلى رأسها من يديها طوال زيارة التنديد، علَّها تعدل بها عن رأيها في ابنها.

أخبرتني عن صاحبة «سينما أورورا» التي قايض أمريكانو ديونها بمشاهدة الأفلام دون أن يخبرها، ثم شج رأس ابنها ألفريدو حين مانع دخوله لمشاهدة فيلم «سارق الدراجة» ولم يكتفِ بضرب ألفريدو بل واعد أخته ثأرًا منه ومن أورورا، ولمَّا اكتشفت أورورا أمره جاءت وفي قبضتها حجر للدكان هشمت به زجاج الباب وهددت بحرق الدكان إن لم يتوقف لامريكانو عن مواعدة ابنتها والإيقاع بينها وبين خطيبها.

وجدت أمه في الأخير طريقة للتفاهم مع أناسها، مرددة على أسماعهم أن ابنها اكتسب طباع أبيه الأمريكي المتهورة. وكان العجائز

يقتنعون في النهاية بكلامها أو لا يقتنعون وتمضي الأمور إلى حالها قبل أن يعود لامريكانو لقلبها من جديد بعد يوم أو اثنين بفعلٍ ما.

وعلى الرغم من الاعتراض الذي كانت تبديه أمامهم على أفعاله فإنها في قرارة نفسها أحبت ضغط ابنها عليهم من أجل السداد، وكان هو يعي ذلك دونما حاجة إلى نداء استغاثة منها.

كان طويلًا نحيلًا وسيمًا بعينين زرقاوين فيهما ذكاء وقَّاد وأنف جميل فيه خنس وكان شعره بلون زرع صقلية بعد أن سفعته الشمس. وقد وصفت وسامته بإعجاب لم تتنازل فيه عن مقارنته بنجم السينما «غريغوري بيك» وكان هو يدمع من فرط الضحك كلما سمعني أردد أقوال أمه وكأنها حقائق.

- وهل تعرفين غريغوري بيك أم أن أمي أقنعتك بذلك؟

- لا حاجة لمعرفة غريغوري بيك طالما عرفت ذوق فيدريكا وعرفتك.

- أنتِ مثل أمي تبالغين.

- وما الضير في مبالغة المحب!

وينخفض الضحك آنذاك و ينقلب إلى نظرة مداها الامتلاء.

كانت علاقتنا متمهلة في كل شيء، صحبة نالت حقها من البطء والنمو المتمهل، لم تكن نتاج شيء لفت نظر أحدنا للآخر حين قابله لأول مرة وأثار إعجابه وتطور سريعًا إلى حب. كانت رفقة تشاطرها التشابه والاختلاف، التقبل والمدارة والهدوء.

كنت أذهب إلى حفلات الموسيقى الكلاسيكية من أجله ويذهب إلى السينما من أجلي، لا يمتنع عن التدخين في وجودي ولا أمانع ارتشاف شيء من سيجارته حين يناولني إياها على الرغم من عدم محبتي للتدخين.

هو لا يكترث بارتداء تيشرت ممزق أو فانيلا متنسلة وأنا أهتم بأناقته وأن تكون ثيابه جديدة خالية من العيوب، أنا أحلق له ذقنه وشعره غالبًا، وهو يصبغ أظافري بالبنفسجي والأحمر أحيانًا. هو لا يحب الأحذية ذات الأربطة وأنا أفضلها، لذلك انتعلها من أجلي دون اكتراث بالذهاب إلى محاضرة أو اجتماع أو مؤتمر والأربطة مفتوحة ما لم أقم أنا بعقدها. وقد أنحني لفعل ذلك أيًّا كان المكان الذي نحن فيه.

حين رافقني في إحدى زياراتي إلى طبيب النساء، طلبت منه أن يقعد على الكرسي ويداني سريري، اعتقد بأنني خائفة فلما وضع يده في يدي سحبتها ورفعت ساقه لأستطيع ربط حذائه، خجل وانحنى يلفه بطريقة عجلى وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي ربط حذاءه فيها بنفسه أمامي.

هو يحب الشرح وأنا أحب الإيجاز، هو يستولي على أغلب الفراش وأنا أكتفي بجزء بسيط منه، هو ينام في وضعية الأم وأنا أنام في وضعية الجنين.

هو يحب وضع المكسرات في جيوبه، وأنا أحب وضع يدي في جيوبه، أستولي على ما فيها ثم أقسم عليه ما أجده.

ذات مرة رأتني موظفة مكتب البريد ألامسه من الخلف وأدس يدي في سترته بينما كان منشغلًا بتحرير فاتورة، حدجتني بنظرات حارة فمازحها متبسمًا:

- أنا عادة أنسى نفسي وأرتدي أشياء زوجتي .

كنت أفتش يومذاك عن لوز صقلي في جيوبه جاءنا هدية من مزارع الأب ألبيرتو ساشينا ابن عمة والدته.

أحببت معانقته من الخلف كلما وجدته جالسًا، ألف ذراعي حول عنقه معظم الوقت وأظل أنكش شعره بذقني. بينما أحبَّ هو تمشيط شعري أمام أمه وجاراتها، متندرًا معهن ببعض النكات السيشليانية التي لا أفهمها ثم يفسر الأمر لاحقًا بأن الرجل الصقلي الأصيل يهتم بحبيبته أمام الجميع ويعتز بإظهار اهتمامه بها عكس رجال العالم.

توافقه أمه على رأيه على الرغم من أنه «لاامريكانو» على حد قولها.

لكنه مع ذلك لم يقبلني مرة أمام أحد، إما لأنه لم يحبذ ذلك وإما لأنه احترم حيائي.

لم نتكلم مرة عن ذلك.

كان يعطيني النقود دون أن أطلبها ويسألني متى رآني أتهيأ للخروج: هل معك نقود؟ حتى وإن كنت أخرج للتمشي. النقود ليست دليلًا على الاهتمام بل السؤال إذا كان طبيعة في الشخص كان دليل اهتمام.

في البيت وزعت الأشياء نفسها بيننا بشكل لم نتدخل فيه، فذهبت بعض المهام إليه وبعضها إليَّ من دون أن نقرر اقتسامها، وجدتني أعتني بترتيب الخزائن والتبضع والبحث عن المصادر ووجدته يعتني بترتيب المكتبة والطبخ وصيانة الأشياء والكي، وبينما كانت طاولتي مرتبة قليلة المحتويات، اكتظت طاولته بالأوراق وبأحجار من كل البلاد التي زارها، كان يجمعها ليشيد بها جدارًا من جدران مكتبته يوماً ما. مكتبة .. سُر مَن قرأ

وبينما أحببت أنا اللحم مستويًا، أحبه هو نيئًا دمويًّا، وبينما فضلت أكل الأرز والخضار فضل هو الباستا والأسماك وتفنن في إعدادها.

وبينما أحببت السينما والموسيقى الحديثة أحب هو الموسيقى الكلاسيكية وتقصى حفلاتها وسافر من أجل جمع أسطواناتها النادرة إلى أماكن متفرقة في إيطاليا، ومن أجلها أجاد إصلاح أعطال الفونوغرافات القديمة، لكنه قياسًا إلى غرامه بالموسيقى كان عازفًا متواضعًا على البيانو.

في أحد الشتاءات سافرنا بالسيارة ساعتين من كاتوليكا إيراكليا إلى باليرمو لزيارة صاحب دكان روبافيكيا في أحد أزقة باليرمو القديمة، من أجل جمع الفونوغرافات والأسطوانات القديمة، أحب القديم على الرغم من تعدد وسائط الاستماع الحديثة. كان يقول كلما سألته تجربة الوسائط الحديثة: هناك أناس خلقوا للجديد وأناس خلقوا للقديم. أنا خلقت لحفظ القديم، الحديث الفتي في حياتي هو أنتِ.

أرخنا في علاقتنا للأشياء بقبل وبعد وكأنها الطريقة الأنسب للحديث عن تعارف طويل قبل أن نرتبط ارتباطًا يشبه ارتباط الآخرين.

كنا معًا، كنا قريبين وصديقين ومتفاهمين ولم يشعر أحدنا الآخر بأنه قد فكر فيه إلى حد السرير، أو أن كلينا اجتهد ألا يجعل الآخر يشعر، ولم نتصارح فحدس أحدنا عن الآخر كافٍ.

كنت المنصتة معظم الوقت وهو الآخذ بناصية الكلام أيًا كان الحديث، كان مسؤولًا عن الكلام وكنت مسؤولة عن الصمت، مضينا رفاقًا على هذا الحال في السينما، وفي المحاضرات، أمام التلفاز، وفي القطارات، مع الأصدقاء، وفي السفرات البعيدة والقريبة، في المواقع الأثرية، وعند التمشي وفي السرير.

كان يبحث عني إن تأخرت، وأبحث عنه إن وصلت، وحين تلتقي النظرات ترسل إليَّ عيناه رسالة اطمئنان وترحيب من بين الطلاب وكأنه يقول لي:

لقد ارتحت الآن إذ رأيتك تحضرين.

كنت آخذ مجلسي في آخر الصفوف وآخر المقاعد وكانت عيناه دائمًا مشرئبة نحو الأبواب البعيدة والمقاعد الأخيرة وكأنها ارتبطت بي.

ذات مرة كنا نتأمل السماء المزدانة بالنجوم على رمال شاطئ توري صالصا حين سألني عن الأشياء التي تعجبني فيه وتشدني

إليه. وكان لا يمل من طرح السؤال نفسه من حين إلى حين وكأن تغييرًا قد طرأ.

كنت أدرك أنه يعلم إجابتي تمامًا لكني اشترطت للإدلاء بها أن يذكر هو الآخر الأشياء التي تجذبه إليَّ، فوافق، فرُحت أقدم إليه أجوبة بدت مضحكة على الرغم من أنها حقيقية.

قلت له: أحب قدمك الطويلة، أحب حاجبيك غزيري الشعر، أحب بناطيلك المائلة، وكنت أراقبها دائمًا حين تعمل في المواقع الأثرية.

لكنه احتج قائلا:

- المرة السابقة قلتِ إنكِ تحبين قدميَّ الطويلتين وأصابعها المشعرة، هل غيرتِ رأيكِ الآن في أصابعي؟

- كلا.. ما زلت أحبها..أحبها كاملة.

- وماذا أيضًا؟

- أحب حنانك، أحب اهتمامك بأمك وصاحباتها.

- وماذا أيضًا؟

- أحب كتفيك.

- قولي ماذا أيضًا؟

- لقد تجاوزت الثلاثة.

- قولي وحسب.

- طبخك.

ولما حان دوره للإجابة مضى يكركر ورفض إعطائي ردًّا ما لم أضف كل مرة شيئًا، حتى أضفته كاملًا في النهاية مقابل إجابة واحدة بكلمة واحدة سمعتها منه باستمرار وهي التي كتبها على ظهري وجسدي كاملًا.

هناك أوقات ناديته فيها من بين الناس أو بينما هو يدرس أو منشغلًا بالحديث على الهاتف لكي أقبل خده، قبلة هادئة متمهلة أذهب بعدها لشأني، كان يستغرب مبادرتي، ويلحق بي ثم ما إن يجدني مكتفية بها حتى يحك رأسه ويكتفي متبسمًا.

مع الوقت فهم أن مبادراتي تشبه وضعه ليده في صدر أمه. قبلة لا يلزم استيفاءها بشيء. قبلة لأجل التقبيل وحسب. هي حبة الكارميلا التي يذهب النشاط إثرها إلى ناحية أخرى.

أوَ لم يذهب للعب الكرة وجمع الديون وصيد الأرانب وقطع من الكراميلا تملأ فمه؟

كان إدواردو الكراميلا التي نكهتني وحلت رضابي وفكت عقدة لساني فابتلعتها بمهل ومضيت لحياتي كي أعيشها.

الثورة وتداعياتها ٢٠١١

- حدثت ثورة في بنغازي ألم تسمعي؟

أتذكر أنني نظرت إلى الساعة، كانت قد قاربت العاشرة مساءً، وأنا أعارك النوم أمام التلفاز والنوم يطيح بي قبل بلوغ السرير. جال في ذهني أن أختي تقص عليَّ إحدى رؤاها التي لم يتوصل أحد إلى معرفة مأتاها وعليَّ أن أصدقها.

ما الذي أسمعه؟

هل يمكن لشعب أن يثور في الليل أم أن أختي بالغت؟ كان ليلًا من ليالي بنغازي الرطبة يتهادى بطيئًا رتيبًا، فلماذا انتظره الناس وتركوا النهار بل لماذا لم ينتظروا طلوع اليوم التالي ليثوروا في النهار؟ على الأقل ستكون الحكومة صاحية وقد تسمع لهم.

- وهل سيختلف الأمر إن حدثت ثورة في الليل أو في النهار، لقد حدثت وقُضي الأمر!

لم آخذ شيئًا على محمل الجد، ثورة تحدث في الليل أو في أي وقت

مصيرها الفشل طالما حدثت في ليبيا، وأنَّى لثورة أن تنجح ونصف الشعب كلاب بوليسية للكلب الحاكم. والنصف الآخر يسير بمحاذاة الجدار قائلًا: «ليتخطاني العلي القدير وليدفع بغيري». سبق وأن عاصرت انتفاضة حدثت في بنغازي سنة ٢٠٠٦ أخمدت في غضون شهر، عزلت فيه المدينة وقطعت عنها الخدمات والاتصالات وكادت أن تجوع وتتحول إلى بؤرة أوبئة إن لم تقعي وتستسلم لمحاصريها.

شعرت أختي بأني لا أكترث وأنني فاقدة الأمل في أن تستأنس الكلاب، وفاقدة للحماس في مواصلة الحديث، فقامت بدفعي إلى ناحية ثانية:

- أيوب انضم للجماهير أمام محكمة شمال بنغازي.

- أي حفلة لا بد أن يرقص فيها أيوب، تعرفينه! حسنًا، أنا أريد أن أنام.

لكنها استنكرت جوابي:

- تنامين الآن؟ نحن مرعوبون وأمي خائفة.

- أجل أنام الآن ومتى ينام الناس؟ هل ينامون في النهار؟

- أنتِ إنسان بارد المشاعر، أقول لك نحن خائفون وأمي وجلة على أيوب وأنت تريدين الذهاب للنوم؟

- طوال حياتنا في ليبيا ونحن مرعوبون.. قولي لي متى لم نكن خائفين؟

- أقول لك إن أيوب دخل علينا حاملًا بندقية وقال لأمي بأنه ذاهب سواء رضيت أم لم ترضَ.

لم أنم. زرعت بنغازي في عيني كالسهاد. أخذت أفكر في أمي وأيوب والعائلة منذ ذلك الوقت، وفي الثورة التي استشرت في المدن والبلدات كما تستشري الحرائق في الغابات، ما عاد إرجاع السيف إلى غمده ممكنًا، فالجميع من الداخل والخارج ركب الثورة بطريقته لتمر الأيام تلو الأيام ونحن كل يوم في شأن أشد تعقيدًا من الذي سبقه.

كان القلق وقلة النوم قد منحاني سمتًا منهكًا، أهاتف أمي أجدها تبكي مصارعة وساوسها على أيوب وسلامته، ينتابني ضيق أكبر وأفكر كما لم أفكر من قبل في أن تنكمش الأرض وتضيق المسافة كي أصلها وألازمها وأحضنها وأطمئنها وأخلع عني قلقي وأرقي الملازمين.

ومِن لو صعبة التحقق بشأن أمي إلى واقع تجسدت فيه مخاوفي بشأن الآثار، عاودتني اضطرابات معدتي، مع توتر الأحداث، ومغادرة البعثات الأثرية ليبيا. غادرت واحدة تلو أخرى، كان خروجها مؤشرًا سيئًا وجليًّا على أن الأمور تتفاقم في اتجاه صدام مسلح قادم لا محالة.

باتت الآثار منزوعة الرعاية والحماية، هدفًا سهلًا لعصابات التهريب المحلية والدولية، كانت هدية الحظ السعيد لهم والحظ التعيس لنا. اختفت لُقًى أثرية نادرة ومنحوتات ورؤوس وتماثيل

نصفية وعملات وأسلحة. خافت شرطة الآثار أيضًا وتهربت من مواجهة اللصوص أو بدا وكأن لا قدرة لها على مجابهتم.

حارس لموقع أثري وُجد قتيلًا جعل البقية يقرون في بيوتهم، لن يموتوا من أجل حجر أو وعاء فخار أو عملة أو قلادة أو حتى تمثال بديع للمسيح على عمود كنيسة يهشمه حارس الكنيسة بنفسه.

كان متطرفًا واتته فرصة إخراج الكبت الذي بداخله فانهال على أيقونات الكنيسة بالتهشيم حتى اقتنع في قرارة نفسه بأنه ساهم في نشر الإسلام.

شرطة الآثار لم تستطع عمل شيء، كانت كالأسنان المنخورة بالتسوس، موجودة لكنها غير فاعلة، تعرف الفاعل وتعجز عن معاقبته، فالجميع هناك أقارب، يحتمون بالقبيلة ويترصدون لمن يخالفهم، العاقل لن يدخل في عداوة وبغضاء مع الأقارب والقبيلة بسبب عمود كنسي أو رأس تمثال أو جرة مثلومة. أما إذا كان غريبًا عنهم فمن الخير له أن يحافظ على فمه مغلقًا.

المسيح في أراضيهم، ولن يستطيع أحد من خارجها أن يدافع عنه أو عن عمدان الكنيسة التي تتأذى كل يوم بالخربشات وبالمطارق العمياء.

استمر حارس كنيسة سوسة في عمله «تهشيم الأيقونات والرموز المسيحية» واستمرت لحيته في الطول وسرواله في القصر واكتسى وجه ليبيا بالسخام.

أوقفت البعثات الأثرية أعمالها وكأنها أصيبت بإصابة عمل بالغة، ذهلت قليلًا ثم كثيرًا، كانت الآثار التي عايشتها أعوامًا جزءًا عزيزًا مني، يذيل نشرة مليئة بالدماء والقتلى والاغتيالات، اختفاء رأس حسناء إغريقية، أو سرقة تمثال نصفي من أحد المتاحف أو تحطيم أيقونات بكنيس هنا أو معبد هناك.

تلك الثورة التي تداخلت فيها الأحداث، أخرجت كل شيء من مكانه، أخرجت أيوب من حياته كتاجر ناجح إلى حياة الجماعات المسلحة، وأخرجت نفائس ليبيا إلى أسواق العالم السوداء. وأخرجت أسوأ ما في العالم تجاهنا.

الغريب حقًّا أن العالم تصرف مع الآثار الليبية عكس ما تصرف مع الجنسية الليبية، حيث أدخل الآثار والأموال المنهوبة من ليبيا، وأغلق أبوابه دون الليبيين!

مكتبة
t.me/soramnqraa

عاجل بنغازي

بعد رحيل أختي المُر، ملكت الشجاعة لفتح حقائبها وأجهزتها. أدارت أمي ظهرها لكل شيء، طريحة الفراش كمدة من حزن فتاك.

للتو فقدت اثنين من أولادها وابنًا لها لم تلده منها وتكدس حزن العالم فيها.

لم تعد تتكلم عن شيء. انسحبت إلى غرفتها تبكي على كر الأيام ولم تجف عيناها من الدموع.

لم تعد تفتح فمها إلا للدواء، أقف عندها لحظات. تتجرعه ساكتة على مضض، وكأنها تقول: لا فائدة من شفائي. لا فائدة من شيء وسيثبت لكم الدواء ذلك.

أمسد يديها وقدميها وأقول ما عنَّ لي في لحظته وأحيانًا لا أجد شيئًا صالحًا لأن يقال، أنكمش أنا أيضًا بجانبها في أحزاني.

وجمت أمي وجومًا لافتًا وكان من البيِّن أنها تعاني أزمة نفسية حادة وقد هزلت واعتلت ولم تعد قادرة على الوقوف، صارت

كالطفلة الصغيرة كلما حضنتها تبكي بشكل لافت، تطيل النظر إلى وجهي وكأنها تريد أن تراني أكثر لترى فيَّ توأمي التي آلت إلى تراب اللحود.

أبكي مما فعلته الأيام بنا وأقبل يديها، ماذا بك يا أمي؟ تهز رأسها وقد تعيد قولها الذي قالته من قبل بريق جاف: وما الذي ليس بي؟!

صرت مريضة بالخوف من أن أجد نفسي وحدي وليس معي في هذا البيت الفارغ سوى شاب مريض، وقد مات كل من أختي وأمي ونأى أخي الوحيد أما أمينة فهي ليست مصدرًا الطمأنينة منذ سنين.

قررت البقاء بجانب أمي وعدم تركها وحيدة في شيخوختها وحزنها. لم يعجب زوجي بقراري وقد حدثت بيننا بعض المشادات أثناء مناقشة الأمر. لكنني تركت له أن يقرر ما يريده، إما العودة إلى بنغازي وإكمال حياتنا معًا رغم الأزمات وإما الفراق وأطفالي معي.

أخذ زوجي يوسط بعض الأصدقاء بيننا «تحدثوا معها علَّها لا تدمر عائلتها».

لكنني عزمت وأرجو ألا يخيرني بين أطفالي وأمي.

يصعب تخيل كيف تعقدت الأمور إلى هذه الدرجة، ليس لديَّ أي فكرة أين سينتهي بنا الأمر.

أرسلت عائلة مروان في طبرق حقائب أختي ريم وحاجياتها.

فأبعدناها كي لا تراها أمي. ظلت الحقائب في غرفتي شهرًا لا أجسر على فتحها وزوجها المكلوم يلح من روما: افتحيها أريد بعض المستندات.

وضعت كل قطعة من ثيابها على وجهي واستغرقت في العويل.

ليتني مت معك، كل شيء تقاسمته معك إلا الموت أخذته كاملًا لك وحدك وذهبتِ. لماذا يا ريم؟ ما زال الوقت باكرًا والعمر يانعًا ونحن في أولنا؟

جئنا من المستشفى إلى البيت سنة ١٩٧٧ معًا، تقاسمنا كل شيء معًا. اليتم، حنان الأجداد ودفئهم، رعاية الأم، الحجرة، الملابس، المدرسة، الأحاديث، الطعام، المغامرات، الألعاب، الأصدقاء، الأسرار، الأحلام، الذكريات، الأسفار، الحرب وشروخها الجسيمة.

ما أقسى الذاكرة التي تركتها لي وما أثقل العيش على الأطلال.

أجهزة الحواسيب والهاتف مثل الناس لم تميز بيننا، نفس الوجه يفتح تشفير أجهزتها وأجهزتي. كانت هذه لعبتنا في أوقات المرح، لكن الوقت لم يعد وقتًا لشيء، وأنا مجبرة على ترتيب الأمور العالقة.

كل ما وجدته في كمبيوتر أختي الراحلة أعرفه عنها، آراؤها، مشاعرها تجاه الأشياء والعالم والناس وزوجها وابنتها والعائلة، كيف تعبر عن كل شيء وماذا تقول، عرفت ذوقها فيما تحب وما لا تحب وما تحب بدرجة أدنى، عرفت صراعاتها الداخلية منذ أن خصها الله بالتأتأة والخجل إلى صراع إخفاء الزواج ثم صراع

الرغبة في الإفصاح عنه. الكونشيرتو الذي كتبته لابنتها على مدى أشهر حاصرتنا فيها الحرب في بيتنا في الفويهات مع انقطاع الكهرباء وانعدام الخدمات وعزلتنا الشاحبة عن العالم.

عرفت ما كانت تكتبه «بعض الأحاديث التي أريد أن أحدث بها ابنتي لو كان في العمر بقية»، لكنني لم أطلع على ملف الكونشيرتو في حينه.

كانت منزوية في الركن بينما الحرب قائمة في الخارج والوقت يمضي مريبًا ثقيلًا، فيزيد من الانكفاء على الذات والانسحاب إلى الصمت المضطرم بأحاديث الموت والحياة. أحيانًا سألتها: هل انتهيتِ؟

فتجيب: لا شيء ينتهي، كلما كتبت أطل جديدٌ يريد الكتابة، لا أشعر بأني قلت كل ما أردت قوله، عائلتي التي نصفها في المقبرة، أبي، جدي، جدتي، عمي. ابنتي البعيدة وزوجي، أمي التي جئت من أجل مفاتحتها بأمري فتعقدت الظروف، علاقتي المضطربة بأخي، حياتي المعلقة في إيطاليا، وبنغازي التي يؤلمني حالها.

- دعكِ من ذلك كله واكتبي عن الحب.

ابتسمت ابتسامة كدرة مميلة رأسها إلى كتفها: ماذا أكتب ومشاعر الحزن والأسى تكدر صفوي وتقضم روحي. كأني تغيرت، كأني كبرت وشاخت قصص الحب في نظري.

- اكتبي كيف وقعتِ في الحب. كيف استقبلتِ اللمسة الأولى

من إدواردو وكيف أغرمتِ به، كيف ترافقتما في تحفظ مدة قبل أن تتصارحا، كيف تزوجتما، اكتبي عن تدريباتك للغوص في سواحل سيشيليا وسؤالك إدواردو عن اتجاه ليبيا ثم سباحتك باتجاهها عارية، اكتبي كيف اخترتِ له البدلة التي تزوجك فيها، ثوب زفافك الجميل الذي أهدتك إياه آمال ابنة عمي، مفاجاءتنا لكِ بمجيئنا إلى روما للاحتفال بكِ، آمال ويزن وزكريا وهاني وأنا، يا لها من ذكريات جميلة. أتصور أن الكتابة عن الحب في هذه اللحظات الكريهة التي نحياها هي احتفاء بالحياة.

- تدركين تحفظي العاطفي. ستعرف ابنتي أني أحببت أباها، وأني أنجبتها بحب، ربما ستهتم بالتفاصيل فتسأل وربما لن تسأل كحال الأولاد دائمًا. انظري إلينا مثلًا، هل سألنا أمي مرة هل أحبت أبي وكيف؟

- أنا أحب الكتابة الرومانسية.

- أنت دائمًا رومانسية.

كنت أطلب إليها أن تكتب قصتنا لأنها ستكتبني أنا أيضًا بنفس المشاعر فلطالما تكلمت أنا أفضل منها وكتبت هي أفضل مني.

- أنا جادة فيما أقول، تعجبني قصتك، الرجل الغريب الذي أحببته، وتزوجته، مخاوفك من أن يعلم أيوب وأمي، اهتمامك بتعليم ابنتك اللغة العربية، رسائلكما الصوتية.

- الرسائل الصوتية! هل تعلمين أنهم يجهزون لعيد ميلادي. قالت لي سنصنع لك كعكة يا ماما ونشتري لك شموعًا وزينة وندعو أصدقائي وأصدقاء بابا ونحتفل بك، سنفتح الكاميرا لتكوني معنا.

- سنحتفل معًا كيفما كانت الظروف. على أي حال نحن نعيش هنا على الشموع وبالتالي لا ينقصنا إلا كعكة وبعض البالونات.

بم.. صوت انفجار قطع الحديث، هز البيت وكسر زجاج بعض النوافذ. أخذنا نجري إلى القبو فربما كانت هناك قذيفة أخرى آتية في الطريق نحونا.

أصابت ريم هستيريا، ضمها هيثم إليه مسترسلًا في الطمأنة على طريقته بأن الأمر جد اعتيادي لدينا، أخذ في سرد النكات لإلهائها وتعطيل فكرة الخوف السوداء عن أن تكبر في ذهنها.

كان الانفجار ناتجًا عن عملية اغتيال بسيارة مفخخة.

خافت أختي من سقوط البيت، وخافت من التفجير، وخافت من مداهمات اللصوص، فقد أضحت السرقة عملًا مستتبًا، لا يتأثر بسوء الأحوال.

زادت مخاوفها فما حدث كان مريعًا بحق. سرقت ڤيلا آمال ابنة عمي وهي في ألمانيا وقتل في إحدى الڤيلات المجاورة لها رجل حاول مقاومة اللصوص، وجردت بيوت النازحين من الحرب من

محتوياتها، بل وسرقت أسلاك الكهرباء وتوصيلات الماء والنوافذ والأبواب والمواسير.

كان لصوص الحرب موتًا تافهًا يداهم حياتك بسلاحه، فإما تسلمه ما معك وتتركه ينظف بيتك أمام عينيك وإما الذبح على طريقة داعش فداعش حاضرة في بنغازي وإضافة جريمة إليها لن تجعل كيس جرائمها يفيض على أي حال. كانت البيوت بالرغم من عدم حصانتها ضد الحرب ملجأنا الوحيد، نلوذ بها ونحن ندرك أنها خذلت كثيرين وسقطت على رؤوسهم وأربكت مفهوم الحماية طالما بمقدور أي عصابة من الأشقياء دخولها من أبوابها.

صبيحة الانفجار، داهمت مجموعة مسلحة بيت أخي أيوب ونهبته وكتبت على جدرانه بعض التهديدات لمن يحاول فتحه أو بيعه أو سكنه، راقبناهم من نوافذ بيتنا كيف ينقلون أثاث الڤيلا وأشياء أيوب، وكانت دموعنا السخية تغسل النوافذ المواربة على بيت أخي ومآله، فرغت العصابة المسلحة البيت من محتوياته وفي المساء عادت وأضرمت فيه النار!

لم يشف غليلهم الحرق، دخلوا علينا وأنذرونا بالرحيل عن بيتنا.

- افتحوا الأبواب، نعلم أنكم مختبئون هنا، افتحوا وإلا اقتلعناها.

اتصلنا بمروان وأبلغناه، جاءنا في الفجر وطلب منا المغادرة تحت حمايته إلى طبرق والبقاء هناك في جوار عائلته، ألحّ على ضرورة

خروجنا من بنغازي بعد واقعة حرق ڤيلا أيوب، غير أن أمي تمترست بالبقاء في البيت حتى تنتهي المعضلة. ولم أفهم سبب إصرارها على ماذا ولماذا؟

قال لها مروان:

- الحرب لن تنتهي يا خالة، أعنف فصولها لم يأتِ بعد، الجيوب الأخيرة من داعش مستميتة وتقاتل بشراسة.

طأطأت أمي رأسها وسحبت وشاحها على وجهها فمن يقاتلهم مروان في أحياء بنغازي ويطاردهم الجيش من حي إلى حي هم أيوب وجماعته، قاتلوا الجيش بعد سقوط النظام وأرادوا إقامة خلافة إسلامية وبايعوا تنظيم داعش في العراق وسوريا.

كان أيوب هو الميت الحي في عائلتنا.

هناك أيام تواصل فيها القصف واصلًا الليل بالنهار، كما لو أنهم استبدلوا بالرجال الذين أرهقوا رجالًا آخرين أخذوا كفايتهم من النوم والطعام لكي يستمر السباق على من يقتل الآخر أكثر.

كانت الأخبار الكاذبة مؤونة الناس، الحرب طالت بسبب الجيش، هناك عناصر منه ساعدوا الميليشيات، الجيش لا يريد إنهاء الحرب، الجيش يساوم سياسيًّا بها.

وكنا نموت طوال الوقت عدة ميتات، إحداها الخوف من خذلان من وثقنا بهم.

استحالت المدينة خرابًا حقيقيًّا، تناهبتها القذائف والصواريخ،

غادر من لديهم القدرة على مغادرتها إلى الخارج ولجأ إلى الدواخل والأرياف من ليس لديهم سوى القدرة على الفرار، أما من لم يستطيعوا الخروج فقد مكثوا وصبروا فرفدوا من قاتلوا أو قتلوا، جمعوا أشلاءَ أو صاروا أشلاءَ، أزاحوا ركامًا أو أسعفوا مصابين أو استبقاهم القدر ليدفنوا من قضوا أو استثمروا سوء الظروف ليتاجروا أو ليسرقوا، ففي الفوضى لا يمتدح حال بأي حال.

من الصعب أن تقول لمن قدماه في الطين، ابقَ نظيفًا.

كان نهب الآثار من السرقات التي نشطت أثناء اعتلال البلاد، كنا نتتبع أخبارها ونتألم كلما سقطت قطعة أثرية في أيدي اللصوص. وفي يوم من أيام القيظ سرق كنز بنغازي الأثري من خزانة البنك التي أودع فيها.

ذاع النبأ على مواقع التواصل الاجتماعي وسرعان ما اتهمت الميليشيا المسيطرة على منطقة وسط بنغازي بتفجير خزنة البنك وسرقة الكنز الأثري(١).

باتت صورتنا في الحضيض، فالميليشيا المتهمة بتفجير البنك وسرقة الكنز ميليشيا يقودها أخي أيوب، وينسق استمرارها في القتال مع صهرنا وقيادات أخرى في مصراته تغذية بالعتاد والمقاتلين.

أغلقت أختي على نفسها الغرفة وبكت طويلًا. «ليس هذا ما تركت إيطاليا وجئت من أجله». لفنا الخزي من أفعال أيوب

(١) يتألف الكنز من عشرة آلاف قطعة أثرية ما بين عملات ذهبية وفضية ورؤوس تماثيل ومنحوتات نادرة تعود إلى ما قبل الميلاد.

الطامح إلى إقامة دولة الخلافة الإسلامية، عزلنا أنفسنا عن الناس قبل أن ينعزلوا عنا وينسحبوا من روابطهم معنا.

مع ازدياد حدة المعارك وازدياد الضغوط وتردي الأوضاع المعيشية طالبتنا أمي بمغادرة بنغازي إلى مصر برًّا .

- عودي أنتِ إلى زوجك وولديك، وعودي أنتِ إلى حياتك في إيطاليا، واركب أنت طائرة من القاهرة إلى قطر. كن مع أمك وإخوتك وأبيك هناك، لا أريد أن أُرزأ في أيٍّ منكم، يكفيني مصائب.

قلنا لها: ويجب أن تذهبي أنت إلى سوسة، يجب أن نغادر جميعًا.

قالت: لن أغادر بيت محمود إلا إلى القبر.

قلت لها: إنما تودين البقاء من أجل أيوب، روحك تريد أن تبقي قريبة من هذا الولد الضال كأنه سيعود لكنك تحلمين يا أمي، أيوب ارتكب من الأفعال ما جعل دخوله من هذا الباب مرة أخرى مستحيلًا، لا أحد هنا سيتسامح معه بعد الدماء التي غرق فيها. لا أحد سينسى له شيئًا. أرجو أن تسلمي بالواقع.

رفض هيثم مغادرة بنغازي واللحاق بأهله في الدوحة مهما ساءت الظروف، لم يتقبل أبدًا الحياة مع أب هو أحد عَرَّابي الحرب في بنغازي. أما عودة ريم إلى روما فكانت موضع نقاش بيننا أنا وهي وآمال ابنة عمي قبل أن نستعين بمروان.

«لديك طفلة يجب أن تعودي إليها. لن نموت كحمقى هنا» .

كانت أمي مفطورة القلب بيننا جميعًا، لكنها تبكي أيوب وكأنها خصته بدموع توازي محبته، كان يتصل بها أحيانًا وهو محاصر مع جماعته في أحياء الصابري وسوق الحوت يطلب منها أن تسامحه وتدعو له، كانت تتوقع موته في كل آن متوجسة من أن تكون دَقة الهاتف القادمة هي التي تنعيه إليها.

ظهر تأثير الكارثة التي نحياها كعائلة على أجسامنا وأشكالنا وتصرفاتنا وتعاطينا مع أنفسنا ومع الآخرين. نحن عائلة أحد الإرهابيين الذين يتحدث الجميع عن فتكهم بالأبرياء.

كنا حزانى ولا نقرب الطعام الذي بالكاد نحصل عليه إلا لَمًا، ولا ننام بقدر يكفينا، نحيا على جمر في انتظار أن تنتهي الحرب، ليس في وسعنا فعل شيء عدا ترقب أن تنتهي الأخبار السيئة، أو الغرق في صمت ثقيل حتى تشتاقنا أصواتنا، ولا حياة إلا على وقع التوتر كلما ضيق الجيش الخناق على الجيوب الأخيرة لتنظيم أنصار الشريعة حيث أيوب الرافض لنداءات وضع السلاح من أمي ومن زوجته ومن أصدقائه، مسكونًا بفكرة الخلافة الإسلامية إلى حد يثير الشفقة، فكيف استوطنته تلك الفكرة الشاذة وجعلت منه شخصًا غريبًا لا نعرفه؟!

كيف استوطنت تلك الفكرة الشيطانية أخي الطيب؟

مزقت الحرب عائلتنا، فصِهرُنا عثمان وإخوته وأبناء عمومتنا في مصراتة داعمون للحرب في بنغازي بكل الجهود، وأمي تهاني وأولادها ضحايا لها، ابنتها نسرين هي زوجة أخي أيوب وابنها

محمد هو الطيار الحربي الذي اغتاله تنظيم الدولة أمام بيته. فكيف ستغفر لأبناء أختها ولابن أخيها جرائمهم؟

أمي لم تعد قادرة على التواصل مع أحد، فالعائلة كالناس في بنغازي يسمون ابنها وصهرها بالمجرمين القتلة. لا حيلة لها إلا البكاء والدعاء.

تعلقت برقبة مروان سائلة إياه عدم إيذاء أيوب: أرجوك لا تقتله، إنه صديقك، ابني ضحية عمليات غسيل دماغ، منذ بدأ رحلات الحج والعمرة انقلب فكره. ابني لم يكن يومًا متطرفًا.

أبكى مروان بكاءها لكنه أصر على عدم تحمل مسؤولية ما سيحدث لأيوب:

- لا أستطيع أن أعدك يا خالة، الأوامر أتتنا بالاقتحام ولا بد لي من الوفاء لشرفي العسكري والدفاع عن الوطن. كلميه.. قولي له أن يخرج تجاه البحر، سيتركهم طيران الجيش يخرجون من دون أن يقصفهم في عرض البحر، أعده بذلك، قولي له اخرجوا لمصراتة لأننا سنضطر إلى دك الأحياء التي يتحصنون بها. الأوامر صريحة صدقيني لن يبقى منهم أحد حيًّا.

كانت تلك الزيارة في الحقيقة إعلانَ موت أيوب. اللحظة التي خشيتها أمي لكنها جاءت في الأخير وطرحتها في الفراش.

مزقتنا المحنة ألف قطعة وقطعة، فنحن بعضنا ضد بعض.

عماتي، أبناء أعمامي، نحن، أختي أمينة، أخي أيوب، ابن أختي، ثم أختي ريم وأنا.

أصدقاؤنا في بنغازي ومعارفنا من ضحايا الجماعات الإسلامية ومؤيدي الجيش.

ثم تلك الفئة التي أفرزتها الحرب وعرفت باسم «أولياء الدم» وسعت إلى الانتقام من عائلات المتطرفين.

حاول مروان وأبناء عمتي حمايتنا من التهديدات ثم نصحنا بمغادرة الڤيلا إلى سوسة حتى تنتهي الحرب ويستعيد الجيش السيطرة الكاملة على المدينة.

عدنا آنذاك إلى حديث المغادرة وأبلغت أمي هيثم نيتها أن يرحل إلى أهله في الدوحة. فرفض هيثم تركها متشبثًا بقدميها.

- لن أتركك وحدك، إذا قدر الله لنا أن نموت سنموت معًا.

- عد إلى أمك.. لا تقهرها بك.

- لا أعرف لي أمًّا سواك، ربما من الأفضل أن نذهب إلى سوسة حتى تهدأ الوتيرة.

كان بؤسًا لا يوصف، بدأت خطة إعادة توزيعنا على العالم «هكذا أسميناها في نقاشاتنا، حاولت إقناع أمي بالانتقال إلى سوسة أو بالسفر معي إلى مصر وحاولت هي إقناعي باللحاق بزوجي وطفلاي وتدخلت آمال ابنة عمي لإقناع الجميع بالرحيل عن بنغازي فبنغازي لم تعد سوى خرابة.

أما أختي ريم فقد رتبنا أنا وآمال ومروان خروجها بالبر عن طريق مصر لعدم وجود طيران ثم من مصر تتخذ وجهتها إلى روما، إلا أن طريقها تغير في منتصف الطريق ولم تصل مصر. تغير طريق ريم جدًّا وإلى الأبد!

قال مروان: لا تخرجوا من بنغازي إلى طبرق من دون رفقة آمنة. انتظروا حتى أُرسل لكم واحدًا من رجالي يرافقكم.

كان مرافقنا عسكريًّا في زي مدني أخفى سلاحه تحت كرسي القيادة تحسبًا لمفاجآت الطريق، فمسلحو تنظيم الدولة منتشرون والاستيقافات الوهمية بغرض السرقة كذلك.

ارتدينا ملابس لا تثير ريبتهم، بدونا فيها كعائلة متواضعة تمضي لشأنها، نساء محجبات ورجل وشاب يافع ملتحيان في جلاليب عليها كنزات ينتعلان شباشب أسفلها جوارب طويلة. أعطتنا الثياب هوية رعايا دولة الخلافة التي يطمحون إلى إقامتها في ليبيا. تلك كانت أزياءهم.

اجتزنا درنه عاصمة الخلافة الإسلامية وتنفسنا الصعداء. وصلنا طبرق، ووجدنا منصور الأحرش شقيق مروان في انتظارنا.

ودعنا أختي رفقة عائلة من طبرق تقصد الإسكندرية رتب منصور سفرها معهم.. دفعنا أكثر في سبيل وصولها سالمة وعدنا أدراجنا أنا وهيثم ورفيق مروان، كانت هناك متابعات متقطعة بالهاتف بيننا متى توفرت إشارة شبكة الاتصالات.

ثم لَمّا جن الليل علينا وعرفنا أننا مهما سابقناه في الظلام والدروب الخطرة فلن نصل إلى بنغازي، اقترحت أنا أن نبيت في سوسة ثم نواصل طريقنا إلى بنغازي مع الصباح. قال السائق بأن عليه التزود بالبنزين من أحد تجار الوقود في مزارع محيطه بقورينا، ونزلنا أنا وهيثم لدى تتي أتريا.

دق هاتفي في وقت متأخر من الليل، كان المتحدث مروان، هيئ إلَيّ أنه يتصل للاطمئنان عنا، نعم نحن متعبون من السير والخوف لكننا بأمان في بيت أتريا، هناك كهرباء والرجل عاد ببنزين لا نعرف كيف تدبره وسنواصل طريقنا إلى بنغازي صباحًا. غير أن صوت مروان لم يكن مستبشرًا، وكانت كلماته مرتبكة وغير منتظمة وكانت بنغازي بعيدة، بعيدة جدًّا.

- حسنٌ أنكم بخير، أعني ألم تتصل بك آمال؟ من يوجد في البيت مع أمك؟

- تركناها وحدها.. لا يوجد أحد. أخبرني الصدق هل حدث لأمي شيء؟

ذهبت أفكاري نحو خبر سيئ يحمله عن أيوب، فبنغازي تخوض مواجهات حادة كما تركناها وراءنا وأيوب يستميت في الصابري وسوق الحوت ومروان يقود وحدات الجيش التي طوقت أيوب وأتباعه.

كانت أصوات القذائف غالبة على صوته الذي أرهقته الأيام،

أدركت أن أمرًا جللًا دفعه إلى ترك معركته في بنغازي ومهاتفتي، أو يكون أيوب؟ قل لي بصراحة هل حدث لأيوب شيء؟

قال مروان: الحمد لله أن لديك شحنًا في الهاتف.. خفت ألا تجيبي. اسمعي.. وكان يلتقط كلماته من الهواء.

- نعم أنا أسمعك... تكلم، قل هل أمي بخير؟

- اسمعي.

وسمعت صوته يغلظ ويرق ويشهق ويبكي. لم يكن ما قاله أبدًا في الحسبان، لم يسقط الهاتف من يدي ولم تخرج صرخة من حلقي بل تلاشيت لهول الفاجعة.

قبل بلوغهم الحدود المصرية أخذت السائق سِنَةٌ قصيرة، كان لا يريد التوقف رغبة في تحصيل الجمارك المصرية مع الفجر، فجنحت السيارة منه عن الطريق وانقلبت. كانت صحراء وجُهْمة واتصالات مقطوعة. عثر مواطنون على السيارة منكفئة على ناصيتها من أضوائها التي تشع من بعيد، حاولوا إنقاذ الركاب، كانت ريم غائبة عن الوعي وتنزف، لمس أحدهم وريدها فنادى في الآخرين: ما زالت حية لنسعفها بسرعة إلى طبرق.

وجد ثلاثة من الركاب في الحادث صرعى، وكان السائق جريحًا لكنه استطاع الكلام ودل على نفسه وعلى الذين معه.

نحن عائلة من طبرق معنا فتاة من بنغازي جاءت من طرف منصور الأحرش.

حمل رجل عجوز أختي ريم بين ذراعيه طوال ظلام الطريق المربكة بينما قاد صهره بما أمكنته سرعة السيارة لعله يبلغ بها مستشفى طبرق حية، لكنها أسلمت الروح وهم على مشارف المدينة. كأن قدرها قادها دائمًا إلى حيث يوجد رجل عجوز تستند إليه وتغمض عينيها بين يديه إلى الأبد.

تلقى منصور الأحرش اتصالًا أحاطه عن الحادث وأن عليه المجيء واستلام جثمان فتاة من بنغازي أبلغ عنها سائق المركبة. المستشفى لا يستطيع الاحتفاظ بالجثمان نظرًا لانقطاع التيار الكهربائي عنه.

ماذا أقول لأمي التي ودعتنا آملة لنا في الحياة؟ كيف أخبرها وماذا أقول لها، الروح التي رافقتني من أحشائك إلى الدنيا أفلت، الروح التي قاسمتني كل شيء رحلت، كأن التي قضت في نزف الطريق أنا لا هي، من يخبر أمنا أننا متنا معًا؟ وأن الراحل الأول من أولادها ليس أيوب كما توجست من طرق الباب السريع ورنين الهاتف.

أنزلي يدك عن قلبك وكفّي عن قول: أيوب؟ اصرخي في وجه مروان الذي أتاكِ مشيعًا أختي بدموعه، اصرخي وارفضي تصديق النبأ ودقي صدره بيديك وانزعي وشاحك وشقي قميصك كما لو أن الحزن سيتوقف إن رآك فاقدة الرشاد.

من مات تلك الليلة الدامية في بنغازي ليس أيوب يا أمي، من مات أختي وأنا.

من ماتت أنا وهي كما أخبرتني الرؤيا التي رأيت فيها يدًا من السماء تنتزع قلبي ويهطل رأسي بالدماء كأنه نافورة حتى قفزت من سريري مذعورة إلى سريرها قائلة: ريم يا ريم أنا خائفة، أنا خائفة.

- ما بكِ؟ سألتني.

- رأيت شيئًا مخيفًا.

أبت أن تسألني عنه، كانت خائفة من أن تسألني، أخذت رأسي إلى صدرها ناصحة بالهدوء وعدم تصديق شيئ مما أراه، فما رأيته في الطفولة نصفه مخلوط بأكاذيب الصغار وخيالهم الواسع وما رأيته في الصبا نصفه ناتج من أحلام مرتدة لم تتحقق في الواقع وما رأيته في الشباب نصفه ناتج عن الخوف من المجهول.

حاولت الركون لطمأنتها الواهية ثم ادعيت نسيان ما رأيت في اليوم التالي ولم أتحدث عنه دون أن يختفي من أعماقي السؤال عمَّن كانت التي رأيت يدًا تنزع قلبها حيًّا؟ هل كانت أنا أم هي؟

ما بين البكاء وانتظار انبلاج الصباح، لم يذهب عن عيني مشهدها مسجاة غريبة في ثلاجة مستشفى بعيد. ليست قريبة من أحد ولا أحد قريب منها، لا نحن ولا ابنتها وزوجها. لا أحد سوى هي وموتها وحسب.

كان مروان يخوض معركته الكبرى ويجري اتصالات بأبناء عمومته في الوقت نفسه لتجهيز الجثمان وإرساله عبر طيران الجيش إلى بنغازي، كان كل شيء صعبًا ويجري في حلقة من المعارف. كان

طيران الجيش هو الطيران الوحيد الذي يحلق منذ سنوات في سماء بنغازي. يعيد جثامين من قضوا في معركة التحرير إلى أهاليهم وقراهم أو يقصف أوكار دولة الخلافة الطامعة في التهام دولة الأحلام.

حملت إلينا طائرة شحن عسكرية جثمان أختي ريم في تابوت غطاه منصور الأحرش برداء أمه الحرير وكتب عليه «عاجل بنغازي».

دفع منصور نفقات التغسيل والتكفين فوصلنا جثمانها جاهزًا للصلاة والدفن.

خفنا عليها من الموت ولم نكن نعلم أننا نرسلها عاجلاً إليه!

عادت أختي إلى بنغازي في ظروف عصيبة كي تنام بجوار جدي في يوم أربعاء من سنة ٢٠١٦. وشاء القدر أن يُحمل أيوب بعيدًا في قوارب الفارين إلى مصراته مصابًا في ساقيه فتنقله قيادته من هناك إلى تركيا للعلاج وهناك يتقرر بتر إحدى ساقيه.

وأن يستشهد مروان الأحرش وسلاحه على صدره بينما يمشط أحياء وسط بنغازي المحررة تمهيدًا لعودة الأهالي. داس لغمًا زرعته الجماعات الفارة، فجُمِع أشلاءَ ممزقة من كل اتجاه ما عدا قدمه التي داست اللغم تفتت وتناثرت فوق التراب الذي أقسم له بحياته.

ترك مروان خمسة أطفال يتامى وأمهم، جراح لن يمسها البرء أبدًا، ربما كان أيوب أحد زارعي الألغام في معركته الخاسرة.

أيوب الذي بكى نفسه وصديقه وانهيار حلم الخلافة، دون طائل من البكاء والرثاء والندم، وهل تراه يجدي وقد تشظت العائلة

بالخلافات والمنازعات وضاعت الزوجة والأولاد وتمكن الغل من القلوب.

أنت قتلت.. أنت قاتلت.. أنت سكت.. أنت أيدت.. أنت أهملت.. أنت دعمت.

جروح ستظل مفتوحة إلى الأبد.

في ذروة تلك الآلام، آن أوان مصارحة أمي أو ما تبقى من أمي بأن لأختي الراحلة طفلة في روما تدعى «قورينا إدواردو» أخفت أمرها خاشية من أيوب، بدافع ألا نخسر أخانا أو يخسرنا وأن تظل العائلة موحدة مجموعة لا يفرقها اختلاف في رأي أو خيار.

كانت سرية الزواج من اقتراحي أنا وآمال، فنحن أدرى بطبيعة ريم الفاقدة للشغف، المهجرة نفسيًّا من مجتمع لم يتقبلها متأتئة مذ فتحت عينيها فيه. بالكاد صدقنا أنها عرفت الحب عندما أتت وصارحتنا بأنها تكن مشاعرَ ودودة لإدواردو. كانت آمال امرأة عملية دفعتها إلى اتخاذ قرار الارتباط دون كثير من الحسبة والتفكير والتدقيق، فالحب لا يتكرر أما الأطفال فبإمكان أي زواج أن يأتي بهم، وكان رأيي أن الاستغراق في دراسة الأمر سيصعبه ويجعل رغبتها تفتر وتتلاشى.

عوضًا عن الصدامات العقيمة مع قناعات الآخرين، وعائلة تتناقش طوال الوقت، استحقت ريم أن تحب وتحيا وفقًا لحاجتها لا وفقًا لوجهة نظر أحد.

سنترك ردة فعل أمي جانبًا حول أمر بات مقضيًّا، فردّات الفعل لن تكون بأهمية أن تلتقي حفيدتها وصهرها في تونس. لم يعد ثمة جديد صادم، فأمي التي ودعت أختي بالأمس القريب واحتملت وهي تغرق في الوجوم والدموع بتر ساق أيوب ودفنها تستطيع مواصلة الغرق حتى تلتقي قورينا وتتعرف إليها.

لم يعد ثمة ما يقال، ستأتي قورينا إلى جدتها، وتدخل اليد الصغيرة في اليد الكبيرة، وتلتصق الدمعة الثكلى بالدمعة اليتيمة وتحاول الكلمات أن تعزي بعضها بعضًا وتبكي الروح روحها فيما تبقى من الوقت.

ستأتي قورينا، هكذا يخبرني يقيني، لكن هل ستكون أمي قادرة على الكلام من جديد أو على التمييز بيني وبين أختي مرة أخرى؟

لست أدري!

روما - كاتوليكا إيراكيليا

٢٠٢٠_٢٠٢١

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

كنّا نتسلّل إلى غرفتها لنتأمّلها كيف تنام، واضعة أسنانها بجانبها على الكومودينو، مُسدلة على قدميها منشفةً للحيلولة دونهما ودون الكائنات غير المرئية التي تأتي في الليل لتأخذ أقدام النيام وتمشي بها واضعة مكانها الكوابيس والأحلام المزعجة.

كنّا نحفظ شكل المنشفة كي لا نمسّها بعد مغادرة تِتي أتريا إلى سوسة. كما كنّا نربط كلامها أثناء النوم بأسنانها المنزوعةِ، ونومها ممدّدة على ظهرها، إلى أن يتأثّر كلّ من ينحدرون من إغريق قورينا وسوسة بالموتى الأزليين الذين يشاركونهم المدينة نصفًا بنصف. إلّا أن الموتى لا يشخرون، وتِتي أتريا يصل شخيرها إلى روما.

كان أخي أيوب يحيك لنا قصصًا مخيفة عن بيت تِتي أتريا وعن البحر الذي غمر جزءًا من البلدة القديمة وسيغمر بيت جدي لا محالة بعد مضي تِتي أتريا إلى ربّها، لعله في انتظار رحيلها ليفعل، فالبحر ليس ببعيد، لكنّه لن يتمدّد ليُغرق امرأة غارقة في الوحدة.

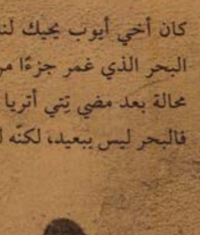

نجوى بن شتوان

كونشيرتو

قورينا إدواردو

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 775563

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com